

الاختلاج اللساني
سيمياء التخطيط النفسي
نعيم علويّة
المركز الثقافي العربي

الاختلاج اللساني

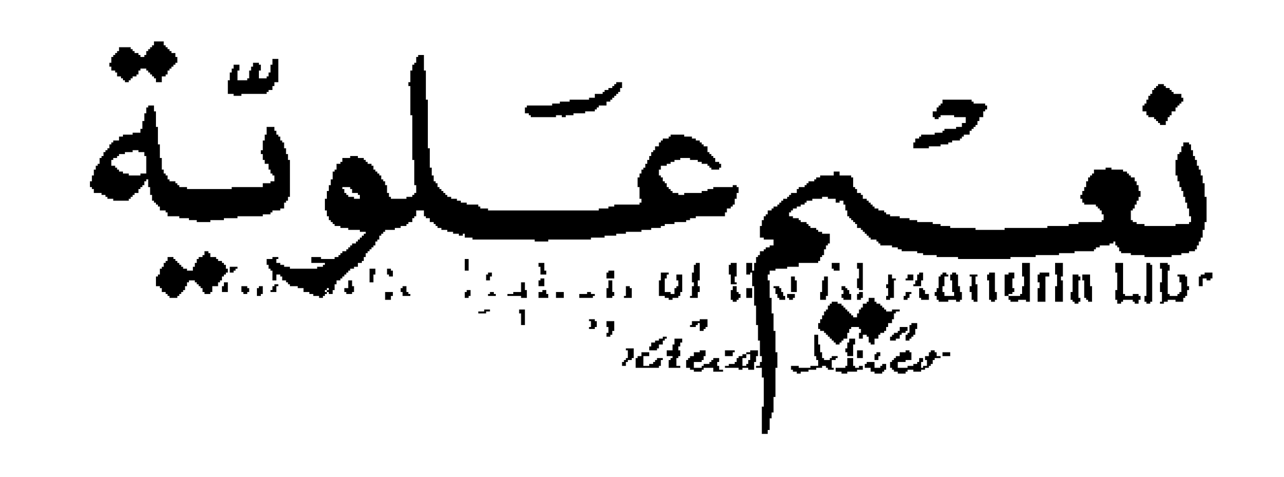
* الاختلاج اللساني (سيمياء التخطيط النفسي).
* المؤلف: نعيم علوية.
* الطبعة الأولى: غشت (آب) 1992.

* الناشر: المركز الثقافي العربي.
* العنوان:
□ بيروت/الحمراء ـ شارع جان دارك ـ بناية المقدسي ـ الطابق الثالث.
* ص. ب/113-5158/* هاتف/343701-352826/* تلكس/NIZAR 23297LE/

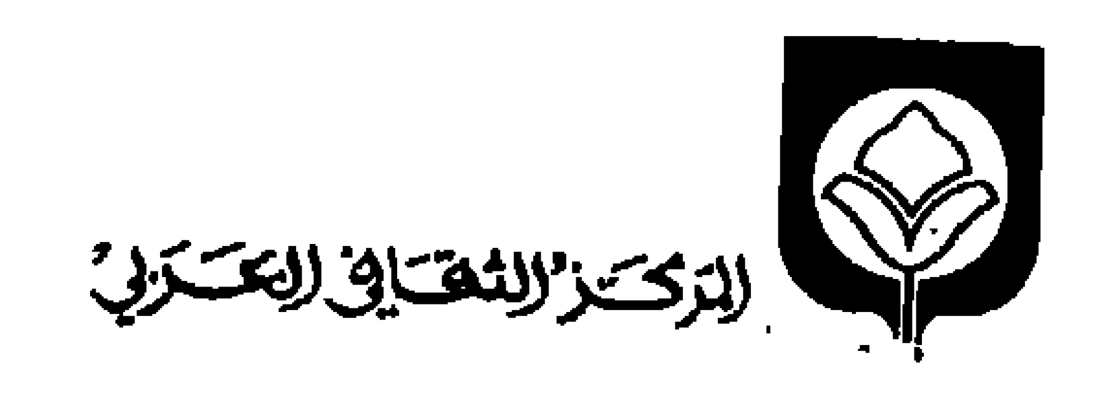
□ الدار البيضاء/● 42 الشارع الملكي ـ الأحباس * ص. ب/4006/* هاتف/307651-303339/
● 28 شارع 2 مارس * هاتف/271753 - 276838/ * فاكس /305726/.

الاختلاج اللساني

سيمياء التخطيط النفسي



نعيم علوية



إهداء

خلدون

كيـف تحيـا القفـار إن لـم نثـرهـا
بـاختـلاج مـن روحنـا فـي سـراج؟!

أخذت أوجس خيفة من كتابة المقدمة منذ أن دفعت دار النشر مادة «الاختلاج اللساني» إلى المطبعة. ولكني كنت كالمقبوض عليه ورجوت لو أن واحداً غيري يحمل عني عناء المقدمة. ألا يكفيني ما ذقته في تأليف هذا الكتاب الذي لم يحرر كاتبٌ في موضوعه حرفاً؟!

لقد كان الخوف يفيض عليَّ من محطتين للنظر. فإذا انتبهت إلى تشعب الشعيرات الناسجة لكل اختلاج لساني أطبق الضيق على خناقي وأحوجني إلى هرب «ما إليه سبيل». وإذا انتبهت إلى حاجة المقدمة، من ضرورة الإلمام بكلية النصوص ليكون التأليف بها مثيلاً لبناء جملة من ستة عشر بحثاً، كلها في أعماق النفس وفي الاختلاج اللساني، قنعت بأن هذا الكتاب لا يحتاج إلى مقدمة.

ما المقدمة؟ إذا لم أقل في المقدمة شيئاً غير الذي تقوله مباحث الكتاب فما الفائدة؟ وإذا قلت شيئاً آخر فكأني أضفت بحثاً وأنا لا أريد ذلك الآن.

الساعة تدنو وأنا أتعلق بالكتب والقواميس ومراجعة المؤلَّف علَّني أهتدي إلى نهج واضح. وتمخض الجبل فولد فأراً. فقد رأيت أخيراً أن أقول شيئاً على مادة (خ ل ج) وبعض مشتقاتها. ولم أجد شيئاً تخرج فائدته عما في لسان العرب سوى ما جاء في كشاف اصطلاحات الفنون للتهانوي وكلمة مفيدة للدكتور يوسف مراد في مقدمته التاريخية لكتاب «الفراسة» لفخر الدين الرازي. و «لغة الذبذبات» للزوجين مِلْني.

يكشف التهانوي عن اصطلاح طبي من مادة (خ ل ج) هو «الاختلاج». ويكشف يوسف مراد عن إناطة حقل معرفي فراسي باصطلاح «اختلاج»؛ فـ علم الاختلاج هو اسلوب آخر من أساليب التنبؤ يضاف إلى اسلوب الخَيَلان. وهو تنبُّؤ، على مذهب القدماء، يستند إلى الحركات اللاإرادية لأعضاء البدن الإنساني».

أما الاختلاج في الطب فيقول فيه التهانوي: «قال الأطباء هو حركة عَضَلانية بغير إرادة وقد يتحرك معها ما يلتصق بها من الجلد ويسرع انقضاؤها. . واختلاج القلب: حركة منكرة لفرط الامتلاء. واختلاج المعدة: حركة شبيهة بالخَفَقان». وقارن في مادة (ر ع ش) بين الرِّعشة والارتعاش وبين الاختلاج، فقال: «الحركة في الاختلاج تظهر سواء كان العضو ساكناً أو متحركاً ولا كذلك في الرِّعشة». «والاختلاج يقع في كل عضو يتهيأ منه الانبساط والانقباض كالأعصاب والعروق والكبد. وقيل: الفرق بينهما أن الاختلاج يحدث دفعة ويزول دفعة بخلاف الارتعاش».

ويكون الاختلاج المرضي طبياً بإزاء اصطلاح Ataxia الإنكليزي و Ataxie الفرنسي (كتاب علم الأعصاب Neurologie لـ Masson وآخرين، و (المرجع للعلايلي، اختلاج). وهو بإزاء الإحساس بالذبذبات لدى أطباء الحواس وعلماء النفس. وله صلة بالموجات الصوتية والضوئية والذبذبات في المعلوماتية وهي ليست عضوية.

إن البحث عن دلالة الحركة الاختلاجية طبياً علم يختلف عن البحث عن دلالة الحركة الاختلاجية لأعضاء البدن من منظار فِراسيّ. وهذان يختلفان عن علم الاختلاج اللساني الذي يبدأه هذا الكتاب. هذه العلوم، على تخصصها، وثيقة الصلة بالدلالة المعجمية اللغوية لمادة (خ ل ج) التي توجز مضامين المفاهيم لا أكثر. فأين هذه من «لغة الذبذبات» المتخصصة؟

علم الاختلاج اللساني يدرس الخلجات الصوتية والضوئية والحسية والنفسية التي تفضي إلى تكوين لفظٍ يختلج اختلاجاً في الذهن ومن ثمَّ في اللسان بصورة لا إرادية أو بعمل إرادي.

فإذا استعرضنا بعض الفروع الدلالية لـ (خ ل ج) في «لسان العرب» أو غيره من المعاجم فإننا نجد فعلاً أن معاني المادة من أصل واحد كما يقرر ابن فارس في «المقاييس». لكن معاني اللّيّ الفَتْل وقلة الاستقامة التى حصر فيها دلالة الأصل تبدو فروعاً. ويبدو الأصل في أساس تسمية الخليج خليجاً. كأن الحركة الدودية لسطح البحر في موجه الهادىء الناعم هي ما تستحق أن تتسم بالاختلاج إذ يظهر هذا الخَفَقان في الخُلجان. وإذا استسررت كيفية الخلق كما فعل أبو نواس حين قال:

سبحان من خَلَقَ الخَلْـ ـق من ضعيفٍ مهينِ
يسوقُه من هواءٍ إلى قرارٍ مَكِينِ
في الحُجْبِ شيئاً فشيئاً يَحُورُ العيونِ

فإنك تجد أن مادة (خلق) شقيقة مادة (خ ل ج): ق ⟵⟶ ج. فالحُبُكُ التي نجدها في فتل الخيوط والحبال تضيع في نسيج الموج أو نسيج الثوب ونسيج الطاقات: الأثير، الكهرباء، المغنطيس، والطاقة الصوتية والطاقة الضوئية والهواء والحرارة. فإذا عبر أهلنا عن اضطراب الأحوال النفسية قالوا: «موجة باردة وموجة ساخنة».

الحركات التي يُعَبَّرُ عنها بمشتقات خلج تتراوح بين المستتر الخفي كالشك وبين الصارخ كالأصوات التي يحدثها الرعد. وفيها المصوت وغير المصوت. وفيها المتردد كتذبذب الجفن واختلاج الشفتين وغير المتردد كالنزع والخلع. لكن العقل والعلم يثبتان أن الحركة، وإن في أقلها ومهما تكن جزئية، تظل ذات مُدَّة. ومهما كسَّرنا مدتها فإن الكسور لا تنتهي. صحيح أن الإحساس يمتنع من الإدراك عند حد معين من الحركة المؤثرة فيه. ولكن حدود الحركة المؤثرة في المعقول، دون أن ندرك تحسس الأعصاب لها، هي حدود مجهولة. فأعصاب الدماغ تعقل ثم تعقل ولا تبوح بما عقلت إلا بعد بلوغ التأثيرات مبلغاً. وما يُفوت الإدراك الإنساني، في أي صورة من صور الإدراك، فإنه لا يُسَمَّى لا في كتب اللغة العامة ولا بالألسنة اللاهجة.

ومهما تشعبت مداركنا من مدلولات (خ ل ج) فإن «الاختلاج»، وفقاً لتفسير لسان العرب، قادر على استيعابها. وسَّع لسان العرب مفهوم الأصل الدلالي لـ (خلج) حتى صار مفهوم ابن فارس فصلاً من مفهومه. فقد نصَّ على أن «أصل الاختلاج: الحركة والاضطراب».

وهذا المفهوم الواسع يشمل اضطراب الحركات الحسية والحركات النفسية، حتى يطولَ الجن: «وأشفِي من تَخَلُّجِ كلِّ جِنّ». كأن الجنون يتلبس نفس الشخص فيدير فيها حركات يضطرب لها الجسم اضطراباً غير معهود في الأصِحّاء.

«ويقال تخالجته الهموم إذا كان له هَمٌّ في ناحية وهَمٌّ في ناحية» وكل هم «يجذبه إليه». فالنفس في هذه الحال تعاني من جذب وجذب في وقت واحد. فيُتْعِبها أكثر تخبطها في الحركات المتضاربة. وتَخالُجُ الهموم للنفس يعني معرفتها أكثر من شاغل في لحظة واحدة، والنفس أميل إلى الحد من الشواغل. ولعل هذا هو السبب في تحويل خبرات كثيرة إلى عادات لا يلزمها من شغل المراقبة العقلية سوى ملاحظة الخلل الذي

يطرأ عليها، ولعله السبب في جاذبية الكسل وفي التخصص للتطلع والسعي من قواعد مطمئنة إلى مطامح كبيرة. وهو السبب في الخوف من الأزمات التي تعصف بالخبرات التي تسكنها العلاقات الاجتماعية القارَّة حتى تنشأ قواعد جديدة. فبلا العادي لا يكون تطور وبالتقوقع في العادي يقف التطور.

ونلاحظ انزعاجاً من دخول شاغل على شاغل في الحديث الذي فيه «أن النبي (ص) صلى بأصحابه صلاة جَهَرَ فيها بالقراءة، وقرأ قارىء خلفه فجهر، فلما سَلَّمَ قال: ظننتُ أن بعضكم خالَجَنِيْها؛ قال: معنى قوله خالجنيها أي نازعني القراءة فجهر فيما جهرتُ فيه، فنزع ذلك من لساني ما كنتُ أقرؤه ولم أستمرّ عليه».

هذه الطريقة في إزعاج المتكلم عن كلامه أدت إلى اختراع جهاز يُرَدِّدُ على سمع المتكلم عباراته التي يتفوه بها عن طريق سمَّاعات توضع على أذنيه. وبهذا الجهاز تختبر شركات التأمين سلامة سمع الذين يطالبونها بتعويض عن فقد السمع. فإذا بَلَغَ كلامُ الجهازِ سمعَ المتكلم الذي يدَّعي الصممَ فإن هذا يَعْجِزُ عن مواصلة الكلام؛ وإذا كان أصَمَّ حقيقةً فإن كلامَ الجهاز لا يربك لسانَهُ، فيواصلُ كلامه. «ولا يستطيع أي مُدَّعٍ مزيف أن يستمر في الكلام إذا كانت أذناه تستمعان إلى كلماته نفسها بعد عُشْريٍّ أو ثلاثة أعشار الثانية، وسرعان ما يصيبه الارتباك» (الحواس في الإنسان والحيوان، الزوجان مِلْني).

عرف المخترع أن هذا العمل يؤدي إلى هذه النتيجة. أما السؤال: لماذا يعجز المتكلم الذي تتلى على سمعه عباراته عن مواصلة الكلام؟ فقد ظل بلا جواب. والجواب وفقاً لدروس الاختلاج اللساني هو التالي: كل متكلم تنشغل عنده أعصاب المركز اللغوي الدماغي باختلاج وحدات الكلام الذي يفوه به؛ وهذا الاختلاج هو المدفوع في اللسان لإخراج الحروف المصوتة. فإذا ما عادت الجملة إياها إلى الذهن عن طريق السمع وَجَبَتْ أعصاب الدماغ بها وَجِيْبَها الذي فارقته للتو، فيجد هذا الوجيبُ طريقه إلى اللسان سالكاً فيمضي فيه، في الوقت الذي تكون فيه النفس قد بدأت تخط في الدماغ اختلاج الجملة اللازمة للحاق بالسالفة. فيتخالج اللسان اختلاجان قادمان من الدماغ، يتزاحم على اللسان موجتان من الاختلاج اللغوي الذي يُبْرِق به الدماغ إلى اللسان كي ينفِّذه. فيكون اللسان ماضياً في تنفيذ جزء من الرسالة النفسية فيفد إليه اختلاجُ جزءٍ من الرسالة المدسوسة، فيخلِّط كلاماً من هذه وكلاماً من تلك. إن هذا لا يختلف عما يحدث للشخص المنفصم الذي يخالجه كلامٌ لشخصية تتلبسه وكلام له أو لشخصية أخرى تتلبسه، فَيَهْشِتُ من كل وادٍ عصا.

هذا الاضطراب في الاختلاج اللغوي الدماغي هو ما أشارت إليه كلمة الحديث: «فَنَزَعَ ذلك من لساني ما كنتُ أقرؤه ولم أسْتَمِرَّ عليه». إن المتكلم إذا وجد نفسه في هذا الوضع آثر السكوت إن هو شاء حفظ ماء الوجه.

أليس ذلك نزعاً للشخص من حال، أو نزعاً لحال الشخص، شبيهاً بنزع الرمح من الجرح مع زعزعة؟

«واختلج الرجلُ الرمحَ من مركزه: إنتزعه». «واختلجها: كَخَلَجَها»، «وخَلَجَ المرأة يَخْلِجُها خَلْجاً»، «والخَلْجُ ضَرْبٌ من النِّكاح، وهو إخراجه، والدَّعْسُ إدْخالُه». كأنما خَلْجُ الرجل للمرأة أو اختلاجه إياها ضربٌ من إنباضها وإحداث الخَفَقَان عندها بالجماع، أي الإشهاد. فهذا من سواء الاختلاج.

وجاء في «اللسان»: «خُلِجَ الفحل: أخْرِجَ عن الشَّوْل قبل أن يقدِر».

الفحل في اندفاعه نحو أنثاه يكون جارياً في مجرى من الحركة وخَلْجُهُ عن مجراه هو تحويله عنه. فقد كان يأتي حركات فصار يأتي حركاتٍ غيرها. لنقل إنه كان منساباً في تيار من الحركات فانعطف قسراً وانساق في تيار مختلف. كالولد الذي كان منساباً في رضاع فجذب عن ثدي أمه وصار يتحرك في ميوله نحو ما كان فيه. فتيار الحركة الذي كان جارياً فيه هو غير تيار الحركة الذي بات فيه.

فيكون الخَلْجُ جذباً وتحويلاً عن سياق إلى سياق آخر.

وينسجم مدلول التخلُّج مع هذا المدلول. «تَخَلَّجَ المجنون في مشيته: تجاذب يميناً وشمالاً». و «يخلِجُ في مشيته خَلَجانَ المجنون أي يُجتذَب مرةً يَمْنَةً ومرةً يَسْرةً». فلو رسمنا خط سير هذا المجنون أو خط خَلَجانه نجد دورات كدورات اهتزاز الوتر أو كدورات الموج.

فالخَلَجان إذاً موج من حركات الجسم. وله شبه في حركات النفس. «يقال: خَلَجَتْهُ الخوالج أي شغلته الشواغل»، كأنها صرفته عن حال كان سارياً فيه إلى حال ينتظم حركات نفسه. ويؤيد ذلك قولهم: «تَخالَجَتْهُ الهموم: نازعته»؛ فكأنه ينتزع نفسه من الهموم فتعود الهموم وتنتزعه من مجراه لتُسْلِكَهُ في مجراها؛ فتحوله عن تيار إلى تيار، وعن موج إلى موج، وعن شاغل إلى شاغل. فالمنازعة بينه وبينها، لا فيما بينها.

«لسان العرب» يقرر أن «أصل الاختلاج: الحركة والاضطراب». إنه يربط «الاضطراب» بـ «الحركة» ويشير إلى التبدل الطارىء في الحركات، بل إلى نوع من الشذوذ في الحركات، أو كأن صاحب المعجم يرى في الحركات المألوفة شيئاً من السكون يطيحه الاختلاج. فالعين في غمضها وانفتاح جفنيها منسجمة مع الحركة المألوفة للعيون؛ فإذا اختلجت واضطرب أحد جفنيها أزالت نفسَ صاحبها ونفسَ رائيها عن اطمئنانهما إلى سيرتها في الحركة.

لكن اختلاج العين «وكذلك سائر الأعضاء» إنما هو تردد منتظم لحركة العضو الطارئة والشاذة. وهذه الحركات أو الاختلاجات خارجة عن إرادة أصحابها. ومتى أصبحت أمراضاً مستديمة دُعِيَ واحدُها خَلَجاً، يسعى المصابون به إلى الشفاء منه. إنما هنا يدخل الاختلاج في صورة مثلى، في نظامٍ مَرَضِيّ.

ومن الاختلاج غير المَرَضِيِّ ما يكون إرادياً. فقد يستطيع البعض إرادياً أن يرقِّص أحد أعضائه رقصة الاختلاج العفوي اللاإرادي. كما يستطيع عامة الناس أن يحكوا بحركات وجوههم حركات وجوه الآخرين. ويروي الحديث من هذا «أن الحكم بن أبي العاصي أبا مروان كان يجلس خلف النبي (ص)، فإذا تكلم اخْتَلَجَ بوجهه فرآه، فقال: كن كذلك، فلم يزل يختلج حتى مات؛ أي كان يحرك شفتيه وذقنه استهزاءً وحكايةً لفعل سيدنا رسول الله (ص)، فبقي يرتعد إلى أن مات»، «وقيل مرتعشاً». ومثله خَلَج الأعضاء من التعب.

وبهذا تتعين لاختلاج الأعضاء صفةُ الإرادية بعدما تعينت له صفة الانتظام. فهل يمكن أن يتحقق لاختلاج النفس مثل هاتين الصفتين؟

نقول: «وما يخالجني في ذلك الأمر شك». فالشك فكرة تضرب مسار فكرة، كأن تكون مطمئناً إلى براءة امرأة فيعتمل في نفسك ما يجرح هذه البراءة. فهذا الشك ينازعك مجراك النفسي المطمئن، يُدْخِلُ البلبلة في اطمئنان الحالة النفسية ومجراها. وقد لا تتمكن من التغلب على الشك فيظل يخالجك. يقول المتنبي:

وصرتِ أشُكُّ في مَنْ أصطفيهِ ... لعلمي أنه بعضُ الأنامِ

ولكي تعرف دواء للشك يلزمك أن تعرف العقل وأن تعرف دواء للعقل. فمعرفة الشك جزء من معرفة نشاط العقل وقوانين عمله. وإيقاف نشاطه وتحريكُ نشاطٍ آخر بفعل الإرادة بابان للمغامرات.

يستوقفنا من تفسير الحديث السابق قوله: «كان يحرك شفتيه وذقنه استهزاءً وحكايةً لفعل سيدنا». فهذا النص يلحظ تحريك الشفتين حكايةً لتكلم الرسول؛ إذ أن الحكم كان يختلج بوجهه إذا تكلم الرسول. ومفاد قوله «يحرك شفتيه» هو أن هذا الاختلاج قد جاء مُوَقَّعاً على حركة شفتي النبي وهما تسهمان في نطقه بكلامه. شفتا الحكم تتحركان حركات كلامية أي منتظمة انتظام حركات الشفتين في الكلام، ولكنها حركات ليس لها من القوة ما يولد أصوات الكلام المناسبة لها.

فها هنا نجد نصاً يتحدث عن عضوين من أعضاء النطق يختلجان بكلام ولكن بلا صوت. صاحب التفسير لم ينطق بعبارة اختلاج الشفتين صراحة. ولكنه استخلص من اختلاج الوجه، حكايةً لوجه النبي الناطق، قوله: «كان يحرك شفتيه»؛ فيكون تحريك الشفتين جزءاً من اختلاج الوجه؛ فهو إذاً اختلاج شفوي ناطق بكلام صامت. وهذا يمكّننا من إطلاق عبارة «إختلاج لساني» على كل اختلاج كلامي صادر عن أي عضو من أعضاء النطق وبخاصة اللسان، لأنه العضو الأبرز في أداة الكلام المصوت والصامت ولأن اللغة تسمى باسمه. وجاء في «مقتل سيد الأوصياء»: «نظرنا إلى شفتيه وهما يختلجان بذكر الله» (ص 46). وجاء عند مارون عبود: «ترقص الكلمة على شفتيها ثم تتوارى».

ونقف عند القول: «ما يخالجني في ذلك الأمر شك» كي نشير إلى اختلاج لغوي آخر غير مصوت هو الشك الذي يدركه المرء في نفسه أحياناً بصورة كلامية ذهنية.

فهذان مستويان من الاختلاج الكلامي الصامت: واحد في أعضاء النطق والثاني في النفس، أي في أعصاب المركز اللغوي من الدماغ. ومن هذا قول النبي لعديّ: «لا يَخْتَلِجَنَّ في صدرك» «أي لا يتحرك فيه شيء من الريبة والشك». فقد كانوا يرون أن الصدر موضع الكلام النفسي لأن القلب فيه. ولا تزال العامة تقول: «قلت في قلبي»، والفرنسيون يقولون: «retenir par cœur».

وما دامت الشفتان تختلجان بكلام صامتٍ عندكَ اختلاج شفتي الآخر بالكلام الصامت عينه فإنه يلزم عن ذلك القدرةُ على قراءة هذا الكلام الاختلاجيّ الصامت سواء بمعرفة الشخص لما يصدر عن غيره من مثل ما يصدر عنه مما خَبِر، أو علمياً بمعرفة قياس كل اختلاجة وترجمتها إلى الحرف الذي يكون بها: موجة اختلاج ⟵⟶ حرف اختلاجي.

إن قياس الطاقة المتأتية عن اختلاج الأعضاء بأحد الحروف ممكن؛ وقد أُنجِز شيء منه على طريق التحويل الصوتي/الخطي والخطي/الصوتي. وبقي مستعصياً الاختلاج الجزئي.

إن النطق ولو صامتاً بأي حرف يستوجب انعقاد المخارج المختصة بنطقه. فالطاقة المتولدة عن انعقاد المخارج، مخارج أي حرف، هي طاقة حاصلة عن نشاطات اعضاء عدة في وقت محدد. بينما يمكن أن يختلج عصب أو عضلة دقيقة في أحد الأعضاء المشاركة في النطق بأحد الحروف وينتج عن ذلك الاختلاج الجزئي الدقيق إدراكٌ لهذا الحرف. ويمكن أن يختلج في مرة ثانية عصب آخر وعضل دقيق آخر في عضو آخر من الأعضاء المشاركة في النطق بالحرف نفسه وينتج عن هذا الاختلاج الجزئيِّ المختلف إدراكٌ للحرف ذاته. ولا يسع أحداً إحصاء الاختلاجات الجزئية المختلفة التي توصل إلى إدراك حرف بعينه، ومن ثم كلمة فجملة؛ لأن قدرة الاختلاج الجزئي على توليد الوحدة اللسانية ليست قدرة آلية فقط. إنها آلية ونفسية في وقت واحد؛ وهي بالتالي متغيرة مع كل ظرف. وقد ينفذ الاختلاج من عضو إلى آخر متصل أو متاخم فيتكلم الاختلاج الثاني.

لهذا التشعب يظل سر الإنسان ـ إذا شاء ـ بينه وبين ذاته، لا يطَّلع عليه إلا وعيه الفردي؛ إلا أن تُبْتَكَرَ آلةٌ تشم من بعيد رائحة الكلام الدائر في خلايا المخ والدماغ وتترجمه وتظهره صامتاً أو مصوتاً. وهذا التنجيم يبدو بعيداً عن استطاعة العصر. وادِّعاؤُه اليوم يشبه ادعاء المنجمين الذين احتاجوا دائماً إلى معرفة حركات الأفلاك والأبراج في سعيهم إلى معرفة أكناه الناس. ناهيك بمحاولاتهم «التنبؤ» بالدلالات المكنونة في الحركات اللاإرادية لأعضاء البدن. د. يوسف مراد ذكر مع «علم الاختلاج» مخطوطاتٍ عربية عدة بينها واحدة لابن عربي عنوانها «في الاختلاج». وهذه المباحث عرفها الأقدمون ومنهم اليونان. وللعامة في رفيف الجفون استدلال: عين اليمين هم مقيم، عين الشمال جمع شمال، وأصحاب المعاجم مختلفون في دلالته.

وليس من مصادرنا كبير فائدة لموضوع الكتاب. كما أن عنوان «الاختلاج اللساني» تعبير لا ذكر له في أي مرجع. وقد طرأ في أثناء استقصاء إحدى قواعد عمل الفكر في الأشهر الأولى من عام 1987 دون قصد.

وكان «الاختلاج اللساني» عنواناً لهذا الكتاب لأن أبحاثه تدور على الاختلاج اللغوي

ولاعتبار اللسان وسائر أعضاء النطق تؤدي، بشتات اختلاجاتها، إلى تولد نشاطات كلامية في المستوى الذهني. كما أن أكثر النشاطات العقلية والفكرية إنما تنتهي بحركات نطقية في اللسان أو في غيره من أعضاء النطق؛ فدل الاختلاج اللساني على الكل لأنه العامل النطقي الأكثر تردداً ووضوحاً بين سائر اختلاجات الأعضاء.

وقد يكون في الدماغ اختلاج لغوي، لا بحركة من أعضاء النطق، بل بحركة عفوية تصدر عن أي عضو من أعضاء الجسم، أو يكون ذلك الاختلاج اللساني الدماغي بإحساس في الجلد أو في العين أو في أي حاسة حتى الذوق، بل وحتى داخل الجسم وبحركة الدماغ الذاتية.

وهذا ما يغري بافتراض سطح جسم الإنسان كله آذاناً اختلاجية لا صوتية كانت تؤدي إلى الدماغ رسائل اختلاجية كرسائل أعصاب الأذن المتخصصة بنقل الذبذبات إلى أن استولت الأذن والعين على هذه المهمة وبُرِّدَ بذلك النشاطُ اللغوي لسائر الجسد. وقد يمكن إحياء مثل هذه الوظيفة، لا بإجراء اللمس على مصدر الطاقة (الحروف النافرة) ولا بإرسال موجات من الذبذبات إلى اللمس محصلة من التفوه ومقواة بجهاز استقبال مثبت على الجسم (ما تنميه الجيوش الحديثة) بل بابتداع أبجدية اختلاجية ومعجم اختلاجي يمكن بث النصوص المؤلفة منهما باتجاه الملامسة؛ وهي نصوص تتفق مفرداتها وجملها وحروفها في القياس والوزن مع مقابلها الذي يجري اختلاجاً في أعصاب الدماغ. ويمكن الحصول على نماذج من ذلك المعجم الاختلاجي بتدوين مقاطع معلومة من ذبذبات إبرة التخطيط الدماغي التي تجري مجرى النشاط اللغوي في المركز اللغوي من الدماغ. جهاز التخطيط الدماغي اللغوي لا ندري هل هو موجود أم لا.

والاختلاج اللساني في المستوى الذهني يشكل بياناً في منتهى الدقة لأهم ما يجري في نفس الشخص وفي جسده وفي فكره مما لا يستطيع أحد الاطلاع عليه سوى الشخص عينه من خلال كوى دقيقة يثقّبها الاختلاج اللساني في الحجب القائمة بين الوعي والنفس، من خلال ما يتولد عنه فيها، أو من خلال توليدها إياه في أعصاب الدماغ وفي جهاز النطق بفضل دقائق المشاغل النفسية (حسية وغير حسية، بما فيه الأحلام) التي تتحصحص في صورة اختلاج كلامي.

وليست أهميته نابعة فقط من كونه كاشفاً الذات لذاتها وبالتالي لغيرها؛ إنما أهميته

الفضلى تقع في إبانته عن المراحل المظلمة في العملية النفسية، لا تلك التي يضيء علم الأحلام شيئاً من غموضها. والاختلاج اللساني مساعدٌ كبير لعلم الأحلام في مهامه الصعاب، ولعلم النفس عموماً.

إنما المقصود بالمراحل المظلمة من العملية النفسية هو ما يحدث في «المفاصل». فقد نلحظ اختلاج حرف (سَ) في أذهاننا. ونلحظ كذلك اختلاج لفظ (سَبيكة) بدءاً من (سَ). أما كيفية تكون اختلاج (سَ) وكيفية تكون سائر العناصر في (سبيكة) بصورة اختلاجية وكيفية اتصال اختلاج الحرف باختلاج أخيه ليكون هذا الترتيب للحروف بعينه فمسائل من أدق ما يقع عليه الوعي. فالـ (سَ) جُرَيس خام، كان جارياً في الأنفاس فحصله الإحساس، فنما به في الدماغ اختلاج حرف (سَ). وكانت في الأذن أصواتُ تصاكِّ أَوَانٍ معدنية يجرس بجروس كافيَّة خامٍ، فنشأ عنها اختلاج حرف (كَ) الذي حام في الذهن حول (سَ) ولم يمازجها. لكن الشفتين كانتا مغلقتين والنَّفَسُ يهزهما ويعود فيخرج من الأنف، وبهزهما تتولد اختلاجات ميمية وبائية فاسْتَغَلَّ الذهنُ اختلاج (ب). والاتكاء بالساعدين على الطاولة مكَّن من ظهور اختلاجة رئوية مع الزفير الضاغط على الصدر ضغطاً مماثلاً للذي نعهده مع الكسرة الطويلة: (ـِ ي). فابتنى الدماغ من هذا كسرةً ضمها إلى اختلاج الـ (ب). وضم (بي) إلى (سَ) واستلحق بهما الـ (كَ)؛ وأَلَّفَ من المجموع (سبيكَ)، وكانت زفرة ارتياح فاقْتُطِفَ من هوائها الـ (ـَ ه) فانضمت إلى هذا المجموع وكان اختلاجُ (سبيكه). وما إن كان حتى لمع في الخيال سلسال ذهبي وضعته بنتي سلمى في معصمها منذ ساعة.

وهذا يفيد أن أثر الذهب في النفس كان ما يزال يعاود النفس أي يختلج فيها من غير أن تكون له صورة ولا لفظ يقع عليهما الإدراك طوال الساعة التي مرت في وصل وفصل أشرطة كهربائية نحاسية لامعة.

وليس المفصل الذي يربط صورة خيالية بأخرى حسية أو خيالية، ولا المفصل الذي يربط فكرة بفكرة أو شعوراً بشعور، مما يكون مطموساً، بأقل دقة مما ظهر لك في انفطار اختلاج لفظ (سبيكة). سيكون في وسعك، لا أن تدرك فقط التشبيه الجميل والاستعارة الجميلة والإيحاءات التي تبثها التفاصيل الدقيقة لتتلبس ظواهر عامة، بل سيكون في وسعك أيضاً مع «الاختلاج اللساني» تَبَيُّن مفاصل العمليات النفسية المتطورة والمتفاعلة والمتوالدة. وقد يكون علم النفس الآتي، المتفوق على علم إدراك الوقائع والأحداث

النفسية، عِلْماً متخصصاً في وعي لحظات الطفرات. ماذا حدث ما بين فرحة الولد الراكض للقاء أمه من بعد غياب وبين تحول ضحكه إلى بكاء غامر ومجهش؟ ماذا كان بين هلع الولد المقبوض عليه ليلقى موسى الخاتن وبين استعطافه الخاتن في لحظة الختان بقوله: «يا حبيبي»؟ وماذا يكون من أحداث نفسية دقيقة، وغير نفسية، على التخوم بين المفاجأة بتحقق المعجزة وبين التشهد؟ وهل ضبطت اللحظة التي ضم فيها العقل اللغوي العامي صوت (ـَ ه) إلى (ساع) لتكوين (ساعَهْ)؟ بينما يضم هذا العقل صوت (ـِ ه) إلى (عنز) لتكوين (عَنْزِه)؟ أوَلا ترى أن الزفرة مع حرف الحلق تجري من منصة الفتحة، بينما تجري الزفرات في العادة من منصة الكسرة؟ وأن العقل اللغوي المضطر إلى الصوامت الحلقية قد انصاع لها وضم صوتاً خاماً حادثاً مع زفير حرف الحلق إلى هذا الحرف مقتصداً باستغلاله الصوتَ الخامَ بدلاً من افتعال صوت لغوي؟ ذلك أن الصوت الخام تساوى هنا مع الصوت اللغوي في الذهن بعدما تساويا في الإحساس الاختلاجي الحلقي وفي التصويت المحسوس بالسمع: (ـَ ه) من الزفير = (ـَ ه) من الحروف. والانسجام ما بين صوت الزفير الخام وأصوات نهاية الألفاظ الرائجة ظاهر في العربية والإنكليزية والفرنسية.

ولا يختلف عمل العقل اللغوي العامي، من حيث الطريقة، في (ساعة) عنه في (عنزِه). فالزفير المكسور (الجاري من مخارج الكسرة) يأتي بصويت خام مماثل للكسرة. والعقل يدرك قيام الكسرة الحرفية في الذهن بقيام جريس الكسرة الزفيرية الخام، فيستغل هذا الصوت الخام جاعلاً منه حرفاً لغوياً ويعفي نفسه من إصدار الأمر إلى جنده الأعضاء لإصدار كسرة لغوية. لا داعي عنده لصناعة مادة والمادة بين يديه. إن لهذا الوقت الحي عملاً آخر. فهذا من مبادئه. حتى أن بعض المخطوطات الحديثة تهمل وضع النقطتين على أي تاء ختامية مربوطة. وهذا يعني أن العقل أخذ يوفر الوقت اللازم لمثل هذا الانتباه ولمثل هذا العمل في الخط كما في النطق. ولو عددنا أواخر حركات الألفاظ لوجدنا الكسر أطغى لأنه مستراح التنفس: ـِـه .

إن هذا التجسس على النفس والعقل يكشف لنا شيئاً من قواعد النشاط النفسي والعقلي. ويكشف للوعي بعضاً من طَفَرات المَرَضِيِّ في الصِّحِّيِّ. فيكاد منبع الوعي أن يتعرض للوعي.

ليس لكتاب «الاختلاج اللساني» أي غاية فلسفية. إنه يلاحظ الظاهرة اللسانية

ويتحرى تكونها بشطريها الظاهري والباطني، ويقول رأيه. وقد يكون من عيوب الرأي فيه أنه يستعمل اسم المحكوم عليه بصيغة الجنسية بينما تجري الملاحظة للعَلَم الفرد الذاتي. لكن الحقيقة المنظورة التي دأب الكتاب على ذكرها بدقائقها تمكن أي قارىء مثابر من الوصول إلى رأي قد يتجاوز الرأي المكتوب. بل إن المادة المنصوصة توحي بأن آراء القارىء لن تقف أبداً عند حدود آراء المؤلف؛ فبين يدي القارىء نصوص لا يعي الكاتب حدود فوائدها.

فهذا هو شأن الأحكام. إنها واقعة في مقولات التجريد الرياضي، بينما تقع موضوعاتها في صنف المفرد المحدود، في صِنف العينيات. فالكلمة الملفوظة هي مفرد لغوي. فبما هي مفرد تكون مستقلة. وبما هي من مفردات اللغة، أي بما هي جزء من كائن أعم، فإن الأحكام المتعلقة بها تطولها وتطول سواها. فلو قلت: «خَطِفَ» بوَزن فَعِلَ يَفْعَلُ، تكون قد أتيت على ذكر الاختلاج اللغوي الدماغي الذي - إذا وَجَبَ وجيبَهُ المؤلَّفَ من ثلاث حركات شبيهةٍ بالحركات التي تكون بـ: أ إ أ - يعطي لفظاً من وزن فَعِلَ، سواء ظهر هذا اللفظ بصورة اختلاج بلا صوت أو بصورة اختلاج مصوت.

وعندما حكمنا بأن أعصاب الدماغ تختلج اختلاجاً نوعياً نكون قد حكمنا بأن هذا الاختلاج النوعي يشكل المثال أو المضرب الذي تُضْرَبُ به أو عليه الأمثال التي هي الألفاظ المشمولة بمقاسه ووزنه. هي أمثال واحدها مِثْل وهو مثال.

هذا الحكم الذي يبدو متعلقاً بكيفية النطق بالألفاظ الموزونة بوزن فَعِلَ يخرج إلى حكم أعم. فكأننا به نفلسف اللغة، لأننا نقول: اللغة استعداد عصبي دماغي (بمركز اللغة) للاختلاجات المعدودة بعدد الأوزان، وكلما كان اختلاج أحد الأوزان نشأ هذا اللفظ أو غيره مما يوافق الاختلاج المثالي في حركاته. وهذا الاستعداد ليس فقط وليد تداول الأصوات لأسماع الجماعة. بل إن الوزن، كاستعداد عصبي حركي قابل للتردد، إنما تتأهل له أعصاب الدماغ بفضل أمواج متماثلة من الحركة الحسية والشعورية والخيالية التي تتناهى إلى تلك الأعصاب. فليس بمجرد قولك (سَفَرْجَلَهُ اللهُ) تَشيع أفعالٌ بهذا الوزن.

ولكن - وليس للأسف - الاختلاج المثالُ يظل معروفاً في وعينا أنه هو رغم ما ينتابه من مد وجزر. فليس في الأعصاب اللغوية «آثار مرسومة» «empreintes déposées» على

حد تعبير ده سوسور. كل ما هنالك نوع مخصوص من حركات الأعصاب يلزمه أن يتبدل تبعاً للأحوال والظروف النفسية الموصولة بظروف الجسد والدنيا، ويظل مع انقباضه وانبساطه معلوماً أنه هو. وقد يطرأ عليه ما يدمجه بغيره أو ينقله إلى صيغة ليست معهودة. ودليلك عليه ليس بعيداً أبداً عن متناول أي ناطق. فكلامك الصامت وكلامك المصوت وكلامك الذهني والحلمي وكلام غيرنا الذي يصل إلينا كلها شواهد أحوال ذلك الاستعداد اللغوي الموجود كامناً أو ناشطاً في أعصاب ادمغتنا. فالـ «مثال» ليس أفلاطونياً أبداً. إنه استعداد جماعي دماغي لحركات متماثلة تتعب الجماعة في الحفاظ على تماثلها بالتربية اللسانية والنقد اللساني المتواصلين. ولا يحلم أحد في أن تأتي متطابقة. إن اللفظ من لسان الواحد كالتوقيع من قلمه، يكون مختلفاً من مرة لمرة وقد يظل متماثلاً. ولولا الجهد المتواصل لصار توقيع البعض أقرب إلى توقيعك الحالي من توقيعك الأسبق. يقول صاحب «زاد المسافر» «الخط لليد لسان». وتطور الخطوط والألسن شاهد على تطور الاختلاج اللساني وتطور الصوت تبعاً له. حركات الأعصاب اللغوية علامات دالة يميزها العقل مثلما يميز حروف الخط.

وكل جماعة تنشق وتنأى فصائلها عن بعضها حتى تتقطع الصِّلاتُ يكون الهم في فروعها الحفاظ على لسان جامع. يجتهدون في بقاء الكلمة على ألسنة أفراد الجماعة متماثلة نطقاً وخطاً، أي واحدة توحِّد شتاتهم وتصلهم بالأصل عبر محاكيات تبتعد وئيداً أو سريعاً عن ذلك الأصل حتى في زمن الأشرطة المسجلة؛ إلى أن يكون لكل جماعة لغة جذورها من الأصل المشترك أوْ لا. ذلكم لأن الحركات النفسية المولدة لاختلاج اللسان متغيرة حكماً. فالجماعة تشترك فيما بينها لغوياً باختلاج مشترك حي لا تستطيع أن تمنع تطوره وليس لمصلحتها ذلك. ويُقَابَلُ كفاحُها من أجل اللسان الواحد بعداء يسعى أصحابه إلى تفتيت وحدة اللسان. لأن تفتيت وحدة اللسان لأي قوم يشبه تدمير أجهزة الاتصال والمواصلات لأي جيش تنتشر فرقه في بقع متباعدة.

إن اللغة بناء سيميائي من الحركات العصبية التي تقوم بها أعصاب المراكز الدماغية اللغوية عند تأثرها بالأحوال النفسية التي تنشط نتيجة لتفاعلات عضوية وعصبية داخلية أو نتيجة لتأثيرات حسية.

وهذا البناء السيميائي الاختلاجي يولد بحركاته الدماغية حركات نطقية سيميائية تولد بدورها حركات سمعية سيميائية يتكون بها بناء صوتي سيميائي.

وكل بناء من هذه الأبنية الأربعة المختلفة يتشكل من وحدات سيميائية، من علامات، ذات طابع خاص. فإذا كانت علامة من الاختلاج اللساني في الإدراك كان بها علامة من الاختلاج اللغوي في المستوى المركزي الدماغي. وإذا كانت علامة من الاختلاج السمعي في الإدراك كان بها علامة من الاختلاج اللغوي في المستوى المركزي الدماغي كذلك. وقل مثل ذلك في العلامة الصوتية. أما إذا كانت الحركة الاختلاجية السيميائية المركزية بحركة ذاتية في المركز اللغوي الدماغي أو لانفعال نفسي عاطفي خيالي عقلي حسي فإن هذه الاختلاجة تكون هي إياها العلامة اللغوية المرجعية التي تتفرع عنها سائر الوحدات.

الأبنية السيميائية الاختلاجية الكلامية الأربعة تشترك في رمز واحد هو البناء الاختلاجي المركزي الدماغي. وهو مرجع الفهم الذي يبديه الوعي. فإذا نقص نقص الفهم، وإذا اضطرب أو تلابس اضطرب الوعي والتبس. لأن الوعي وعي لما يقع عليه. ويدرأ العقل النقص والالتباس والاضطراب بطرق عدة توصل إلى نتيجة واحدة أو إلى نتائج تكون هي الاحتمالات. إذا لم يتبين للوعي صوت مسموع بلا لبس يقرب العقل الصوت الملتبس إلى صوت حرف. وإذا كان الظرف والسياق لا يسمحان بهذا الحرف بحث العقل عن حل آخر. . . حتى يستقر الرأي على نتيجة واحدة أو متشعبة. ذلك الرأي هو رأي الوعي أي ما رأته عين الوعي.

ويكون، بهذا، الاختلاج السيميائي المركزي كالتخطيط الدماغي الأولي للنشاط النفسي الظاهر أو الخفي أو شبه الظاهر وشبه الخفي. ويكون اختلاج اللسان وأعضاء النطق المتفرع عن الاختلاج المركزي اللغوي تجلياً ثانياً للأول. ويكون الاختلاج السمعي وتابعه الصوتي اللذان نشآ عن الاختلاج اللساني الفموي تجليين آخرين للاختلاج اللغوي المركزي.

كأن هذه الظواهر اللغوية الأربعة نصبت ليتوصل منها العقل إلى الوجه الصحيح.

إن الواحد منا يقول قولاً ثم يتراجع عنه قائلاً: ما قصدت أن أقول هذا. أو قد يسمع كلاماً فيشكك في ما سمع، أو قد يخلط لسانه حرفاً بحرف لاضطراب طرأ على عضو النطق، أو لتداخل أحوال نفسية متشعبة ينفرز لها في المركز اللغوي وحدة سيميائية ملتبسة تنتهي إلى لفظ هجين: شيء غريب ← شغيب.

يوقفنا درس الاختلاج اللساني السوي على درس الاختلاج المضطرب وغير السوي. وهذا معناه أن دروس الاختلاج اللساني لا تقتصر على علم النفس فحسب، بل هي سبيل إلى معالجة الخلل النفسي والخلل النطقي المترتب عليه.

ويمكن أن يفيد من هذه الدروس ـ عدا الباحثين في النفس ومشاكلها ـ الباحثون في علم اللسان وفي العلوم الإنسانية، كما يفيد منها مادةً نادرة الشاعر والروائي والمسرحي. وقد لا تخلو من فائدة في مجال المعلوماتية المدققة لما قد يمكن تحويله من اختلاجات لسانية إلى شفرات الكترونية قابلة للاصطلاح والإرسال.

وإذا كانت العبارات المتعلقة بحركات الأعصاب والأعضاء غير دقيقة أو خاطئة فإنها قد تثير أسئلة يجدر بعلماء البيولوجيا أن يلتفتوا إلى بعضها.

وهذا الكتاب لا يشكل سوى جزء من صيد المعلومات المتعلقة بالنشاط النفسي والفكري وبالأخص قوانين العمل العقلي فأمل أن نتبعه قريباً بكتاب آخر يحاول الدخول في مسائل مجانسة. كما نأمل أن يكون لمسائل الاختلاج اللساني هواة ومتخصصون يرتقون فوق المستوى الذي بلغناه؛ وقد يحوجهم ذلك إلى عشق وصبر في مجال قَلَّ فيه العشق والصبر.

بيروت ـ أيار 1992

المؤلف

التفكير في الفكر والتفكير كان منذ اهتمام الإنسان بإعطاء القوى النفسية ونشاطاتها أسماءها الوافية بالدلالة عليها: بعض أسماء النفس اقترنت بشقائق فعلية مثل: فِكْر/ فكَر، وعْي/ وَعَى، رأي/ رأى. . . بينما نجد اسم النفْس دون فعل شقيق يدلّون به على نشاطٍ نفساني.

وكان المتأملون في حقيقة الحياة والروح وما قرن بهما من تجليات نفسية ونشاطات ماورائية قد أفاضوا في الكلام حول ارتباط العبارة بتلك التجليات، حتى أن الله تعالى متكلّم، وحتى قيل: «في البدء كان الكلمة».

قامت أعمال الفلاسفة والحكماء والمعبِّرين والشعراء والمتصوفة وسنن الأنبياء، وقامت العلوم الحَـرْفية وعلم الاختلاج والنجوم وقامت شعوذات لا أول لها ولا آخر، وجميعها تصل الفكر باللسان. فحدّ أرسطو الإنسان بأنه حيوان ناطق ذهاباً منه إلى أن الإنسان حيوانٌ مفكرٌ نُطْقاً أي كلاماً. وكانت هذه مقدمّة للذين قالوا إن التفكير هو الكلام ولا تفكير دون كلام.

وسواء أكان التفكير قابلاً للانحلال في الأعمال النفسية الأخرى أم هو في نظر البعض غير قابل لذلك فإن الجميع لا يختلفون حول كون الأفكار تتجلى في عبارات لفظية. وهم لا يختلفون في أن للكلام اللفظي حقيقة أولى هي سماعيته أو صوتيته. وحقيقة ثانية هي صمته أو سريته، ناهيك عن الخطية والإرسال.

وقد كثرت البحوث حول الطبيعتين، وتكوَّن عندي سؤال حول الطبيعة الصامتة.

كنت أطالع حول الخلية الحية وأعمال عناصرها وأجهزتها عند أخذ الغذاء وطـرح النفايات. وكان الفكر يسأل، من وقت إلى آخر: هل تعي الخلية شيئاً من نشاطها؟ كان السؤال ينهض في سكينة غير معهودة في الضاحية وفي مثل هذا الضحى: الأحد، الطقس جميل، الحي مكتظ والبناية مكتظة والشقة مكتظة وغير حصينة في وجه الأصوات الخارقة الحارقة. لا أدري ماذا حدث حتى ولد هذا السكوت. يبدو أنّي ألفت أصوات البيت والأولاد كأنها داخل بدني كنبض القلب والشرايين والتنفس: سلمى تكلم أخاها ابن السنة كي تحرك ابن السنتين: «أعطني المنشفة حتى أُنشف الغسالة يا بو محمود أنت يا شاطر يا حلو يا أُمور» والمحيط

الخارجي يبدو أنه قد أفرغ شحناته الصوتية باكراً أو هو خارج يفرغها في وجه البحر هي ومردود النظرات الفتاك.

أكاد أسمع في هذا السكون حروف الكلام المكتوب. لماذا أقول أكاد؟ إني أسمع بكل وضوح جُزَيْئات كل حرف، مثلما يتضحُ اختلاج الخلية للخلويين الذين يرون بمجاهرهم الدقيقة حركات وأشكالاً وألواناً من المواد والتفاعلات: جزئيات الفوسفاتيديلكولين ونشاطها.

أليس كاذباً هذا الادعاء؟

كيف يسعك أن تسمع ألفاظاً يقال عنها إنها تدور في الذهن؟!

هل يسمع صاحب الكلام الصامت سمعاً كلامه الصامت؟

أراني أتهجأ وبصمت تام ـ لا أعرف أكنت أتنفس أم كنت أقطع الأنفاس ـ لفظ/كلام/: كَ، لا، مْ.

أأسمع حقاً صوت هذه الـ /كَ/؟ أم أني أُحِسُّ فقط بأن المخارج انعقدت والتقت مثلما تنعقد لتلفظ الكاف دون أن تلفظها؟ والقول عينه يقال في اللام والألف والميم.

عند انعقاد المخارج للفظ، أو عند عقدها عمداً لهذه الغاية، تشعر شعوراً مركباً. بعضه وليد احتكاك المخارج وتصادمها أو تقاربها، وبعض يجري في بعض جوارح جهاز النطق مجرى الاختلاج، وثالث نلمحه في السمع. وقد يكون للعين دور في إدراك الحرف الصامت. فقد تكون أعصاب البصر متصلة بمخارج الحروف عن طريق تقاطع معين مع أعصاب السمع. وهذا مبحث خاص بعلماء الأعصاب.

حين يتخذ جهاز النطق وضعية الاستعداد للنطق بحرف أو لفظ ولا يخرجه للسمع ندرك نحن أن الحرف أو اللفظ قد كان وتم إدراكه. وُلِدَ اللفظ صامتاً. فأي قوة إدراكية أدركت الحرف في صمته؟ هذا جانب خطير من علاقة الفكر باللسان، وكشفه كشف عظيم لحقيقة من حقائق كل من الفكر واللسان.

إن العلم بصوت اللفظ يتشاطره الفيزيائي والسمعيون والعضويون؛ والعلم بطبيعة الحرف الصامت هو على علاقة مباشرة بعلم المعرفة؛ كيف يعرف الإنسان؟

ليس مطلوباً منك الآن إلاَّ أن تلقي بانتباهك على جزء من الكلام الذي يجري صامتاً بين فكيك، أو الكلام الذهني كما يسمى في بعض الأحيان؛ الكلام الذي هو التفكير؟ أم الكلام الذي نفكر به؟ بل يكفيك أن تتحرى حرفاً واحداً من لفظ صامت. تعالَ ننظر في الصاد

الصامتة. لنقل بصمتٍ كاملٍ : /صح/. والمقصود بطلب القول لا أن نقول بل أن ننوي هذا الحرف نية. ماذا يتعين لنا مع النية؟ تتعين عدة أُمور لدى انتوائنا لفظ الحرف:

1 ـ لقد نويت أن تلفظ بصمت حرف /صح/، ووجدت أنك مع عقد النية قد أنجزت المهمة ولفظت /صح/ لفظاً صامتاً. أو هكذا درج الناس على تسمية هذا العمل.

2 ـ تم إدراكك لحيز نشوء الحرف الصامت: صْ.

3 ـ تبينتْ لإدراكك بعض الجوارح التي شاركت وتعاونت حتى تم تكوُّن لفظ /صْ/ صامتاً، بإدراكك التقاءَ مقدّم اللسان بمقدم الغار العلوي. وفي بعض الأحيان يتكون الحرف بفك ارتباط تكوْنُ عليه بعض المخارج (الهمزة والمطبقات المتحركة).

4 ـ ينشغل خيالك السمعي، بل سمعُك، بجروس هذه الصاد الصامتة. حين ترى حرفاً مكتوباً تعرف صوته ألا تجد مخارجه قد ولّدته صامتاً، وانبعثت جروسه تلقاءً في السمع؟ جرب الانتباه إلى مجهور مطبق مثل /ذْ/ صامتة، ألا تشعر أو تحس بصدى الجهر يرج أصول أذنيك؟

5 ـ تختلج الجوارح الناطقة بحرف صامت اختلاجاً يمكن التعرف على أمواجه وجريانه بالحس أو بوصل أعضاء النطق بأجهزة نابضة وإبرة تخط بارتعاشها صورة لمجرى هذا الاختلاج.

6 ـ يتجه جزء من الإدراك البصري إلى التمعن في مجريات الكلام الصامت حيث يتحول بعض نشاط العين إلى الداخل لمتابعة الرقابة على الأصوات لإدراكها.

بعد بلوغنا هذه السعادات، الشجية عند قوم الهنية عندغيرهم، نتطلع إلى ما هو أرقى منها. ألم تلاحظ أن بعض ما نسمعه من الأصوات يؤدي إلى توليد حركة في اللسان؟ ألم تلاحظ أن بعض التأثيرات الحسية في الفم والحلق واللسان تؤدي إلى توليد اختلاجات تجري في الأعضاء ويدركها صاحبها متلبسة صور الحركة للحروف الهجائية في حال صمتها؟ إن حركاتٍ من حركات أعضاء النطق تبني إذاً حالة نفسية حسية هي الحالة أو أخت الحالة التي أَلِفْناها لأنفسنا مع هذا الحرف أو ذاك. فالحرف الصامت حالة نفسية تجري في بعض أعضاء الجسم وندركها في مخارج الحروف حتى السمع على الأغلب.

وعكسُ الذي يكون بحركاتِ جهازِ النطقِ في السمعِ يكونُ بالسمعِ في حركاتِ جهازِ النطق. إن بعض المؤثرات الداخلية ـ الحلمية مثلاً ـ على عصب السمع تولِّد حركةً نطقيةً أو لفظية صامتة أو مجتهرة في أعضاء النطق، وفي مخارج الحروف على الأغلب. وهذا مماثل لفعل الصوت الذي يكون بمؤثر خارجي، بتأثير طاقة خارجية، كلام الآخر، من حيث هي

طاقات تطرق الأسماع فتحدث الأصوات وتَرفعُ كالروافعِ أذرعَ القوةِ الناطقة من الرئتين إلى الشفتين.

إن الأصوات العابرة للأسماع حتى بلوغ الفعل في جهاز النطق، وإن الحركات النفسية المؤثرة في السمع تأثيراً تتولد عنه حركات في جهاز النطق، وإن مختلف التأثيرات المباشرة على اللسان وما يشترك معه في الجوارح في تأدية الكلام، كل ذلك يضع عناصر البنى الكلامية على قلق مستمر، فتطير أوزان وجروس وتولد أوزان وجروس، كما تفنى مدلولات وتقوم مدلولات.

إن ألسنتنا المحمولة في أجسامنا المائجة موج الحياة المتلاطم يتبدل لحنها وارتعاشها. فالحركة على سطح الجسم أو في داخله، والحركة في العين والأذن تتحرك لها ألسنتنا حركات حروف تولد صامتة أو هي تقوى إلى حد النطق.

ومتى تحركت أجهزة النطق وتولدت الحروف الصامتة تولدت صورُها الصوتية تلقاء. إذا حَكّ ذلقَ اللسان ظفرٌ حكاً هو دون الخدش تَوَلّدَ في طرف اللسان، في موضع الحك، حرف /ذ/، ويدوم، إحساسك بهذا الذال زمناً لا ينقضي خطفاً[1]. وتترجم العين المشاهد حروفاً صامتة أو ناطقة: ê, P, S, T . . ، . (نقطة). .

وقالوا: يَمْشي اللام ألف» أي هكذا: لا.

فالمنعطف ترجم إلى صورة الحرف /S/، والصورة هذه تحرك مخارج السين: /س/. وحركة مخارج السين اختلاج يمضي حتى يكون له في السمع حالة صوتية: صورة حالٍ صوتية.

وقفنا على كون الحرف ذا طبيعة اختلاجية يمكن الإحساس بها كما يمكن الإحساس بالخدَر أو الوجع؛ فهل من شبه بين حالة اختلاج الحروف في مجاريها العضوية ومخارجها وبين حالتها الصوتية؟ هل هناك علاقة بين إحساسنا بالذال كحالة احتكاك بين طرف اللسان وأطراف الأسنان وبين الصوت المسموع: /ذْ/؟

إننا نحاول الضغط على طرف اللسان بالزفير لنحكه بالأسنان فتتكون ذبذبة ذالية تظهر صوت الذال. فيكون عندنا حالتان نفسيتان متولدتان عما يجري من ضغط وذبذبة لطرف اللسان بالتّماسِّ مع أطراف الأسنان العلوية من فوق والسفلية من تحت. ويكون الصوت، صوتُ

(1) راجع مادة (حذا) في لسان العرب.

الحرف أو اللفظ، إحدى الحالين، وندركه بحاسة السمع؛ ويكون اختلاج الحرف وندرك بأعصاب اللمس المبثوثة في أعضاء النطق، هناك إذاً ذال سمعية وذال اختلاجية[1]. .

لذلك نرتاح سمعاً وناطقة لبعض الكلام وننقبض لكلام آخر وسيان كون الكلام صمتاً أو جهراً، فالكون بثقيله ولطيفة يتدفّق منه.

ويشبه الرمزُ بالحرف إلى عالم الإنسان اختصارَ هذا العالم المختلج فينا إلى فلذةٍ من اختلاجنا به، كما يشبه تحولُ هذه الاختلاجةِ المستسرّةِ إلى صوتٍ مجتهر أوَّلَ العودة بالرمز إلى العالم المنتشر. وليس أغبياء أولئك الذين سموا الحروف حروفاً بمعنى الأطراف لأنها في الحقيقة منتَهَياتٌ أو أطرافٌ لتشعباتِ أفعالِ الكونِ في هذا الـ(ان سـ ان) المبني اسمُهُ من موجتِيّ /ا ن/ على ضِفّتيّ سين.

أتُرانا بعد هذا نفكِّرُ هذا الكونَ أم نحن مجردُ نقاطٍ على حروفه المائجة؟!

---

(1) واللذع الذي في مذاق المآكل الحِرِّيفة يترك في ذلق اللسان إحساساً من أحاسيس الذال: ذْذْ. فالاختلاج اللساني له طعم ومذاق. وفي الكلام ذوق وقلة ذوق.

ألصوت!

أصوات الطبيعة بحيوانها وأشيائها، أصوات الكلام في جميع الألسن، أصوات الأشرطة المسجلة، كل صوت ما حقيقته؟ نسمع جرس الأنفاس وضَرْس الأضراس وهمس السواقي ونغم الريح في قصب الناي وزمجرة الرعد وغيرها دون أن يخالجنا شك في نسبة تلك الأصوات إلى تلك الأشياء التي أضفناها إليها.

ونسمع في أوقات نادرة أصواتاً طلعت في أسماعنا مما تنتجه الهواجس أو الأحلام، وقد يلتبس أمر بعضها علينا وتدور بنا الشكوك حولها ثم تسكت. وقد يكون الصوت الحلميُّ كلاماً بلساننا أو بلسان غيرنا أو صوتاً حيوانياً، وقد يكون صوت الحالم أو صوت بطل آخر من أبطال الحلم.

هذا التقسيم للأصوات بين خارجية وداخلية يولد سؤالاً حول الحقيقة المكانية للصوت. إذا كان صهيل الخيل يَرِدُ أسماعنا من الخارج فكيف يصهل جواد الحلم؟ وإذا كان الصوت الخارجي ناشئاً في مكان بعيد عن دماغنا ومراكز إدراكنا له، فأين هو مكان الصوت الحلمي؟ وما هي حقيقة جهته؟

إن الصوت الحلمي أيضاً يبدو لإدراكنا ناشئاً في مكان بعيد عن الحالم، وخارج مركز إدراكه له. ومع إدراكنا لظاهرة ابتعاد الحلم عن الحالم، مع دوام حضوره فيه أو إشرافه عليه، فإننا لا نسلِّمُ إلّا بكون الدماغ مسرحاً للإحلام. إن الجهات والأماكن التي كانت عليها الأحلام وأصوات الأحلام ليست أوهاماً ولكنها ذات حقائق مخالفة لما يبدو. إنها بعكس الأصوات الحسية. فبينما تبدو بعيدة عن الحالم ونقر أنها في دماغه فإننا لا نشك في أن الحسية خارجية ومفارقة.

نقف لحظة نتفكر في هذا الفرق فنجد أصوات الهواجس وأصوات الأحلام بمثابة فضيحة للأصوات الحسية. لماذا لا تكون هذه كتلك، خارجيةً في الظاهر وداخلية في الحقيقة؟

إن ما استطاعت الفيزياء قوله بالنسبة للصوت الخارجي ينحصر في الحركة الترددية التي

يحدثها التكلم أو اضطراب الأجسام على مقربة من أسماعنا السوية. اضطراب أعضاء النطق وتصادم أو تمزق أجسام الطبيعة تُبُثُّ فيما حولها تمويجاً ينتقل، إذا كانت الأجسام موصلة، حتى الآذان، وتختلف استجابة الأجسام لتردد تلك الطاقة المرسلة باختلاف طبائعها وكتلها وتماسكها.

إن رسالة المتكلم إذاً عبارة عن طاقة تنداح في محيط جهاز نطقه، فإذا ما التقت جسمَ إنسانٍ سويِّ السمعِ وتغلغلت في أُذُنيه الداخليتين وهزت عظيماتِهما المسكونةَ بأعصاب السمع يتولد الصوتُ الكلامي / الذي ننسبه إلى المتكلم والذي هو في الحقيقة ـ وكما ترى ـ صوتُ السامع. لقد ولد في رأس السامع. ولا يمنع أي مانع من كون المتكلم سامعاً أيضاً. فقد كانت الطاقة المحركةُ لجهاز السمع مُرسَلَةً من قبل المتكلم، وكان اهتزازُ جهاز السمع ثم الصوتُ في رأسِ السامع وإدراكه. إذا تعطلت الأعصاب لا يتعطل اهتزاز جهاز السمع ومع ذلك لا يكون صوت. فالسمع هو سمع الصوت (وقد زادوا على ذلك الفهم) سواء تولّدَ بفعل طاقةٍ مصدرها خارج السامع أم طاقةٍ من نوع مماثلٍ أو مختلفٍ ومصدرُهـا داخليّةُ السامع. فالسمع شيء مبني على بعض انفعالات الأعصاب السمعية. وليس هو ذلك الانفعال العضوي الذي قد يكون مماثلاً لانفعالات أعضاء لا تولِّد أصواتاً. لا يوجد صوت لا نسمعه. الصوت حالة نفسية. وأشرطة التسجيل الصوتية ترسل في اتجاه الأسماع بطاقةٍ إسماعية لا بأصوات؛ فما يسمى صوتَ المسجلة يكوْنُ صوتَ سامعها. أوَ ليس هو أيضاً صوتَها؟ أو ليس هو صوت الذين ألقوا بكلامهم إلى سامعتها (مكريفونها)؟

يتنبأ ابن جني بآلة تسجيل الصوت فيقول:

«أرأيت لو أن أحدنا عمل آلة مصوِّتة وحركها واحتذى بأصواتها أصواتَ الحروف المقطعة المسموعة في كلامنا أكنت تسميه متكلماً وتسمي تلك الأصوات كلاماً؟ فجوابه ألا تكون تلك الأصوات كلاماً ولا ذلك المصوت لها متكلماً. وذلك أنه ليس في قوة البشر أن يوردوه بالآلات التي يصنعونها على سَمْتِ الحروف المنطوق بها وصورتها (في النفس)، لعجزهم عن ذلك. وإنما يأتون بأصوات فيها الشبه اليسير من حروفنا فلا يستحق لذلك أن يكون كلاماً ولا أن يكون الناطق بها متكلماً وأما القديم سبحانه فإنه قادر على إحداث الكلام على صورته الحقيقية. . . في الشجرة والهواء وما أحب سبحانه وشاء». (الخصائص، ج 2، ص 450 - 455، تحقيق م. ع. النجار).

لا يميز ابن جني، رغم عبقريته في استباق الأمور وقدرته على تصور مستوًى متطورٍ من مستويات الصناعة الصوتية، لا يميز بين الطاقة المُوَلِّدة في السمع الصوتَ وبين الصوت كحالة

إدراكية ليست للآلة؛ وقدرة الآلة على إعادة إنتاج الطاقة الإسماعية المولِّدةِ للصوت في سمع الملقِّن وفي سمع غيره يفيد أن الحالة النفسية، الأدراك الصوتي عنده وعندك وعند الآخر، هي أصوات متماثلة كتماثل فكرتيّ خمسة عند تطابق كفين.

إن الطاقة الواحدة أو الطاقات المتماثلة تفعل في الأجهزة الواحدة أو المتماثلة أفعالاً متماثلة إذا تماثلت الظروف. وبالتالي يكون من الحقائق أن الحالة النفسية للواحد منّا ليست فريدة وليست مقتصرة عليه وليس وحدهُ يعيش مثلها. ولولا هذه الحقيقة لكان التفاهم مستحيلاً ولكان ادعاؤه وهماً، ولما كان هناك جماعة، ولا حقيقة مشتركة.

هذا معناه أن الصوت الذي ندركه ونقول إنه صوت ذلك الحيوان أو هذا الإنسان أو ذاك الشيء إنما هو الحالات الصوتية التي عند جميع من سمع؛ إنه الأصوات التي ابتنتها الأشخاص في الأعصاب السمعية من أي جهة أتت الطاقة التي كانت السبب في توليدها. لكنما النسبة إلى مصدر الطاقة وليد تَوَهُّم.

فالصوت الذي يطلقه المتكلم إذاً هو صوته لأنه يقوم عادة في سمعه كما يقوم في سمع السامع الآخر. وحين نردد كلام شخص ونقول له: هذا كلامك، مع أنه يحتمل أن يكون الكلام جملة صوتية بغير ألسنتنا، فإننا نكون قد ربطنا الكلام أو نميناه إلى الروافد التي أردفته على هيئة اضطرابات واختلاجات لسانية متباينة تبايناً فردياً. لو افترضنا أن اللسان إبرة تتذبذب وفق الروافد النفسية المتحركة بناء لخبرة صاحبها الخاصة فإن هذا التذبذب يسير في خط بياني فردي يحدد ويميز شخصية صاحبها، أما تذبذب اللسان ولسان القلم عند الاستجابة للإملاء فمتماثلة على فرديتها.

إن رد الكلام إلى مرجعية هي خبرات المتكلم ومحنه، وفق رأي الخليل، لهو رأي ظاهر الصواب إذ يلفت الصوتُ المقتطَف من مُصَوِّتٍ يعهده السامع في إحدى جهات المكان الذي يقيم فيه، يلفت منه النظر إلى تلك الجهة حتى وقت مجيئه من جهةٍ غيرها أحياناً. والحيوانات التي تعهد أصوات الأعداء في جهة تنجو إلى الجهة المقابلة مع أن صوت العدو قد فاجأها هذه المرة من حيث اعتادت أن تنجو. وأحياناً تهاجر قطع الريح عكس ما كانت تهاجر وتحمل الطاقة المولدة للصوت إلى غير جهة، فيكون الصوت مشيراً إلى غير منطلقه: هما أصلان للضلال موضوعي وذاتي.

تؤكد هذه الضلالات أن إدراك جهة الصوت خاصةٌ لازمة. لكل ذي سمع. إلا أن رديف الصوت الذي هو باقي خبرة السامع المتحدة مع أمثال هذا الصوت اتحاد التابع مع المتبوع قد اجتذب إليه هذا المِثْلَ الشاذّ، فوقع الإدراكُ في التباس. إن خبرتنا الصوتية مأهولة بخبرة ثانية

هي خبرة الاتجاه والجهة. إن لنا أذنين في جهتين متقابلتين، ويجري في كل واحدة سكّتان للطاقة الإسماعية في اتجاه واحد: هما السكة العظيمة (CO) والسكة الهوائية (CA) (راجع Sémiologie de l'audition في Abrégé de Neurologie لـ J. Cambier و M. Masson و H. Dehen).

هاتان الأذنان تتشاطران الطاقات الإسماعية المتجهةَ نحو كل منهما من أنحاء الشطر المحيط فتستوعب مما في جهتها من الطاقة وشيئاً من الشطر الذي فيه أختها. وصوت الصدى كذلك وليد طاقة إسماعية منبعثة من تردد ولّده غيرُهُ في محيط السامع. تخرج الطاقة الإسماعية من الهواء وتجري في الجهاز السمعي سالكة خطاً يقع في امتداد جهة كل من الكتفين: شمال ← يمين، يمين ← شمال. ولسان الميزان عمودي على الخط الناصف للمركز السمعي الدماغي فإذا قوي الصوت في جهة أكثر من جهة تولد الحكم القاضي بيمينية الصوت أو شماليته مضافاً إليها الأمام والخلف والفوق والتحت: شمال أمام فوق. . . يمين وراء تحت. .

إنَّ لتوازنِ إدراكِ الجهاتِ الصوتية للمدركات دوراً كبيراً في إقامة الجسم الإنساني على الهيئة المستوية؛ إن وحدة السمع طريق من طرق الوحدة الجسدية. وقد يساعدنا هذا على فهم نقطة أساسية في مساعي الطقوس الدينية، لماذا توحيد الأذان ونصوص الصلوات؟ ويكمل هذا التوحيد وحدة الإله ووحدة اللسان. تخيلْ قوماً يحركون أبدانهم الحركة إياها عدة دورات في اليوم وعلى مر الأجيال؛ تخيل أنهم يعقدون النية ذاتها حول كعبة واحدة، وتخيل نفوسهم تستقبل آمالاً مشتركة وتوجس خيفة من نار واحدة؛ تخيل أنهم ينطقون بألسن واحدة لها من القدسية ما لكتابهم الناطق بها؛ ألا تعتقد أن هؤلاء القومَ قد توسلوا أسباباً شتى إلى توحيد مجتمعهم بحيث يستجيب الجسد الجماعي لاختلاجات الرأس فيه مثلما يستجيب الجسد الفردي لميزان اختلاجات رأسه؟ إن التحول من لسان إلى لسان يعني استقبال تغلغل طاقةٍ وطردَ أُخرى، ويعني الاستجابة للرقص على موسيقى أخرى وأنغام أُخرى، ويعني الاستعداد لمستقبل جسدي ونفسي آخرين بعض الشيء.

لقد رأى الأسلاف في العمل المشترك والحركة المشتركة بين أجساد الأفراد سبيلاً إلى انسجام هذه الأجساد في بناء اجتماعي واحد، وفي كلِّ مُضَعضِعٍ لوحدة الأعمال الرابطة مُضَعْضِعاً للنفس الاجتماعية المتماسكة، ولا يمكن تفسير «اللغات» المتعددة ضمن مجموعة من الأرهاط والأقوام المتعايشة في زمن واحد وعلى أرض واحدة إلاّ بالإصرار على التكتم والتميز، لا بعجز هؤلاء عن بناء لغة واحدة متطورة. وتُعاكِسُ هؤلاء أبداً ضرورةُ بناءِ علاقاتٍ إنسانية بلا حدود. إن الأقوام المتنازعة على الأرض اليوم تنشط في محاولة التميز بـ «لغـة»

خاصة مع العلم أن العالم يستطيع في هذا العصر ابتناء لغة إضافية مشتركة شرط أن يجتهدوا في ابتنائها عُشْرَ اجتهادهم في بناء آلات الدمار. جمل صوتية واحدة، اختلاجات لسانية واحدة، جمل خطية واحدة، ومرجعية دلالية واحدة لمما يُقوِّي الاعتقاد بأنهم أمة تحدوها أو تسوسها شمس واحدة وتتميز مكوِّنات بنيتها كتميز الألوان في قوسِ قزحَ أو كتميز الجروس في الرزم الصوتية.

إن علم جِهَةِ الصوت وجِهَةِ النظر جزءٌ من علم جهات الإدراك. وهو علم يساعد على كشف خطط النوع في الحفاظ على وحدة الشكل ووحدة طرق التفكير كما يوقفنا على شيء من الترادف وتردد الوعي ما بين الحقيقة والمجاز.

قال الفراء في (امسِ):
«إنما كُسِرَتْ لان السين طبعها الكسر».

١ ـ ملاحظات التحول من /أَ/ إلى /أُ/:

قبل جيل المؤذنين المعاصر، ممن يؤذنون بمكبرات الصوت أو تنوب عنهم آلات التسجيل، كان المؤذنون يقفون في أعالي المآذن أو على سطوح الجوامع، يحيقون أفواههم بأسطوانات من أكفهم ويؤذنون بأعلى أصواتهم: اللّاااهُ أكبر، وهم يديرون رؤوسهم بالأذان في مختلف الاتجاهات. والمصلون في صلاة الجماعة أو في صلوات الأفراديرفعون أيديهم إلى رؤوسهم، عند بلوغ التكبيرات، يجعلون أباهيمهم تحت آذانهم ويفتحون أكفهم مع وجوههم مُكَوَّفَةً، بحيث تلامس سبّاباتهم مفارق شعورهم في أعلى جانبي الجبين ويكبِّرون: اللّاهُ أكبر. لم نكن نفكر في معنى وضع الكفين بهذا الشكل. ولم نكن نعرف لماذا تستدير الألف من لفظ الله وتميل عن الفخامة الألِفِيّة إلى الضمة المنفرجة التي هي بين الفتح والضم والتي تعادل /au/ (انظر كيف صُنِعَ هذا الصوت من مزيج الفتح والضم o). وحين كنا نادي بعضنا في الفلوات كنا نفعل مثل الكبار، نكوِّف أكفنا من حول أفواهنا في اتجاه المنادى ونضم الشفاه ونمطها في الاتجاه عينه وتتحول ألف (يا) النداء إلى (au) أو (o). ومُكَبِّرات الصوت الصناعية اتخذت شكل المصب، أوسعُ قناتيه نحو المخاطَب وأضيقهما إلى الفم. والهاتف البدائي والهواتف اللعبية اختارت الأنابيب لنقل الصوت... وعلى غرار القصد في إرسال الصوت جاء قصد الطبيعة في تلقيه. فقد كانت آذاننا الخارجية كالمصبات المجعدة الفوهات، يتجمع انتشارها الخارجي ليصب في قناة ضيقة تؤدي إلى جهاز السمع. إن الغاية في جميع ذلك واحدة وهي تجميع المادة الصوتية (الذبذبات الهوائية هنا وتموجها الخاص) ومنعها من الانتشار لدفعها إلى آذان المخاطَبين والمنادَيْن البعيدين بأخصر جهد وأقل قدر من الطاقة المهدورة؛ بحيث يتمكن السامع من إعادة بناء الرسالة الصوتية طبقاً لقصد المرسِل وبلوغاً للمعنى المراد.

2 ـ تنبيها النداء:

ونحن نستفيد من هذه الملاحظات لنقف عند وظيفة تحول الألف إلى ضمة منفرجة طويلة = o. وينبئنا بهذه الوظيفة سلوك الجماعة اللغوية عند قصدهم دفع الصوت إلى أبعد مدى

بالأذان أو النداء. كأنهم أدركوا بخبرتهم الطويلة أن الصوت بالفتح يتسع وينتشر، في حين يساعد الضمُّ على ضبط انتشاره وتوجيهه حصراً في الوجهة التي يريدونها له. ولهذا ضمّوا الشفاه وضموا أمامها الأكفّ. ولا نعرف صورة للأكُفّ تُضَمُّ أمام الفم للمناداة بـ (أ) أو (يا) أو (هَيَا) أو (أَيَا). كأن تصوين الصوت بأسطوانةٍ من اليدين مشروط بضم الشفتين اللتين تنتجان عند ضمهما صوت /o/ أوميغا (oméga)، من أَلِف /يااا/ عند مناداتنا في المدى البعيد.

وفي النداء يَنتظِمُ هذا الصوتُ في طرفيه صامتين هما الـ /يـ/ من (يا) النداء أوّلاً، والصامت الذي يقع عليه في أول الاسم المنادَى ثانياً. فتُضمُّ اليـاء لضم حركتها ضمةً منفرجة، وتتأثر حركةُ الصامت الأول من الاسم المنادَى فَتُشَمُّ الضمَّ إن لم تكن ضمة. وبهذا ينجز المنادِي المقطعَ الأول من نداء الاسم المباشَر بالنداء (مما دون الرباعي) وقد ضمنه التنبيه الأول. وقبل أن يسكت المقطع الأوَّل من الاسم المنادَى تكون النفس قد تهيَّأت وهيَّأت معها جهاز النطق وشُرِع في إطلاق المقطع الثاني من الاسم المنادى برزمة صوتية تختلف عن الأولى. هذه الرزمة الصوتية تنحو نحو الـ / ـَ يْ/ وتنتظم في طرفيها ثاني الاسم وثالثه أي عينه ولامه. والفتح اليائي (ـَ ي) كفيل بالتصويت تصويتاً واضحاً بجروس الصامتين اللذين على طرفيه. إن (ـَ و) و (ـَ يْ) والحركات السالمة من الازدواج كفيلةٌ بالتصويت بما عَشِق أوَّلَها وآخرها من صوامت. وإذا أُلحق الصامتُ بمقطع له غير حركته فإنه يتبع حركة المقطع هذا حيث يغلِّب المتكلم هذه الحركة لأغراضٍ لا نعرفها دائماً. وفي نداء الثلاثي المؤلَّفِ من مقطعين هما (ياف) و (عَ ـ ي ل)، فإن حركةً العين تنسجم مع فتح /ـَ ي/ متخلِّيةً عن حركة لها ـ إذا وجدت ـ مغايرةٍ لهذه الحركة. وذلك لأن المتكلم ـ على ما نزعم ـ قد توخى في النداء دفع تنبيه ثانٍ إلى المنادى أَحَدَّ من التنبيه الأول الذي ساقه إليه بـ (ياف) (الفاء رمز لأول الاسم المنادى). ونقول «أحَدَّ» لأننا موقنون أن المصوت (ـَ يْ) يبضع إذا كان المصوتُ (o) يضغط. وهنا نستأنس بملاحظة جاءت على لسان الشاعر الفرنسي رامبو في قصيدة عنوانها «voyelles» (المصوتات). يقول فيها عن (ـِ ي):

«. . . . . . إيْ حمراء

إيْ، أُرْجوان، دم نفثته الصدور، ضحك [لونته] الشفاه الجميلة».

وقبل أن أرى ما قاله رامبو في (ـِ يْ). سألت هذا السؤال لفتاة وامرأة: إذا قيست (o) و (إي) بآلات جارحة فأيهما تبدو حادة قاطعة؟ وكان الجواب: (إي) حادّة و (o) ليست حادة. وأظن أن هذا هو الإحساس السليم. ورامبو رمز إليه بقوله: «إي، أُرجوان. دم منفوث. . .».

لقد اعتقد المنادى، عندما نُبِّهَ نداءً بأول اسمه وبزوغ ثانيه، بأنه هو المعني بالنداء.

ولكنه يظل غير موقن أنه هو المعني لالتباسٍ قد يكون اعترى ما بلغه من اسمه أو لوجود آخرين حيث هم ممن يشاركونه هذين الحرفين الأولين. إنه، على تنبُّهه، بين الشك واليقين إذ ينزل فيه سهم (ـَ يْ) مريَّشاً بباقي اسمه، يشكه من حيث نشعر بصدمة/ أَيْ/ بفتحة مفخمة: (Ai!) إثر شكّة مباغتة ينتفض لها الحجاب الحاجز ويُرَجُّ ويقلِّص بانتفاضه سائرَ مواطن الصدر، فيشتد الشخص ويتقلص. ولمثل هذا تأثير في الكلام كبير يستوجب تفحص الحركات العضوية التي يقتضيهاإحساس أو حالة نفسية والتي تتولد عنها الأصوات الانفعالية التي قد تكون حروف المعجم مبنية منها في الأصل.

3 ـ شكل (فَعَل) في النداء:

فإذا افترضت أن المنادى يحمل اسم (حَسَن)، فإن ألف (يا) المُمالة في النداء نحو الضم تؤثر في حركة الحاء فتميل بها نحو الضمة المفتوحة: /o/. «ومن كلامهم أن يتبعوا الضَّمَّ الضمَّ» (سيبويه، "3، 287). والحاء المستفيدة ضماً تشكل نهاية المقطع الأول من مقطعيٍّ النداء، وعليها يستريح المنادي بعض الاستراحة بعد أن تكون قد كسبت شيئاً من الضم بفضل إمالته ألف (يا) النداء نحو الضم. والعامة تسكن الحاء من حسين. ويبدأ المنادي المقطعَ الثاني من (حَسَن) بالجزء المضموم من الحاء مُدْرَجاً إلى السين المفتوحة أصلاً والتي تعزز فتحُها بالجزء الأول من /ـَ يْ/، أعني فتحة ميّالة نحو الياء. وهذا الصوت هو الذي يكمل الاستيلاء على المنادى بما له من فعلٍ في الرئتين مؤثرٍ في المنادى ومباغتٍ له. وتظهر جروس النون بعد الفتحة الممالة وبها، فيتم لفظ الاسم لفظاً ندائياً وفقاً للنداء في المدى البعيد: يا حَسَن ← يـ o حْ حُ سَ يـ نْ.

هل في هذا ادعاء بوعي المنادِي والمنادَى لما تنطوي عليه عملية النداء من المقاصد التي ذُكِرتْ؟ إن وضع صيغة النداء لم يُكْتَبْ له تمييز يميز اللفظ حالَ النداء عنه في أحوال أخرى. وقد نفيد من ذلك أن الزوائد الصوتية التي لحقت بالاسم حال النداء لا فائدة لها. وهي في الحقيقة لا تجعل مدلول الاسم غيره من حال لحال. إلا أنها كانت تقوم بوظيفة فعلية، لا يتضح لولاها الغرضُ المحدَّدُ من لفظ الاسم. تطويل ألف /يا/ يفيد أن المنادى بعيد وأن المنادِي يريد الوصول إليه متجاوزاً هذا البعد، وتطويل الحركة الثانية من الاسم وإمالتها نحو الياء تفيد إصرار المنادِي وإلحاحه على غرضه الأول، وتفيد أيضاً أنه كان يجني فائدة من تضمينِ الشطر الثاني من الاسمِ صورةً من النطق تنضاف إلى الصورة الأولى. والمنادي ليس أكثر من مطمئن إلى وصوله لغايته بهذه الطريقة. فهو كالواعي لفائدة كلامه كليةً دون وعيه لفائدته أجزاءً وعناصر وقواعد. وإذا خبَّر أحدهم عن شخص اسمه حَسَن بلفظ الاسم على صورته في النداء:

/ح ُـ س ـَ ي ن/، فإنه يثيرُ الاستغرابَ والاستنكار. في حين أن الأصل في لفظه حالَ النداء البعيد هو ذاك، وخلافه يثير الاستغراب والاستنكار.

وعليه قد بلغ الأذهانَ شكلٌ جديدٌ للاسم يكاد يجعله على وزن (فُعَيْل). والعلم بمن فصل هذا الشكل عن مجراهُ الندائيِّ قد يظل عند علّام الغيوب. ولكنْ وصلنا هذا الشكل على فرعين: الفرع الندائيِّ الذي فيه الضمة كالـ/o/، رابع المصوتات الفرنسية، وذلك في فاء الاسم، وفيه فتحة السين كالألف المعتدلة الصائرة إلى ياء ساكنة ودرجتها الصوتية (ـَ يْ) أو (ايْ) (الألف فتحة مشبعة وليس فيها همز). والفرع الثاني من /فُعَيْل/ هو الذي نضجت فاؤه واستقرت فتحة عينه على (ـَ يْ) كتينك اللتين في (سُهَيْل)، فصار قياساً للتصغير.

4 ـ علاقة النداء وعلاقة التصغير:

واعتبارُ الصيغتين هاتين فرعين لأصلٍ واحدٍ ينبع من اشتراك هذين الفرعين في الوزن ومن احتواء الصورة الأولى على معاني الثانية احتواء العمل المقصود على النوايا ونية البذرة على النبتة. فإذا تساءلنا عن العلاقة التي ينشأ عنها النداء، نجد أنه غالباً ما ينطلق من الأبوين إلى الأولاد أو من الأولاد إلى الأبوين؛ أو من الأصحاب ينادون أصحابهم، أو من المحتاجين ينادون من هم بحاجة إليه حتى الحيوان والشيء. وفي كل ذلك ينطوي النداء على عاطفة كامنة وراء القصد منه، على الرغم من أن الأهل والنواطير ينادون الأولادَ أحياناً مهدِّدين. ومعلوم أن صورة المبتعِد تصغر «وشخصه يضؤل». والابتعاد علة النداء. فكلما نأى المطلوب ـ أو نأت به المسافات ـ صار التلهف عليه أشد والأملُ في وصله ممزوجاً باليأس. مما يحول صيغة مناداته ـ لما اشتملت عليه من رغبة في ذلك المطلوب ـ إلى صيغة تحبب وتودد شهيرة من قبل الأهل تجاه صغارهم والصغيرِ من كلِّ ما يحبون. وكأن هذه الصيغة تجمع الحقيقة إلى المجاز في آنٍ، ودلالة النداء إلى دلالة التصغير.

وأرى هنا أساس اقتناص صورة صوتية لم تبلغ الرتبة اللغوية بعدُ لتوظيفها دالاًّ على معنى مخصوص هو معنى «التصغير» الذي سماه اللغويون كذلك باسم «التحقير».

فالصغير مفرق يَنْطلق منه سبيل إلى المحبة وسبيل إلى الحقارة. فالحقير جسماً هو قليل الجسم والمنادى البعيد قليل الجسم في الصورة. والصغير في جنسه قليل الجسم. واتخاذ الحقارة الحقيقية أو الجسمية أُسّاً للحقارة المعنوية يجد في كثير من فعال الصغار أبواباً مشرعة. ما أكثر ما يأتيه الصِّغار مما مجه الكبار ويحتقرونه. ومنها صِيْرَ من الصغير إلى الصَّغار وإلى السفالة. فالأصغر أسفل من الأكبر وأدنى وأضعف بالمعنى الحقيقي، فإذا بمعناهما الحقيقي

يتوارى أو يكاد ليقفا على ما وراء الحسي من معنى. ولك أن تعتبر في الدناءة خِسَّة. وما خاس هو ما قَلّ، فهذه عائلة من ألفاظ الحِطّة يدل بها الكبارُ على فضل الكبر ووضاعة القلة والصغر إزاء تمامهم هم وكمالهم وعلو منزلتهم وبعد هممهم. واتسمت الأماكن التي يصلها الكبار بفضل زائد لا تصل إليه الأماكن التي يصلها الصِّغار. فالقِيَمُ ـ قيم الكبار ـ على قدر الهِمَم. فما كان منها بعيدَ المنال كان أسمى قدراً من القريب. حتى احتاج شاعرنا الشاب القتيل، طرفة بن العبد، للدفاع عن نزوله منزلاً منخفضاً بقوله:

«ولست بحـلّال التِّـلاع مخـافـةً ولكنْ متى يستـرفدِ القـومُ أرْفِدِ»

ومَنُّوا الأنفس بالأجر على قدر المشقة، فأنتم تذكرون قوله: «ليس للإنسان إلا ما سعى». وأين الصِّغار من تحمل وتكبّد المشاق! إن أكثر الوفيات مرضاً وجوعاً هم الأطفال. وكما تفاضلت الأحوال والأشخاص والأماكن والغايات في الدنيا بناءً على مراتب الهِمم في مراقي الأشخاص فإنها قد اتصفت في الآخرة بأمثال صفاتها في الأرض. فـ«أعـلى علّيين» أسمى مراتب الجنة.

وتحقير الصِّغار والغاياتِ الدانية ينمُّ عن خلقية أجتماعية يُطْلَبُ بمقتضاها إلى الصغار وجوب الاجتهاد في طلب الرفعة، ويطلب إليهم تحقيق الشروط اللازمة من القوة لتحمل المشاقّ والوصول بها إلى الأجر الأعظم. وإلا فإن الطفل يبلغ الرجال ويظل رُجَيْلاً.

5 ـ بين (يا) و (وا):

ونحن، هكذا، بإزاء مشكلة لغوية تتطلب كشف غوامض صوتية ـ لفظية، وصوتية ـ دلالية، ولفظية ـ دلالية.

لقد بلَّغنا لغويونا الأقدمون أن أداة النداء (يا) «يستعملونها إذا أرادوا أن يمدوا أصواتهم للشيء المتراخي عنهم، والإنسانِ المُعْرِض عنهم الذي يرَوْن أنه لا يُقبِل عليهم إلا بالاجتهاد، أو النائمِ المستثقَل»... «والندبة يلزمها (يا) و (وا) لأنهم يحتلطون ويَدْعُون ما قد فات وبعد عنهم» (سيبويه، ج 2، ص 231).

لماذا استعملوا /يا/ للنداء والنُّدبة معاً؟ أُرَى أنهم فعلوا ذلك إما لأن في النُّدْبة مناداة، وإما لأن في المناداة ندبة. وبعض النداءات تنطوي على الندبة كما أن الندبة تنطوي على نداء يائس، فهذه من الحقائق الظاهرة والمعروفة. وليس من الصعب رؤ ية النداء يبلغ حد اليأس ليدخل في الندبة كما أنه ليس من الصعب السهو في الندبة عن اليأس لتوهم الميت لم يمت مدةَ مناداته بـ/يا/: «عبد الناصر لِسَّا مَمَتْش»، كانت تهتف الجماهير المتدفقة عند إعلان وفاته،

أمّا العامليون على قبر الأسعد، وقد دقت لموته النوبة، فقد كانوا يسألونه: «سامع يا سِيْدْنا؟».

ولماذا استعملوا (وا) في الندبة ولم يستعملوها في النداء علماً بأن السريانية تنادي بـ{o= o. لنعلم أن العربية الفصحى هي عربية الحاضرة وليست عربية البادية. وأنها عربية الاستقرار لا عربية الترحال. وأنها عربية الاعتدال لا عربية التوتر والاستنفار. مع أنها عربية هذه الأحوال جميعاً وقادرة عليها وعلى غيرها عند إرادة التعبير. وهذه مقدمة للقول: إن النداء الذي ينحرف من القرب إلى البعد ومن الاطمئنان إلى الخوف والتوجع ينحرف صوته من /يا/ إلى (يـ o) فإلى (و o) فإلى (وا) و (وَيْ). ونصل من صوت النداء إلى أصوات الولولة والتفجع كما نصل من حالة الطلب بالنداء إلى حالة اليأس من المنادى الذي يعز علينا. فالأصوات وجهُ الحالة النفسية التي نعيشها، وبما أن (وا) أغلب من (يا) حيث تكون الغلبة للتوجع والتفجع فقد خصُّوا (وا) بالندبة ولم يسعهم أن يخصوا (يا) بالنداء دون الندبة لأن استعمالها في كليهما يتعادل قوة. ولنضف إضافة نراها ضرورية هي أن آخرَ البعد الصالحِ فيه النداءُ هو أول اليأس الصـالحِ فيه الندبُ. ولذلك تميل (يا) إلى (يو) كلما توغل منادانا في البعد وكلما كنا أحوج إليه، وبطول امتداد /يووو/ يتحول المنادي عن الياء إلى الصوت الواحد: ووو التي تترك مسحة منها على أول الاسم الذي يليها وهي تقع عليه. ثم إن الميل باسم المنادى نحو قطعه بياءٍ قبلَ آخره يتفق والكسر اللازم عن الانحدار بالنداء إلى غاية الوقف الذي يسكن معه آخرُ اسمِ المنادى.

6 ـ النداء أهّبَ الأسماء لصيغة فُعَيْل:

ويكون النداء قد أهّب الأسماء الثلاثية خاصة لتطاوع صيغة لم تكن معروفة هي صيغة فُعَيل، صيغة التصغير أو التحقير. ومن الملاحظات البارعة للغويين الأقدمين «أنك لا تُحَقِّر [...] الحين، ولكنك تريد أن تقرِّب حيناً من حين وتقلل الذي بينهما، كما أنك إذا قلت: دُوَيْن [ذاكَ]، وفُوَيْق ذاك؛ فإنما تقرب الشيء من الشيء وتقلّل الذي بينهما، وليس المكان بالذي يُحقَّر» (سيبويه، 3، 485).

إن خاصة التقريب هذه التي لُحِظَتْ في صيغة «التحقير» كلفت سيبويه أن ينفي عن /فُعَيْل/ دلالته المخصوصة، أعني التصغير والتحقير. لافتاً الانتباه إلى ما شارك فُعَيْلُ النداءَ فيه وهو أن «تريد أن تقرِّب الشيءَ من الشيء وتقلل الذي بينهما» في فُعَيْلِ المكانِ والزمان.

وعدا فُعَيْل للتقريب، هناك واسطة ثانية تصل التصغير بالنداء هي الترخيم حيث «يجوز لك أن تحذف» «كل شيء زِيْدَ في بنات الثلاثة» حتى «تكون الكلمة على مثال فُعَيل»، «وبنات

الأربعة في الترخيم. . . على مثال فُعَيعِـل. ويقول عباس حسن في النحو الوافي: «الغرض من تصغير الترخيم هو الغرض من التصغير الأصلي. وقد يكون الدافع إليه: التودد، أو التدليل، أو الضرورات الشعرية» (ج 4، ص 711). ونداء خطاب الأحبة ـ وهم عماد النداء ـ يقوم لنفس الغرض من تودد، وتدليل، وتقرب.

إن الصلات بين مدلولات التصغير و «التحقير» ومدلولات النداء لا تمتنع على طالبها. لكنما البحث في الكتب عن صلة قربى بين صيغ التصغير وما يطرأ على الاسم المنادى ـ الثلاثي والرباعي خاصة ـ من تغيير لا نظن أنه يفضي إلى نتيجة. وتحري ما يطرأ فعلاً على منادى مثل (أحْمَد) يقود إلى ملاحظة اندغام همزة (أحمد) في ألف (يا) النداء بعد أن يستغني المنادِي عن قطع امتداد الألف بالهمز. ويصل بمد الألف الممالة واواً إلى الحاء من (أحمد) حيث يلبث كالواقف عند تمام المقطع الأول من عملية النداء وهو (يا ااا حْ)، قبل أن يباشر منحى تصـويتياً مختلفـاً ينصرف فيـه اللسان عن [صـامت نحو ضمـة ممـالـة إلى الفتـح فنحـو صـامت مُشَمّ ضمّاً] إلىٰ مقطع مؤلف من [صامت + فتحة أو ألف ممالة نحو الياء + صامت ساكن]. ويصبح لفظ (أحمد) قريباً من (ح ٥ م ـَ ي د) وهذا الشكل دفع بلفظ (أحمد) ثلاثة أرباع الطريق إلى أن يلفظ على وزن (فُعَيْل) أي (حُمَيْدْ) وهي صيغة الترخيم التي تحيل الأسماء الثلاثية الأصل ـ بعد إزالة زوائدها ـ إلى وزن «التحقير» الذي سلبه سيبويه في بعض الحالات الدلالة على التحقير. وإذا صِيْرَ إلى التسمية بـ (حُمَيْد) صير إلى مناداته بـ (حُمَيِّد) على وزن (فُعَيِّل) بإشباع كسرة الياء الثانية.

ولا يعترف القانونيون اللغويون من الخليل إلى سيبويه إلى السيرافي إلى اليوم بـ (فُعَيِّل) صيغةً بين صيغ التصغير الثلاث: فُعَيْل وفُعَيعل وفُعَيْعِيل (وأُفَيعيل مثل فُعَيعيل). ومهما يكن فإن الاسم الثلاثي أصل. وتنشدُّ إلى احتذاء أحواله أسماء من الثنائي وما فوق الثلاثي. ولهذا وجدنا «التحقير» أو التصغير ينحصر قيدُه اللساني النطقي في (فُعَيْل) لما زادتْ حروفه عن الثلاثة أو قلَّتْ عنها؛ وسواءٌ قلتَ في (سَفَرْجل) (سُفَيْرِج)، بدون تعويض الخامس، أو قلت فيـه (سفيريج) بالتعويض، فقد التزمتَ فيه (فُعَيْل) دأبك في (ف ع ل) مما نوديَ نداء البعيد بـ (يا) من أكثر بنات الثلاثي أو بعضِ سواها، ودأبك في الثلاثة الأوَل من جميع الأسماء، بما فيها ما جُعِلَ له ثالثٌ مقدَّر فأُحْضِر من ضمائر الأُمّة ليمثُلَ موزوناً بوزان فُعَيْل، لا فرق فيها بين بُنَيّ ولا أُخَيّ ولا أُبَيّ، ولا أُمَيْمَة. وما لم يَحْرِفه[1] النداء نحو (فُعَيْل) فقد انصاع في التصغير وظل على

---

(1) الحروف المستعلية تمنع الألف المجاورة لها من الإمالة. ولكنهم أمالوا طاب وخاف ومعطى وسقى، «لأن الإمالة أكثر في كلامهم» ولأن «الانحدار أخف عليهم من الإصعاد» (سيبويه، 4"، 127 - 132).

عناده في النداء. لأن الصيغة طلعت من النداء ولزمت «التحقير». ولعلنا عاثرون على صيغ أخرى ولدها النداء، غير صيغة التصغير. فأنا أُفكر في (فعايِل) و(فَعِيْل)... ففي مثل هذه المناسبات يجري البحث عن قياس المشتقات التي غادرت أوزانَ أُمّاتها ولم ترجع. وبعضها قد يرجع.

7 ـ منصة حركات الأصوات:

ويثير هذا البحث المتأمل مشكلةً تقع في جانب منها في حقل الإمالة حيث ينطرح السؤال: كيف تميل ألف (يا) النداء إلى ناحية الواو أو الضمة المفتوحة؟ وفي هذا السؤال فرع يتعلق بوضع أعضاء النطق، وفرع ثانٍ يتعلق بالموجات المرسلة مع كل من الألف والـ (o)، وفرع ثالث يتعلق بالإحساس الناجم عن أداء أَلِف /يا/ أو عن أداء صوت /o/. وقد وضعَتِ الصوتيات الفيزيائية أقيسة لأبعاد موجات الألف وفروعها ولأبعاد موجات الـ /o/، الألف المائلة إلى الضم. ووصفتِ الصوتلغويات الشكل الذي تتخذه بعض أعضاء النطق خلال لفظ الألف وخلال لفظ (o). وأبرزت استراحةَ اللسان في الألف وانضمامَ الشفتين في الـ (o). وقيل في صفة كل من الصوتين: هيٍ ما تسمعه في ألفاظ مختلفة من ألسنة البلغاء في اللغة، كألف مال وألف قال وألف الصلوة مثلاً. أما ما يجري من تحول في بواطن أعضاء النطق حال الاختلاف من لفظ أَلِف إلى لفظ أخرى، ومن لفظ ألف معتدلة إلى لفظ أَلِف مُشَمَّة فإلى ضَمَّة عربية خالصة كضمات (قُم) و(قُوْمُوا) فلم يحصل بعه توغلٌ علميٌّ يتمكن من قياس التيار العصبي ـ العضلي الذي يناسب التباين والتباني في لفظ الأصوات. وأستطيع أن أتكلم عن وجود مِنَصّة نفسية لإطلاق الصوت الواحد بحركات مختلفة. وربما كان لكل صوتِ حرفٍ منبرُه النفسي. غير أني أقف عند الدرجات الثلاث لمنصة إطلاق الأصوات. وأعني بها الكسر والضم والفتح. وليكن معلوماً أن درجة الكسر في أدنى السلم ودرجة الضم في أعلاه ودرجة الفتح في الوسط. وهذا الترتيب ـ على أنه ترتيب أصوات ذات جروس مختلفة ـ معروف في الفوناتيك. لكن الذي ليس معروفاً أبداً هو أن الكسر مُنْطَلَقٌ نفسي عضوي وراءه صوتُه وكذلك هما الفتح والضم وتفرعات المنطلقات الثلاث. وليس من الضروري أن يخرج من منصة الكسر صوتٌ يوافق ما نسميه كسرة، كالكسرة التي نسمع صوتها أو جروسها إثر الباء من (بِ)، أو كالكسرة الطويلة التي نسمع صوتها إثر التاء من /تي/. فلو أدمْتَ لفظك هاءً مكسورةً دون تقصّد لفظ /يْ/ إثرها دام صوتك على هاءات متوالية (أو هاءٍ ممدودة) منطلقة من منصة الكسر: هِـ هـ هـ هـ. ويصح هذا على جميع الحروف الرخوة في أحوال الفتح والكسر والضم. ويصح على حروف الإطباق مع قطع الجرْس الصائر إليها أو مدِّه إثَرها سواءٌ أكان ذلك من مثل السين أو العين أو

الألف أو الياء أو الضمة الواوية أو غيرها من حروف الإرسال التي لا ينقطع معها مجرى صوتها إلا بوقفِ إرسال الزفير، وليس بحرفِ إطباق.

كيف عرف علماء اللغة تحول الأصوات دون معرفة الأسس؟ أو كيف عرفوا بعض أسس تحول الأصوات بصورتها العامة واستطاعوا مع ذلك أن يروا صواباً في التحولات التي تحصل فعلاً؟ لقد لاحظ سيبويه ملاحظة أوقعته لبلاغة دقتها في خطأ لم يقع فيه أصحاب الملاحظات الغليظة من علماء الفوناتيك المعاصرين. فقد قال سيبويه في تتبعه لإمالة الألف: «ألا ترى أنك لو أردت التقريب [تقريب الألف] من الواو انقلبتْ واواً فلم تكن ألفاً؟» في حين قبلت اللغة تحول الألف إلى واو في أمثال وافِق/وافَق/ وسواها، وقبل علماء الصوتلغوية تحوُّل الألف إلى (o) في جعلهم سلماً للمصوتات يأتي فيه الميل من الألف نحو الـ (o) فنحوَ الـ (ـُ و) بوسائط يضيع فيها السمع بين: أهذه هي أم تلك؟! إلا أن هذه القرابة الحسية ناجحة وصالحة للاعتماد.

ولكن سـر النقلة وغمـوض المضيق لا يـمنـعـان رؤيـة النـقـطة ـ الجـسـر مـا بيـن الألف والـ /o/، فكل مختلف يكون عن أصل إنما كان لأن هويته الاختلاجية العضوية قد جاءت مغايرة لهوية اختلاج الأصل.

لعبنا حتى الثالثة فجراً بالورق. لعبنا قماراً وفتتنا مكشوفة ومستورة وترازينا والصغيرة في الطبات جوكر وبوخاريتو وزوج الرِّيا. . . وحددنا في لعبنا سقفاً للبلف أو الضرب. يبدأ الضرب بخمس ليرات ويتدرج حتى خمس وعشرين. ربحتُ ـ وكان من النادر أن أربح ـ ثلاث مئة وخمسين ليرة.

عدت إلى البيت آخر الليل مشياً، والمسافة نحو من خمسة كليومترات في ضاحية بيروت الجنوبية. الطقس معتدل. والسيارات أندر من بيض الفر. مررت بحاجز الميليشيا مجانباً فلم يسألني؛ خطر لي إن سألني عناصر الحاجز عن سبب تحركي أن أدعي بأني ذاهب إلى الفرن لشراء خبز. فالأفران وحدها تعمل في هذا الوقت.

بعد نصف ساعة كنت في البيت أغسل رجلي اليمنى فوق المغسلة. حركتُ رجلي وأنا أفركها بيدي حركة غير مبالية فسمعت صوت ولد صغير يفيق من نومه باكياً؛ سمعته من طاقة الحمام خارج البيت ومن وراء ظهري. وقلت لا، لا يوجد أولاد صغار هنا. نفت معرفتي بخلو ذلك المكان من أولاد أن يكون الصوت منطلقاً من هناك. وعاد الصوت ثم انقطع. فتصور لي أنه خارج الحمام ولكن من أمامي وداخل البيت. إنه صوت ابني علي محمود أو محمد. ثم نفيت أن يكون الصوت صوت أحدهما، فهما وأمهما في عشرون، وليس في البيت سواي. أمتأكد؟ متأكد طبعاً لأني دخلت غرفة نومهم قبل دخولي الحمام، ولا تسمح ظروف البلد بعودة أحد من الضيعة ليلاً.

ليس الصوت من ورائي ولا هو من أمامي وها هو يعود، إنه في الحمام وليس خارجه. لنبحث عنه هنا. لا شيء يتحرك قوياً سوى يدي ورجلي وعقلي، فالصوت ليس هو من حفيف ساقي ببورسلين المغسلة، وليس هو من تماس كفي بساقي، فصوتا هاتين الحركتين هو غير ذلك الصوت. ولا صوت حسياً بلا حركة. أصغيت إلى مدار فكري وتحريت ما يكون فيه وجاء الصوت من أذني لا من داخلي. كان فجأة وانقطع. حركت رجلي على المغسلة فلم أسمعه. سحبت رجلي من على المغسلة لأنشفها فكان الصوت وكانت رؤيتي للمغسلة تتحرك. كان إحساسان في وقت واحد: الصوت الذي توهمت أنه صوت طفل ومشهدُ المغسلة تتحرك عند الطين الذي ثبتت به في الحيط؛ فقد انفكت الترابة البيضاء التي طينت بها الفجوات التي بين المغسلة والحيط. وصارت المغسلة تتقلقل دون أن تخرج حافتها من الحيط؛ فهي قائمة فوق

أنبوبة ملوية تبعاً لانحناءاتها ومثبتة في الحيط.

لقد أكَّدَتْ المشاهدة أن الصوت قد كان بحركة المغسلة فوق الأنبوبة المعدنية وداخل الحيط. فهذه الحركة تسهم بتكوين بعض الصوت وتلك الحركة تسهم بتكوين الجزء الباقي، فهذا صوت مركب ومنسجم مع صوت بكاء معهود لدي أنه من قبل الأطفال.

اتحد أخيراً في العقل الإحساس السمعي بالإحساس البصري فأقر العقل بأن حركة المغسلة وَلَّدتْ طاقتين واحدة أثرت في السمع فكان الصوت وواحدة أثرت في العينين فكان المشهد. وهذا المشهد وهذا الصوت إضافة إلى الملامس والأحاديث الأخرى وما تولد عنها في النفس هي مكوِّنات نفسية متآلفة في وحدة، وحدة تشكل المعنى الكلي الذي تحصل لدي عن هذه المغسلة حتى حينه.

عرفنا إلى الآن أن تسليم العقل بوحدة مصدر الطاقتين هو الذي كان وراء الإقرار بأن الصوت وليد ذلك المصدر أي حركة المغسلة. ولو أن المشكلة كانت قائمة في المشهد، لو أن الالتباس كان محصوراً في المشهد دون الصوت للزم التثبت من أن المشهد وليد طاقة صادرة عن مصدر الطاقة الصوتية المبثوثة كي نتحقق من أن المشهد والصوت من مصدر واحد. علماً أن المرجعية البصرية هي الأصل المعتمد في بناء الحكم العقلي، فالصوت في الرأي العام يرجع إلى مشاهَد وليس العكس.

ولعل السبب في اعتماد المشهد أساساً لبناء الحكم هو الالتباسات التي تقع في الأصوات. فقد ظننا أن الصوت الذي سمعناه في الحمام صوت طفل. وتوهمنا أن هذا الصوت قد أتى من جهة الشمال. ثم توهمنا أنه أتى من جهة الجنوب. وبعد ما تحققنا من هوية الصوت اكتشفنا خطأً ثالثاً في الحكم على الصوت هو المسافة التي تفصل السمع عن مصدر الطاقة الصوتية. جميع هذه الالتباسات زالت حين حَصَرَ النظرُ الجسم والحركة اللذين ولَّدا الطاقة البصرية والطاقة السمعية لذينك المشهد والصوت.

كان هذا سبيلاً من سبل إزالة الالتباس عن مولِّد الطاقة الصوتية أو عما يسمى في اللسان العام صاحب الصوت.

أما كيفية حدوث هذه الالتباسات في الفكر فمسألة جديرة بالمعالجة. والمشكلة الأولى تكمن في كيفية التباس صوت المغسلة بصوت بكاء الأطفال. كيف تحصَّلَ في الإدراك صوت بكاء الأطفال في حين أن الصوت هو صوت تحاك المغسلة بقاعدتها المعدنية وبجوانب المركز الذي ثبتت به في الحيط؟ للجواب على هذا السؤال يجدر بنا أن نكون على وعي تام بأن

الصوت يكون من الأحداث النفسية الخاصة بالسامع. فالصوت ذو وجود مستقل عن مصدر الطاقة الصوتية. ولندرة حدوثه مستقلاً في مداركنا فإننا نجده متصلاً بمصدر نعينه بإحساس غير الصوت. وهذا الإحساس الآخر يحدث في نفوسنا بحاصل تأثر حواسنا بإحدى الطاقات المناسبة التي تصدر في آن إحساسنا بالصوت وتتأدى معه إلى الإدراك. وعندها نرد الصوت إلى مصدر الإحساس الآخر وإذا غاب الإحساس الآخر الذي يؤكد لنا حقيقة مصدر الصوت فإن الصوت يُوَلِّد أحَدَ المصادر ولكنه يولده في مستوى التصور وفي مستوى الشعور. فقد تقومُ بأحد الأصوات قيامَكَ بصوت ماثله في السابق بما كان قد ولّده من مشاعر؛ أو قد ترى أن هذا الصوت هو صوت فلان أو صوت كذا. يقوم رأيك على تطابق التجربة الصوتية الحاضرة من حيث الهوية الصوتية مع تجربة صوتية سالفة كانت قرينة بإحساس آخر يحدد هوية المصدر.

وفي المحنة الراهنة لم يكن الصوت شفيع إحساس آخر جدير بتحديد مصدره بل انضمَّ إلى مصدر ولَّده هذا الصوتُ في النفس وهو الأطفال.

لماذا ولَّد ذلك الصوتُ صوتَ الأطفال دون سائر الكائنات المصوتة؟

لقد ولد الصوت ذكرى ذاته كما يولد الماء المرئي ذكرى الرؤية التي كانت له من قبل. وفي مثل هذه الحال يقول ابن خلدون ممثِّلاً: «أشبه من الماء بالماء». وشبه الشيء بذاته هو ما يسمى الإيِّويَّة التي تعني: كان الشيء إياه ولم يكن غير ذلك. أما الشبه بين كائن وغيره فيتضمن في وعي من شَبَّه تعدداً في الأفراد، فيكون في التشبيه وحدةُ انفعالٍ مُدْركةً في عدد من المدارك أو الانفعالات المركبة. أما إدراك الشيء بعد إدراكه ومعرفته بلا لبس فيعني انفعالاً فرداً يُنَمِّي دأباً من الانفعالات؛ فيصير الواحد مولِّداً، في من ينفعل بالطاقات الصادرة عنه، فريقاً من الانفعالات يشبه ما يتخيله بعض الناس من أن الجنس كان من أبٍ واحد. ولكن العقل بالمرصاد فإذا كان هذا الصوت صوت بكاء أطفال فهذا الصوت صوتٌ حاضرٌ في الذهن ولا شك في أنه صوت، أما الأطفال فأين هم؟ ليس على السلالم أطفال وليس في الجهة والمدى الصوتيين المسلم بهما أطفال. إنه صوت بكاء أطفال ويأتي من حيث لا يوجد أطفال. فإما أن تتزعزع ثقة العقل بالتسليم الحاصل في الإدراك بأن الصوت صوت بكاء أطفال وإما أن تتزعزع الثقة بالتسليم بأن الصوت من هناك ومن هنا مكاناً وجهة. فكان أن سحب العقل إقراره بأن الصوت آتٍ من ذلك المكانوعن هذه الطريق وألغى إقراره بأنه صوت بكاء أطفال عندما التزم اعتقاداً بأن الصوت يحدث في الحمام المكشوف البيِّنِ خلوُّهُ من الأطفال.

هكذا أصبح الصوت في العقل صوتاً مجهول النسبة. ولكن العقل لم ينـفِ عنه الشبه القائم بينه وبين أصوات بكاء الأطفال. ليس هو صوت بكاء أطفال فهذا أمر حسمه العقل. ولكنه يشبه كثيراً صوت بكاء الأطفال. إذاً فقد أدرك أنه صوت بكاء أطفال لا بتزوير من

استعـداد نـفسي لمثل هذا التزوير؛ فالنفس مسكونة بِهَمّ الأولاد وهُمْ في البال سواء ظهروا في مجراه أم غاصوا فيه. هذا الانشغال الكبير بالأولاد وبالولدين الصغيرين على الأخص كان وراء تأثير الصوت الحسي للانتماء. فقد أهله للانتماء إلى ما قد تولد عنه. فهل كان الصوت صوت بكاء أطفال بعد ما كان صوتاً بلا نسبة؟ صحيح أنه كان أول وعي العقل له صوت بكاء أطفال. وصحيح أنه يمر في السمع ويُدْرَكُ على هذه الصفة. إلا أن صوت بكاء الأطفال قد كان في تجارب سالفة وليس في هذه التجربة. ثم إن قولنا «صوت بكاء أطفال» يتضمن توليفاً نفسياً تتبانى فيه أحاسيس وذكريات أحاسيس. وهذا الصوت قد كان إحساساً ولم يدرك على أنه إحساس. فلو تم إدراكه على أنه إحساس لكان الموقف منه كما هو الآن: صوت خاص أحسّه الآن ويذكّر بصوت بكاء الأطفال.

هكذا يتبين أن الصوت الحسي لو ظل حسياً لما أمكننا أن ننسبه. بل إن نسبته تتطلب ضم الصوت إلى إحساس آخر وضم الإحساسين إلى مصدر، أو ضم الصوت إلى ما تكُونُ النفس حبلى به مما يلائم هذا الصوت. وهنا يصبح التذكير توليداً وتفريخاً. فالصوت الحسي الذي تبين أنه صوتُ تحاكٍّ المغسلة بما يلامسها قد كان في السمع ولم يطلع الإدراك عليه إلا وقد قام منه في النفس مولودٌ هو صوت بكاء أطفال. إنه كان كالبذرة التي لا نراها إلا نبتة أو كالطفلة الوليد تُوْلَدُ حامِلاً. هذه التشبيهات قد تجلو بعض الغموض ولكن الشبيه الأكبر الأظهر للحقيقة هو تجلي الصوت الحسي في سمع النائم صوتاً حلمياً له حقيقته ومكانه ودوره في مجرى الحلم، إضافةً إلى انتمائه في شريط الحلم إلى شخص أو حيوان أو شيء، أو لا انتمائه.

إن بعض الأحاسيس لا تلبث في المركز الحسي الدماغي المناسب بل تعبره إلى منتمى تُوَلِّدُهُ هي من استعداد نفسي يلائمها في اللقاح. هذا الشيء المعروف كثيراً في الاستعارات وفي الأحلام الخارقة معروفٌ أكثر في المستويات الاجتماعية حيث يصبح الخالق مخلوقاً يَعْبُدُ ما قد خَلَق. وتفلت من رقابة العقل عندها مفاصلُ التكوين كي لا يعيقنا العقل عن الاستجابة السريعة. فالمرآة جاءت للوعـي في الحاجات الماسة، أعني المرآة الحقيقية التي توسلها الناس لمراقبة هيئاتهم وبعض سلوكهم. لكن المرآة الطبيعية غير الصناعية فقد كانت عند سائر الحيوان والناس عبارة عن ظلالهم في الأرض وفي السوائل الصافية، وكانت قبل ذلك عبارة عن رؤيتهم الذهنية حيث ينقاس الإحساس الحاضر والشعور الحاضر والخيال الحاضر كلٌّ بمثله الذي كان به في النفس وفي الوعي بعد أن كان سالفاً في خبرة عينية تقوم على حضور المؤثر الفاعل في الشخص حضوراً مولداً الطاقات مؤثرة في الحواس مُدَداً لا تقل المدة منها عن زمن يجري فيه بثُّ حدٍّ أدنى من الطاقة الكافية لتوليد الحس الأدنى.

فوعيُ مفاصلِ الوعي وتحليلُ العملِ النفسيِّ طورٌ نفسيٌّ حديثٌ نحن مقبلون عليه.

الاختلاج اللساني هو ما كان في مخارج جهاز النطق من وجيب داخلي موسوماً بسمة الحروف الصامتة. وهو يتكون بتأثير من صوت في السمع أو شغل نفسي فكري أو بتأثير مادي فيزيائي أو كيميائي أو ميكانيكي.

وينحصر هذا البحث في علاقة الاختلاج اللساني بالصوت السمعي من جهة وبالشاغل النفسي من جهة ثانية. وأبرز محاوره هي التالية:

1 ـ أصوات تلتبس مصادرها وجروسها:

أفاق صباح اليوم وهو يسمع صوت ماء يُـصبّ بحركة هادئة إلى اليمين فإلى الشمال، كأن الذي يَصب الماء يدير به يده عن جنبه هذا إلى جنبه هذا كما تحرك البقرة الوحشية ذيلها لتذب به الحشرات عن جنبيها بالتداول.

من يفعل هذا قبل طلوع الضوء؟ إنها ولا شك صانعة بيت الجيران بيت أبي رشيد. كل يوم تقوم قبل الضو وتستهل يومها بالماء. واشتغالها بأواني الماء لطيف، يتوخى أن لا يزعج أحداً؛ ولكنه أفاق ولا يقدر على مواصلة النوم، وتساءل: كيف كفت الأصوات المزعجة عن إيقاظه، وصار ينام ومن حوله أصوات المحركات والمولدات والأبواق ونداءات الباعة والمكبرات التي تدعو المواطنين إلى التبرع بدمائهم: «من فئة (o) بوزيتيف، من فئة (a) بوزيتيف، ومن جميع الفئات»؟ ثم كيف تنتزعه من نومه أصوات ناعمة يولدها تماسٌّ لطيف بين أجسام الأوعية التنكية والآنية المعدنية التي جمع الليل فيها الماء نقطة نقطة؟ تحاكٌّ وتماسٌّ يحفان بالقلب ويشبان في الخيال فتاة تطلع النارُ من سمرتها كأن بشرتها مزدحمة بالغروب. هي وراء شباكهم تبتسم لهم بسمات حنوناً يميل بها الخفر عنهم نحو جهات شرقية بعيدة.

أيشكوها إلى سادتها ويعفو عن أهل الضوضاء القاتلة؟ لا، لا يشكو ضعيفاً إلى من هم أقوى منه ما دام في هذا الجسد اختلاج. وقبل أن تلوِّحَ بالشكوى وتُعرض عنها تأكدْ من أن الأصوات التنكية هذه طالعة من الجهة التي تظن أنها تطلع منها. ماذا يمنع أن تكون محنتك مع

أصوات الأمس قد صورت لك أن محنة اليوم تجتاز إليك الطريق الذي سلكته إلى نفسك مِحَنُ الأيام الخوالي؟ وأن أصوات اليوم تنطلق إليك من مصادر أصوات الأمس؟ وأن الفاعل هو هي عينها البنت الشرق ـ آسيوية؟

لا لا، ها قد غيرت الأصوات الجهة التي تصدر عنها. فقد كان يسمعها من الشرق وها هو يسمعها من الغرب: ضربات الماء ضربة إلى اليمين وضربة إلى الشمال، هذا صحيح ومؤكد، لكن الأصوات قد غيرت جروسها ولم تغير نظام وزنها. أصوات حنين، حيناً إلى اليمين وحيناً إلى الشمال؛ وهي موزونة كالأنفاس زوجاً زوجاً: يمين شمال، وشهيق زفير.

إنه صاح وهذا صوت غسالتهم يطلع من الحمام؛ أم ترى اتصل الصوتان فقام صوت الشرق ـ آسيوية وتواصل حتى التقى وتداخل آخرُه مع أوائل أصوات غسالتهم؟

2 ـ كل يسمع في الصوت الخام من الألفاظ ما يناسب مشاغله

انتهى التخمين وهذا الصوت الآنّ ينبض به قلب غسالتهم متجهاً بالغسيل والماء والصابون من اليمين إلى الشمال فمن الشمال إلى اليمين. إنه مثل / هُـنْـنْ / تنقطع عند غاية الذهاب إلى اليمين وغاية العودة إلى الشمال كما ينقطع حفيف ثوب طويل فتح من الأمام عندما تدفعه هذه الساق فهذه الساق.

ماذا يقول هذا الصوت؟ أصحيح أنه يقول كما أكدت زوجته: ليلْ/نْهارْ، لَيْلْ/ نهارْ؟

يوم أخبرته بكلام الغسالة هذا ضحك بفرح يخالجه شيء من الشك. وضايقها شكه كثيراً. وعند ذاك كست وجهها هيبة الجد وقالت بحزم لطّف منه التأدب: الغسالة وهي دايرة تقول كما قلت لك، وطالما هي دايرة تظل تردد: لَيْلْ/ نْهارْ. فرد ممازحاً: طريها يا مَرَه وتواضعي وقولي: كأنه (ليل/ نهار). فلم تقبل. وجزمت أن الغسالة تقول: ليل/ نهار، وإذا كنت لا تصدق أدورها وتسمع وهات كل الناس تسمع، أيا ما شئت.

ولما رأت ابتسامته هازئة وسكوته يائساً من تغيير رأيها، لوت عنقها تأسفاً كأنه أظهر من المعرفة بالأمر أكثر ممن جربه واختبره سنين وسنين. فلا هو قادر على أن يصدق أن الوهم قد بلغ من نفسها مستوى اليقين، ولا هي ترضى برأيه: إن أعمال الغسل على ظهر النهار أبينُ لمقتله وفي بطن الليل أفضح لحلكته، وأن الغسل في الزمن يجلو ما تراكم فوقه من أوساخ لا تزول ولا تشم، ولا مرد لتسربها معه إلى النفْس وإفشاء الكدرة فيها، كما أنها لم تقتنع بأن غسلها المتكرر في الزمن قد جعل الغسل سرمداً، هو السرمد؛ ويكون أبيض عندما تمر نوبة

الغسيل الأبيض ثم يعود أسود مع الغسيل الأسود. فهذا الحين أسود وذاك الحين أبيض. وكل حين مجراهُ في الحنين الأسود ليل وفي الأبيض نهار. إنهما كفا ذلك السرمد، يلعق بهما الحياة بشره لا مثيل له ولا انقطاع، في جو من الحنين أو الأنين.

إنها لم تبال بشيء من هذا رغم أن يدها تحركت تحركها لإدارة الغسالة عندما قال أبو علي وهو يتأفف: يا أللااه ما أوسخ هذه الأيام التي وصلنا إليها!! الزمن عندها بين منشور على الشريط لينشف في الهواء والشمس وبين قابع يتراكم في زاوية مظلمة ينتظر أن تغسله. الليل والنهار في الغسالة؛ يصرخ الليل: /ليل/ كلما عركه الدولاب، ويصرخ النهار: /نهارٌ كلما عركه الدولاب. لا يكف أنين غسالتها عن ترداد عذابها: ليل/ نهار.

التفت إلى زوجته ليرى إن كانت تسمع أفكاره فوجدها تجر طفلها إلى الحمام، وهو وحيد يكلم الحيطان.

3 ـ هل يمكن الوصول إلى إدراك صوتي مشترك؟

لقد ساءها كثيراً هذا التطيين السمج على خبرها الخفيف اللطيف الذي أدته كما تؤدي وردة أو زهرة فل، عجيب! عجيب فعلاً أنك تقبل من الولد قوله: يا بابا قال العصفور «زقزق»، وترفض من أمه: قالت الغسالة «ليل/ نهار»!

إذا كانت على يقين مما تقول ألا يجدر بك عندئذٍ أن توسع عقلك ومداركك حتى يتوافر لكَ الاطلاع على أعمال العقول الأخرى؟ من قال لك إن جميع العقول تخضع لقانون عمل واحد؟ هكذا فكر.

ورد على تساؤله بتساؤل الأَوْلى به أن يسبق ذاك: هل تحس الأسماع التي تتعرض لطاقات إسماعية متماثلة أحاسيس صوتية متماثلة؟

نفترض أن أسوياء الناس المزودين بأسماع سليمة يسمعون أصواتاً متماثلة عندما تتلقى أسماعهم رسائل من الطاقة متماثلة.

إذن يفترض أن يتماثل سمعه وسمع امرأته إذا تأثرا تأثراً متماثلاً بما يصدر عن قلب الغسالة من طاقة إسماعية.

الأذن شيء والعقل شيء آخر، ونفترض أن الصوت يكون، وإثر كونه يطّلع العقل عليه ويدركه، وإثر تكونه تكون أيضاً أحوال نفسية لا بدّ من ترتبها عليه. فالإحساس له ديمومة والإدراك له ديمومة والتذكر والخيال وسائر الأحوال النفسية لا تكون بغير ديمومات تخصها.

وإذا سمعنا نَعِـي أحياناً أننا سمعنا، وإذا وعينا ما سمعنا فإننا ندرك أحياناً أننا وعينا ما وعينا.

ولنفترض أن إطلالة الوعي الأولى على الإحساس، لمن يجتهد أن تَـسْلَمَ أحاسيسه ووعيه من توقعات، تأتي حيادية. ولا نفترض الإنسان عاجزاً عن الرؤية السليمة والإحساس السليم، فهذه الوحدات اللغوية نميزها ولا شك.

لهذا كان الرجل واثقاً من إمكان الاتفاق مع زوجته بشأن الصوت الذي يسمعانه بأثرٍ مشترك من دورة الغسالة، ولذلك قال لنفسه: ها هي الغسالة تدور، تحسس صوتها ولا تدع مجالاً لالتبـاس الإحساس بما يتبعه من ألفاظٍ تتكون بتكونه وتتقمصه.

جمع انتباهه كله في سمعه ليقف رقيباً أميناً أو شاهد عدل، فماذا سمع؟

لقد سمع: (هُـنْنْ هُنْنْ)، ثم: (هُنْنْ)، ثم: (كُـوْمِكْ كُوْمْ)، ثم: (هَمِـلْ كارْ)، ثم؛ (كُـوْمِكْ كُوْمْ)، ثم راح اللفظ (كُوْمِكْ/ كُوْمْ) يتوالى على سمعه في جو متواصل من نغم الحنين، كل برمة ورجعة تقول: (كومِكْ/ كُوْم) مع الحنين.

ثم ضبط نفسه يقول في سره بمثل القَسَم.

أقول الحق، ولا أقول غير الحق، أشهد شهادة عدل أني لم أسمع هذه الغسالة تقول (لَيْلْ/ نْهَارْ) على الإطلاق. ولم أسمعها تقول سوى ما ذكرت.

4 ـ الصوت الحسي واختلاجه في اللسان والسمع اللغوي:

لندع مسألة اختلاف ما سمع مع ما سمعته زوجته كي نركز انتباهنا في مسموعاته المختلفة أي: هُنْنْ/ هُنْنْ، كومِكْ/ كوم،هَمِل/ كار، وما دعاه: «كومِك/ كوم في جو متواصل من نغم الحنين».

فما هو الحسي من هذه المسموعات؟ وما هو المترتب منها حكماً على الحسي؟ وما هي البراهين التي تثبت أن هذا الأمر النفسي حسي وأن ذاك مبني عليه؟

المطلوب الآن صب الانتباه في صوت الغسالة لحظة تكوّنِهِ لإدراكه بذاته، لإدراكه صوتاً مجرداً مما قد يكون معه أو به من مدركات على اختلاف طبائعها.

حصل هذا التركيز وكان صوت الغسالة فرداً للحيظة. وفي الحال اندرز فيه، في ما سلف منه وفي ما لحق، لفظ (كومِكْ/ كوم).

هذه المشاهدة الدقيقة استوجبت منه التشهد.

فقد وعى أن ما سماه حنين الغسالة، وحكاه بقوله: هُنْن/ هُنْن، مزيج من أصوات اختلط فيها الجرس النوني مع الجرس الهائي أو الحائي مع صوت مقطوع من مثل (كْ) يقطع الحنين كلما ختم قلبُ الغسالة دورته إلى اليمين وكلما ختم دورة رجوعِهِ إلى الشمال.

ووعى جيداً أن الفكر ما دام مجموعاً في الصوت لا يقول هذا الجرس نوني أو هائي أو غير ذلك. لكن اختلاجات هذه الأصوات، بل هذه الجروس، في بعض جوارح النطق التي تتلفظ بها عادة، تختطف الانتباه إلى ذاتها فيدرك المعادِلَ الاختلاجيَّ اللساني لرنين أو لجَرْس الصوت السمعي، ثم يرجع الانتباه بأسرع مما أتى للانصباب في مجرى الصوت الحسي. كأن الفكر بعمله هذا قد ترجم الصوت الذي يسمعه صاحبُه سمعَه الخاص إلى اسمه المتفق عليه اجتماعياً: هذه الرنة نون وهذا الهويّ هاء وهذه الشكة (كْ). على أن سريان الصوت من السمع إلى مخرج الحرف يحوله من صوت إلى اختلاج في مواضع محددة ومدركة من هذا المخرج. وهذا الاختلاج وإدراكه عملان ذاتيان يتماثلان ويختلفان بدرجات من شخص إلى آخر.

وما دام الفكر قد أدرك جبلة الجروس مجردة عن أسمائها ثم أدركها متشابكة النغـم، كل نغمة مع معادلها الاختلاجي، فما الذي وسعه أن يدركه أو يلحظه من تكون (كومِكْ/ كوم) ومن اتحاده بدورة. الصوت المتولد عن أمواج الطاقة الإسماعية الصادرة عن الغسالة؟

صاحبنا يذكر جيداً أن وحدات (كومِكْ/ كوم) انطلقت من الجهة الشمالية من وسط الدماغ، كما ينطلق عدد من العصافير تباعاً عن شجرة لا أراها، كي تنتظم في سلك حنين الغسالة عن يمين وعن شمال وعلى أبعاد متساوية تقريباً مثلما تنتظم تلك العصافير في سلك هاتف يرتفع ليس بعيداً عن المنطلق.

وتبلدَ الإدراكُ بعد ما وعى بهذا التفصيل صوت الغسالة وحكايته وأسماء عناصره وتلبس (كومِكْ/ كوم) له. فلم يدرك كيف كان لفظ (هَمِلْ/ كار) ولا كيف عاد لفظ (كومِكْ/ كوم) ليركب دورات الصوت غير مفسح لغيره أي مجال.

5 ـ عوامل تقسيم الصوت الجاري إلى وحدات موزونة

عنـدما رأى هـذا الالتحام بين صـوت الغسالة ولفظ (كومِكْ/ كوم)، ورأى أنه الآن عاجز عن إدراك ثنائيةٍ في الوحدة المؤلفة من الصوت الخام ومن اللفظ المؤلف من حروف لغوية أدرك أن حالة الآن كحال زوجته التي أبت أي شك في وحدة ما تسمعه من الغسالة أي: لَيْلْ/ نْهارْ.

ولفت انتباهه أن ما قالته الغسالة لزوجته يشبه ما قالته له في خاصة هي غير اندماج الصوت الخام للآلة في هذا القول وذاك، تلك الخاصةهي الازدواج الذي طبع ما تولد مع صوت الغسالة في ذهنه من ألفاظ مزدوجة، قول زوجته: ليل/ نهار، وأقواله: هُنن/ هنن، هَمِلْ/ كار، كومِكْ/ كوم.

كلها توافق أوزاناً متقاربة وكلها تتألف من وحدتين متوازنتين في الطاقة اللازمة للنطق بكل منهما.

ما سر هذه الاثنينية في التقسيم اللفظي والوزني؟ وما سر الوقوف عند هذا الحد من دون تقصير عنه ولا تجاوز له؟

إذا قلنا إن دورتي قلب الغسالة، إلى اليمين دورة وإلى الشمال دورة، قد حددتا الاثنينية اللفظية والتوازن في الوزن، فإننا نتساءل: لماذا لم تكن الدورة اللفظية ثلاثية، أو رباعية، أو أكثر، أو أقل، كـ: (ليل/ نهار/ ليل)، (ليل نهار/ ليل نهار)، (ليل/ ليل/ ليل/ ليل. . .)؟

يوجد في الحركة الخارجية المولدة للصوت المجرد جزء من الجواب. فالحركة هي حركة آلية، دورة قلب الغسالة إلى اليمين ثم دورته إلى الشمال، أو العكس، ولا شك في أن الدورتين حركتان مختلفتان وتولدان طاقتين مختلفتين، ويُؤثر اختلافهما في أطوال وأنغام الصوتين التابعين لهما.

أما لماذا لم تكن كل دورة وحدة، وكل ثلاث دورات أو أكثر؟ فإن الغسالة لا تجيب على هذا السؤال. ويجيب عليه أولاً التنفس الذي يقسم الكلام الصامت خاصة، ويتدخل في تقسيم الكلام عامة. فأن تقول في صمتك: (ليل/ نْهار) يشبه قولك: (شهيق/ زفير)، فأنت شاهق مع الجزء الأول وتزفر مع الجزء الثاني، فالشهيق والزفير تحكما هنا في الوزن.

والمجيب الثاني على السؤال هو الإدراك الواقف واعياً على السلسلة المتواصلة للتنفس مميزاً في خطها وحدة الشهيق من وحدة الزفير، ومميزاً أيضاً التلازم بينهما واثنينيتهما، بمعنى لزوم الشيء عن شيء وبمعنى الجوار في الزمان والمكان وتوحد الاثنين. هذا التعاقب المتكرر لعملين متلازمين ومتوازنين كالشهيق والزفير والمشي بتقديم رجل وإتباعها بأختها وتقديم يد ثم أختها، قادر على تأسيس وزن من تفعيلتين متوازنتين تحكمان الكلام المنطلق من النظر أو التحسس للظواهر وللحركات المتعاقبة كالليل والنهار ودورة الغسالة إلى اليمين فإلى الشمال والرجل والمرأة. والنفْس تعاني انبناء الوزن المقترن بالمحن والتجارب وتضم إليه ما قل عنه قليلاً وما زاد عليه قليلاً، يقولون عندنا في الوزن مثلاً هو: لا يعادل الرطل إلا رطل واوقية. وفي الحساب يهملون الكسور ويستزنخون من لا يدغمها في أقرب الصحيح إليها.

6 ـ ما يفوق الوزن يميز الأمزجة الفردية

ومما ظهر في أقوال الغسالة وفاق الوزن اختلاف الحركات واختلاف أطوالها ما بين فرد وآخر في كل اثنين، وما بين اثنين واثنين من هذه المزدوجات. وهذامن دواعي السؤال: لماذا ظهر الفتح في قول زوجته: لَيْل/ نْهار، بينما ظهر الضم في قوله هو: كومِكْ/ كُوْم، كما ظهر عنده الفتح في (هَمِلْ/ كار) ثم اختفى؟

من المعروف أن هناك أسباباً عضوية عامة وأسباباً عضوية خاصة؛ وهناك أسباب نفسية عامة وأخرى خاصة، وهناك أسباب لغوية اجتماعية تتعلق بلاهوت اللغة وجغرافيتها. وهناك أسباب تتعلق بفعل الطاقة الإسماعية الخارجية المؤثرة في محاكاة الصوت المسموع من بعض النواحي.

فقد يكون صوت الغسالة المتكون في السمع ذا فعل رفعي (ضمّي) في حركة الأوتار الصوتية. وقد يكون مجرى التنفس من الوترين عبر الخياشيم غير سالك عنده إلا من طريق الضم وغير سالك من طريق الفتح والكسر، بينما هو سالك لدى زوجته من باب الفتح. فالمنصة الصوتية العاملة تتأثر بسوية أو لاسوية أوضاع مخارج النفَس ومداخلة من الحلق والأنف.

وتحديد الوضع العضوي الذي تكون عليه الجوارح المشاركة في إخراج الزفير المصوِّت في حال تقطيعه بالصوامت أو عدمه يبين لنا صورة بصرية لما نحسه في الصوت الجاري من ضم أو كسر أو فتح أو قطع (= سكون). وقياس الأبعاد للموجة الصوتية في حال الضم وغيره يكوِّن لمدركاتنا السمعية معادِلات إدراكية أثبت وأقدر على مقاومة التبدل في الأحوال النفسية، كما هي الحال في قياس الحجم والثقل والطول حيث لا يعود في الإمكان القول لمن ينظر في بئر ماء: أقل من أربع قامات، ولا أكثر. فهذا العمق وهذا المتر. لجأوا هذا الملجأ لأن المتر وحدة إدراك أكثر مقاومة للتوهم من أعماق الماء، علـى أنه موضع ريبة في صورة شبه دائمة.

قياس قوة الموجة الصوتية وأبعاد ذبذباتها يثبت وجود اختلاف صوتي بين كل من الضم والكسر والفتح والسكون ومتفرعاتها. إذا قلت (o) يجري قولك في سمعي، ومن ثم في أوتاري الصوتية اختلاجاً، غير مجراه عند قولك (i). والتوابع النفسية والعضوية لكل من هذا الصوت وذاك تختلف أيضاً. فهذا حرف يطفو له عندي مزاج ويطفو لكل مما عداه مزاج مختلف، سواء في الهيئة العضوية أو التوابع النفسية.

أما إذا اختلف مزاجي من ضمة إلى ضمة فليس لأن الضمات تختلف في الصوت وفي الاختلاج من إدراك إلى آخر، مع قدرة أجهزة القياس على تسجيل الاختلافات الدقيقة التي

تفوت الإدراك والإحساس، بل لأن الحال الذي يكون عليه مستقبل الضم قد تبدل وصار الضم يفعل في الشخص غير فعله فيه وهو على غير حال، وفعله فيه عضوي ونفسي.

ولاختلاف هذا الفعل يختلف النطق بالضم مرة إثر مرة، ذلك أن النطق صورة مكبرة لفعل الصوت الاختلاجي في مخارج الأصوات الأنفموية.

والغسالة العاملة قريباً من سمعه مثل الساعة المضبوطة لم تغير من الطاقة الصوتية التي تبعثها في اتجاه سمعه شيئاً محسوساً. فحنينها هو حنينها، وكل ما جد عليه أنه صار نهراً يتواصل جريانه مقطعاً في الإدراك إلى سلسلة من أزواج (كومِكْ/ كوم). فكما يكون الماء الجاري على الحصى جسماً سائلاً مع تقديمه صورة مكررة للحصى الواقع عليه النظر كان حنين الغسالة صوتاً متواصلاً يقدم للسمع لفظاً مكرراً هو (كومِكْ/ كوم)، إلا أنه اختلاج هلَّ من الأعماق.

7 ـ جهاز التنفس وجهاز النطق يوطئان لمزج صوت خام باختلاج لفظي

وتحصر الانتباه قدر المستطاع في خامة الصوت الجارية لتدرك المنصة التي يتواصل جريانه من فوقها: أهي منصة الضم؟ أم الفتح؟ أم الكسر؟ وهل فيها سكون؟

وتدرك أن حبيبات النغم المختلفة الألوان تكون وتزول سريعاً ليحل محلها أمثالها في مجرى محكوم بالضم. الضم مسموع ولا لبس فيه. وعندما جرّب أن يحاكي مجرى الحنين من منطلق الكسرة شعر بأن تغيراً في الحلق وفي الرئتين قد طرأ. وشعر لهذا التغير بانزعاج أحس بمثله عندما جرب محاكاة الحنين من منطلق الفتح. وعاد ليرقب الحنين في السمع فأقر أنه مضموم، ومضمومٌ اختلاجه.

ولكن كيف يمكن تفسير السكون والكسر في الكاف والميم من (كومِكْ/ كُوْمْ)؟ أو بالأحرى كيف يمكن تفسير الضم في الكافين الأوليين من (كومِكْ) و (كوم)؟ الكاف على حبل الحنين الصادر عن الغسالة هي قَطْعة كافيّة الصوت، وتسمع لها كافاً ساكنة مثل (كْ) عند ختام كل من دورتي قلب الغسالة. ولكن استئناف الصوت، بعد قطعة الكاف هذه، يكون بمثل /أُنْن/ فإذا وصلت الكاف الساكنة بـ (أُنن) تكوّن لديك مثل القول (كْ أُنْن)، فالقول كون (= con)، الذي قام بقيامه لفظ (كومِكْ/ كـوم) حرك المجرى بمثل حركته عنصرَ الكاف الساكنة، حركها بالضم، سيما أن الضم في المجرى ليس مهموزاً.

ويبدو هذا متناقضاً مع السكون في الكاف الثانية من (كومِكْ). فكيف انصاع الساكن الأول لحركة المجرى، أي الضم، ولم يمتثل الساكن الختامي من (كومِكْ)، علماً بأن المجرى

لم يكف عن الحركة؟

يأتي الجواب على هذا السؤال من انقسام (كومِكُّوم) إلى وحدتين يتداولهما الشهيق فالزفير. يبدو أن حد الشهيق أحَدُّ مقطعاً من نهاية الزفير، لهذا وقف الشهيق على حد الكاف بعد الميم، وقف على قطع مطبق، بينما انتهى الزفير بالميم الثانية حيث يُلغى الإطباق الشفوي بانفراجة المجرى الأنفي. لا ننسَ أننا نسمع ولا ننطق إنما نلاحظ الاختلاج الصامت للحروف.

ويفسر الكسر في الميم الأولى استهلاكك لهواء الشهيق المضموم وفقاً للصوت المسموع إلا بقية استخدمت وصلاً خاطفاً للميم بالكاف، أي وصلاً لنهاية الشهيق بأول الزفير. انتهى الشهيق متهالكاً مقطوعاً بالكاف الساكنة التي ليست إلا ملامسة مخطوفة لكاف الزفير الذي بدأ بدفق قوي مع الكاف المضمومة في أول القسم الثاني من (كومِكْ/ كوم). وبمثل قوة البدء في الزفير كان البدء في الشهيق: كو (co) في البدايتين.

كانت الكسرة الخاطفة بين الميم الأولى والكاف الساكنة اختلاجة في ما بين جزءي اختلاج اللفظ المقسوم، وليس من الحنين المتواصل مضموماً.

يجري الصوت إذن في السمع على نحو يمكنه من استقطاب ألفاظ توافقه في الجروس وفي مجرى حركاته موافقة مشروطة بالاستعداد القائم في الأجهزة والأعضاء المشاركة في الاختلاج اللفظي المفضي إلى النطق.

فلولا تدخل الشروط العضوية كان يمكن أن نصور نهر الصوت المتولد بفعل دورة الغسالة كنهر من التنوين المضموم لا يقطعه سوى صدمة كافيّة تبلغ السمع كلما اصطك عمود الغسالة بحديدها عند نهاية دورته، هكذا: أُنْنْكنننكننكنن

8 ـ كيف يستقطب الصوت الخام لفظاً اختلاجياً بعينه

لقد عرفنا إلى الآن صورة للصوت المسموع وأخذنا فكرة عن دور الجهاز التنفسي والنطقي في تقسيم ذلك الصوت وتحويله من صوت إلى جملة من الاختلاجات الكلمية الصامتة المؤهلة للنطق. لكننا لم نعرف كيف استطاع الصوت المسموع والمقترن باختلاجات الحروف المحاكية لجروسه في مخارجها أن يستقطب هذه الوحدة اللفظية دون غيرها. فلماذا استقطب (كومِكْ/ كوم) دون غيرها؟

يأتي الجواب هذه المرة من مشاغل النفس. فقد كان صاحب هذا السؤال مشغول

الذهن، إبان سماعه حنين الغسالة المشكل، بالتساؤل عن سبب خلو كتاب يطالعه حول الفوضوية والشيوعية من لفظة (comecon). والتساؤل الذي لا يجد جوابه إلا تخميناً يظل يعاود الحضور إلى الذهن ويلح عليه حتى يستجاب لطلبه. وهذا الإلحاح يمكّن للفظ في الاهتمام النفسي كما يمكّن له في اختلاج اللسان الصامت، إذ كلما مر في البال مر اختلاجه في اللسان.

صارت اختلاجة اللسان، وسائرِ أعضاء الجهاز النطقي بما فيها الرئتان ووظيفتاهما، كالعقدة الجامعة بين الأصوات المسموعة من طرف والمشاغل النفسية من طرف ثانٍ. فإذا كان الصوت كان بكونه الاختلاج اللساني الجزئي اللالغوي، ثم يكون من الذهن انتباه إلى كلم يتضمن الاختلاج اللساني المنبه، ويكون بالتالي اختلاج لسان ناجز بسائر وحدات الكلمة الذهنية، اختلاج يظل مكتوماً بالصمت أو يجتهر بالنطق، اختلاج لغوي واعٍ.

فعندما اختلج اللسان بـ (كوم) = (com) تنبه الذهن إلى (كوميكون) كلها، فاختلجت في اللسان؛ وظلت على الميمين، بدلاً من ميم فنون، لأن فم المفكر مطبق الشفتين؛ وبهذا الإطباق يغلب التمويم على التنوين ويساعده في غلبته اختلاج اللسان بالميم الأولى بدلاً من النون لنفس العلة. ويمثل هذا نفهم خطأ الطفل في النطق عندما نقول له: (القرآن)، فيرد قائلاً: القرقان، وخلاصة ذلك: اختلاج لساني ← وعيه ← اشتغال نفسي.

ولا يقم في الذهن تصور الأمور بهذه البساطة، فالصوت يفعل في النفس عن غير طريق الاختلاج اللساني، والاختلاج اللساني يفعل في النفس غير تنبيه الذهن إلى الكلمة الموافقة لاختلاجته. وهذا تشعب ليس هنا موضعه.

9 ـ الاختلاج اللساني يمتد إلى الحلم

إنما يقفز الذهن من هذه التلقائية العجيبة المزرية إلى التساؤل عن إرادة الإنسان. هل يقتصر موقف الإنسان على تلقي الصوت والاختلاج والانفعال به وتولد الألفاظ المناسبة لذلك من دون تدخل للإرادة، وكأننا في حلم؟ وفي الحلم لا نكون بلا إرادة.

الذي يحدث في الحلم يشبه أننا نسمع، أي نتأثر بطاقة إسماعية ويتكون بنتيجتها الصوت في مسامعنا. والصوت في خبراتنا الحسية يكون في الغالب مقترناً بأحاسيس أخرى، والنفس تكون منشغلة بشاغل يهمها، فيقترن الصوت المحسوس بالعنصر المصوت بمثله، أي بأحد العناصر المكونة لذلك الشاغل النفسي الحلمي. وإذا لم يكن بين العناصر عنصر مصوت بمثل الصوت المحسوس يولّد ذلك الصوتُ ما يناسبه من عناصر واقعة في إطار الشاغل

النفسي. أي يوسع دائرة الحلم. وإذا لم تكن مخارج الحروف اللغوية مربوطة ربطاً يمنعها من الاختلاج بالأصوات المحسوسة يتكون ذلك الاختلاج، ويكـون كلام حلمي على ألسنـة الأشخاص الحلميين الذين تتشابه اختلاجات كلامهم في مخارج نطق الحالم مع هذا الاختلاج المتكون بتأثير من الصوت االحسي، كماتغيِّرشخوص الحلم في الاختلاج؛ وهؤلاء الأشخاص يكونون بين مكونات الشاغل أو يولدهم الاختلاج بما يلائم الشاغل.

فالصوت يفعل في الغفلة فعلاً، واختلاجته اللسانية تفعل فعلاً يناسبه أو فعلاً لا يناسبه، ولكنها تفعل سواء في حلم النائم أو في خيال الحالمين.

10 ـ الذوق الاختلاجي يصوب الإدراك السمعي وقد يضله

ومن دقيق ما يجري في هذا الباب أن الإدراك يصوب الكلام المسموع ويستكمل نواقصه أو يطرح زوائده بناءً على ما يجنيه من عمل انتباه مزدوج. إذ يكون الانتباه مصبوباً على الصوت المسموع بالذات من جهة وعلى اختلاجاته اللسانية من جهة ثانية. فإذا توافق الصوت مع سابق محنتنا معه أقررنا بهويته؛ وإلا فالإدراك المنشعبُ الانتباهِ نحـو مخارج الحـروف يتذوق الاختلاجات التي كانت في المخارج مقترنةً بسماع الصوت. وبهذه الذائقة يَحدث تصويبُ ما لم يستوِ للإدراك مما حصله بالسمع. وإذا تضارب الإدراك السمعي والإدراك الاختلاجي يكون تغليبٌ في الرأي لصالـح أحدهما في الكل أو في البعض، أو لا يكون تغليب فيكون تردد بين بين، أو يكون إقرار باللاأدرية، ونمضي.

وحين نسمع صوتاً ذا طبيعة واحدة، أي أنه لم يُقرن بمؤتلفة اختلاجية لغوية، تتجه مداركنا نحو ما كان لنا مع هذا الصوت من محن، مع أنه يمكن أن يكون صادراً عن وسط لا عهد لنا بشيء من مكوناته، وذلك مثيل سمعنا صوت بقرة بتأثير طاقة ألكترونية ليس لدينا شيء من المعرفة بها. فما يولده الصوت في سامعه هو وليد مِحَنِهِ السابقة مع هذا الصوت إضافة إلى ما يكون له من تأثير جديد في مزاج جديد. ويمكن أن يولد الصوت الخام ألفاظاً لمناسبة تكون له مع هذه الألفاظ، كترتب مشترك في الجروس أو كتقطيع متوازن بينه وبين ما ولد. هناك عصفورة تغرِّد تغريداً بوزن (زُقْ زُقُقْ) وتَبَرْر، فيقول بعضهم إنها تقول: «إحْصِدِ وْدُقْ»، ويقول غيرهم إنها تقول: «إحْلِبِ ولِـر». فهذا مثيل قول الغسالة (لَيْلْ/ نهار) على لسان الزوجة، و (كومِكْ/ كوم) على لسان الزوج.

والذين يؤوِّلون منطق العصفورة بـ «إحصِدِ وْدق» هم ولا شك قوم يحصدون ويدقون سنابلهم، والذين يؤولونه بـ «إحلب ولق» هم من الرعاة، يحلبون ماشيتهم ويلعقون لبنها.

وإذا تحول الرعاة إلى فلاحين وخلفوا جيلاً جديداً من الفلاحين، فإن الجيل الجديد سيتمثل قولَ الفلاحين والعكس صحيح.

١٦ـ الاختلاج اللفظي يتفاعل مع أشخاص الخيال الرديف

والزوج يستطيع، من دون التحول إلى زوجة، أن يتمثل بلوى زوجته ويعيش في حلم اليقظة أو في حلم النوم كما تعيش هي ردحاً من الزمن، يقوم فيه بالأعمال التي تقوم بها: يغسل ليل نهار حفاظات الأولاد وثياب الكبار والماء الغالي يكوي يديه ويلذع روحه. والرائحة الطيبة تقلب جوفه من فمه إلى الخارج، وحنين الغسالة يتردد في سمعه كأنين مفروم: فرمة ليل وفرمة نهار.

ويسأل الزوج نفسه بعد هذا الحلم المتخيل: ألا تقول الغسالة الآن: (لَيْلْ/ نهارْ)؟ أَصْـغِ.

أصغى وإذ بالغسالة تقول: (لَيْلْ/ نْهار)، ثم تبدَّل فتقول: (كومِكْ/ كوم) وصارت تعرج: مرة تقول ذا ومرة تقول ذاك. فقرر الزوج أن يؤهل نفسه أكثر لسماع الصوت الذي تسمعه زوجته. ففعل ما يفعله كاتب يذوق السم كي يجيد تصوير ما عانته بطلة روايته، وتسمم وعرف بعض معاني السم.

بعد ما استعد الاستعداد اللازم ألقى بسمعه إلى حنين الغسالة فصارت تقول بلا مواربة: ليل/ نْهار، ليل/ نهار... ورأى فمه كالقالب مهيَّأً لها.

إلا أنها غلطت مرة وقالت: هَمِلْ/ كار. وكان هو قد نسي هملقار. وأحس أن عمله الإرادي الاحتيالي قد خُـرِق رغماً عنه. فشاء أن يفهم: كيف قام ثانية اسم هملقار من بعد كذا (كومِكْ/ كوم) وكذا (ليل/ نهار)؟

رأى أن (لَيْلْ) تشتمل على الياء الساكنة، وأن الانتقال من هذه الياء إلى اللام الساكنة لا يتم إلا باختلاجة كسرةٍ يسيرة مهموسة. فيكون آخر ليل مثل (ـِ لْ) = (كسيرة فلام). وهذه من ضمن الكسر فاللام في (هَمِلْ). ورأى أن (ا ر) في (نهار) وفي (كار) جمعت اللفظين، كما جمعت (ـِ لْ) لفظي (ليل) و(هَمِلْ). ورأى أنَّ جامعاً ثالثاً يصل (ليل/ نْهار) بـ(هَمِلْ/ كار) هو توافق كل منهما مع مزدوج التنفس: شهيق/ زفير. وجامع النغم قوي كذلك: لْ/نْ. والكاف المنفردة بجرسها في (كار) تجد مبرراً لوجودها في الصوت الحسي الصادر عن الغسالة، لأن اصطكاك قلب الغسالة عند نهاية دورتَيْهِ يجرس بمثل (كْ).

ومع كل هذه القواسم المشتركة لا يغيب عن البال السؤال عن العامل النفسي المساعد على تجميع هذه العناصر المبعثرة. إذ أنه لو قدمت هذه العناصر إلى هملقار نفسه لما جمعها في قطعتين هما: (هَمِلْ/ كار).

إنَّ انشغاله بكتاب «الفوضوية» الذي طالعه، ومايزال حاضراً، مكنه من رؤية ما يأهل حقول ذلك الانشغال. فمؤلف الكتاب ليبي وقد وقع اسمه في ختام الكتاب، وذكر اسم (بني غازي). وهنا تولد في ذهن الباحث اسم (بَرْقة)، وشب اسم هملقار أمام اسم (برقة)، وكان (هَمِلقار برقة). على أن هملقار هذا فينيقي قرطاجني وليس ليبيا، و (برقة) مثل لقب له، وتعني العاصفة (= orage، في أعلام Robert). وقد يكون الغالب في ذهن الباحث أن (برقة) هي المنطقة الليبية وأن هملقار منسوب إليها لا إلى العاصفة ولا إلى قرطاجة.

12 ـ الاختلاج اللساني فاعل وليس رد فعل

12 ـ وبعد هذا العناء المعرفي، وعناء آخر، سأل زوجته: ماذا يكون كلام الغسالة، في رأيك، لو كان وزن حنينها غير منسجم مع وزن قولك (لَيْلْ/ نْهارْ)؟

فأجابته بلا تردد وهي كثيراً ما تغلبه بفطنتها: قهرك وقهر أولادك فيه من جميع الأوزان!

ضحكت وضحك معها وعينه الباطنية تستكشف منابع هذا الجواب.

رأى موج الاختلاج اللساني (المتولد عن صوت مسموع أو عن تماس لساني عضوي) يتغلغل في أعصاب المركز اللغوي حيث يلامس الشاغل النفسي. فيجاري الشاغلُ النفسي الموجَ الاختلاجيَّ اللسانيَّ ويعدِّل في تقاسيم وزنه حتى يتوافر انسجام بين ثلاثة: لحن ونغم المؤثر السمعي الجاري في المسمع على شكل صوت، والاختلاج اللساني المتولد من تأثير ذينك اللحن والنغم، والعبارة الصامتة التي شقت الحجب وقفزت من المركز اللغوي الدماغي وانسكبت في المجرى الاختلاجي اللساني حاكمة السمع واللسان معاً: هَمِلْ/ كارْ

هذه العبارة تفوه بجانب من الشاغل النفسي المستسر. هي المفتاح إلى الشاغل النفسي. وقد انصبت في اختلاجة اللسان لما بينهما من قواسم مشتركة في حركة الوزن. والرجوع بها إلى مصدرها ومنطلقها يكشف أنها سمة من أسماء العناصر المكونة للشاغل النفسي. هي علامة بعض عناصر الشاغل النفسي؟ كيف انفصلت عنه وجاءت من دونه تختلج في اللسان؟

نمثل اللسان بإبرة حرة من طرفها وموصولة بأعصاب المركز اللغوي الدماغي من جهة

أحد الأصول وبأعصاب السمع من جهة أصل ثانٍ وبالأعضاء المجاورة عن طريق الروابط العضوية.

إذا اشتغلت أعصاب المركز اللغوي الدماغي على نحو كان للسان اختلاج موافق. وإذا سمعنا صوتاً له جروس ومجرى كان لذلك اختلاج لساني موافق. وإذا أثرت الأعضاء في اللسان تأثيراً محدوداً ومكرراً يكون في اللسان استجابات مكررة. أما إذا حركنا طرف الإبرة بحركة مماثلة للتي جاءتها من المركز اللغوي فإن المركز يستجيب ويكون منه رد ندركه في اللسان مماثلاً لما كان منه في المرة الأولى. بتعبير آخر، إذا اختلج اللسان بتأثير نفسي اختلاجةً مثل (كومِكْ/ كوم) ثم أجرينا في اللسان اختلاجاً متسلسلاً عن طريق السمع يشبه في الوزن والجروس والترتيب (كومكوم)، مع توافر الشروط العضوية والنفسية المشابهة، فإن المركز الدماغي اللغوي سيردّ بوحدة لغوية مؤاتية كما رد بـ Comecon عندما كان هذا اللفظ مؤاتياً للصوت المسموع واختلاجه اللساني.

فقد نبتَ في المركز اللغوي من ألفاظ الشاغل النفسي ما كان له نَسب في الاختلاج اللساني، فانطلق وانسكب في اختلاج اللسان حيث كونا مزاجاً لفظياً هو ما ندعوه الكلام الاختلاجي.

دور الاختلاج اللساني ليس سلبياً. فقد بنى السمعُ الأصوات بأثر من الخارج ولم ينعكس ذلك الصوت في اللسان وفي أعضاء الجهاز النطقي الأُخَر انعكاساً لا من حيث النغم ولا من حيث اللحن الجاري (= الوزن) ولا من حيث التقسيم؛ وعندما انطلقت إليه رفوف الحروف من المركز اللغوي كان ذلك بضغط اختلاجي من اللسان. وعندما استقبلها استقبلها مرتبة ترتيبها المعجمي المحفوظ إلا أنه بالتواطؤ مع جهاز التنفس غيّر في تقسيم وحدتها، بل زاد بالتفريع من جروسها كما حرّف بعض تلك الجروس، وهو أهلٌ لتغيير في الترتيب والاختزال. وكان الاختلاج اللساني فوق كل ذلك كاشفاً لحقيقة الشاغل النفسي البارد بل محركاً له ومثيراً للتأمل فيه واستخراجه من الغرفة السرية، وكان محدِّداً لمعنى ذاته الراهنة من حيث وجوده المستقل ووظائفه الخاصة.

ورد خبر في «عيون الأخبار» لابن قتيبة هو أن أحمد بن صالح بن أبي فَنَن قال:

ضَميـرُ قلبٍ بقَـرْعٍ كفٍّ أَبْـداه بَـمّـان نـاطـقـانِ

فما في القلب من المضمرات حَرَّك الكف، فقرعت الكف الوترين من العود، فنبضت الأوتار وكانت الأصوات الموسيقية. ولكنها كانت ناطقة نطقاً جلا ضمير القلب وأبداه ليعود فعله إلى الضمير.

لم يقل الشاعر كيف يتكون ضمير القلب، لأن العلم بذلك هو العلم بكيفية تكون الحياة، وهذا المبحث لم يصل بعد فيه الإنسان إلى أكثر من تخمينات فلسفية. فهو كون خفيّ مسدودٌ بابه بالظاهر على العالِم والشاعر.

لذا يكون البدء في البحث لا عن كيفية تكون الحياة بل عن كيفية مجرى الحياة في الأحياء، ولولا إدراكنا لبعض ما تبديه النفس لذاتها من بعض الانفعالات لكان الإنسان كالنبات يحيا ببعد واحد، أي أنه يحيا ولا يدرك أنه يحيا ولا كيف يحيا، إلا إذا أثبت العلم أن للنبات وعياً ووعياً لهذا الوعي.

من هذا المنطلق يكون لهذا البحث هدفان: الأول توسيع مجالات الإدراك وتعميقها، والثاني كيفيات هذا الإدراك وكيفيات حصول الانفعالات التي يدركها بما في ذلك كيفيات تفاعلها فيما بينها، وفي ما بينها وبين قوى العقل من انتباه وبال ووعي وإدراك وحساب الخبرات واكتناز العقل لها واستعمالها في عملياته ونشاطاته المستمرة.

وللدخول في هذه المباحث أبواب بقدر ما للنفس من أبواب على القوى العارفة. وأحد هذه الأبواب هو الكلام الناطق المصوت، والكلام الصامت المختلج اختلاجاً غير مصوت؛ سواء أكان مدار هذا الاختلاج أعضاء النطق أم السمع أم الذهن، وسواء أكانت مصادره حسية أم نفسية، أيَّ حس كان وأيَّ مُشْتَغل نفسي كان.

والوقائع الدقيقة في المجال اللغوي النفسي الاختلاجي والمصوت هي عماد ما قد يتوصل إليه هذا البحث من نتائج ضرورية.

وقد جرى الحفاظ على صدق هذه الوقائع وصدق دقائقها برغم ما فيها من إحراج نظراً إلى أنها تكشف دخيلة النفس والبيت وذلكم حرصاً على فوائد الصدق المتكاثرة التي يظهر بعضها من حيث ينتظر ويظهر بعضها الآخر من حيث لا ينتظر، ودفعاً لمضار التحريف التي قد تغش الآمنين وتشتط بأحكام المتنبهين عن مظانٍ الصواب.

1 ـ مناولة الاختلاج اللساني

كان طفلنا علي محمود قد بلغ اليوم الخامس والعشرين من شهره العاشر. وكنت أحمله على زندي الأيسر وهو يتلهى ببلحة حمراء من نخلة أبي عماد، جارنا. فاليوم قطفوا نخلتهم وأهـدوا إلينا قدر كيلوغرام ونصف. لا أعرف كيف نحّى الطفل البلحة عن فمه وصار يردد؛ أَبَّ أَبَّ أَبَّ.

لاحظت أمه أن بعض حركات فمه للفظ (أبَّ) تأتي بلا صوت. فتذكرت كيف كان أخوه محمد يفتح فمه ويغلقه فترى أنه يقول (أبَّ) ولكن بلا صوت، إلا صوت الهواء. كأن المشاهد يرى المشهد في فيلم صامت. وقالت الأم عن الطفل الأصغر: بيألِّد خَيُّو مْحَمَّدْ» (= يقلِّد أخاه محمدا). فقلت لها؛ وأين كان علي محمود السنة الماضية لما كان محمد يعمل مثلما يعمل أخوه ابن السنة؟! وحوّلتُ الكلام إلى الصبي وقلت له: «إلّها أَنِي بْأُوْلْ (أبَّ) وْما بْأَلِّدْ حَدَا» (= قل لها أنا أقول (أبّ) ولا أقلد أحداً). وضممته إلى صدري ثم أرحته؛ فابتهجت أمه وصارت تقلده بلفظ (أبَّ) دون صوت. وحين رآها فعل مثلها؛ يفتح فكيه ويطبقهما مرتين ثلاثاً بلا صوت، ثم يتولد صوته في سياق حركته: (أبَّ أبَّ)، ثم يختفي ثم يعود. وجمهور البيت يبدي تلذذاً وابتساماً بتعابير الوجوه والأيدي وكلام التحبب.

إن هذه هي المرة الأولى التي يحاول فيها علي محمود أن لا يخطىء الصوت وهو يحاول قول (أبّ)؛ ولكن أخته الكبيرة سوسن نقلت عنه قبل شهرين وثلاثة عشر يوماً: لو أنك ترى، فتح فمه وغَلَقه ثلاث مَرّات حتى يقول (أبَّ) وما طلع الصوت.

ونفهم من ذلك أن عقل هذا الطفل مهتم، ومنذ الشهور الأولى من عمره، بتشغيل أعضاء النطق الشغل الذي يوصله، عن طريق الخطأ والصواب، إلى الملاءمة بين حركات تلك الأعضاء كي يوفّق إلى النطق بلفظ (أبَّ) نطقاً سوياً لا يختلف عما دأب الأهل على إسماعه إياه.

وليس هذا بالأمر السهل. فعليه أن يحرك الفكين كما يرى أهله يحركونهما في لفظ (أب). وبعد أن يحركهما كذلك فإنه لا يجد جدوى. فيبحث عقله عن أسباب التقصير.

فيهتدي إلى دور الرئتين في دفع الهواء اللازم للتصويت؛ ويظل التصويت هامساً ما دام نشاط الأوتار الصوتية معطلاً. فيهتدي إلى طريقة للتحكم بتشغيل الأوتار، وبعد أن يهتدي إلى كل من حركات الفكين والشفتين والرئتين والأوتار الصوتية يصير لزاماً عليه أن يؤدي تلك الحركات مسلسلة ومتصلة وعلى درجات من القوة بحيث يتوافق صوته مع أصوات الوسط الاجتماعي الأهلي حين يقول أفراده (أبٌ)؛ وبوصوله إلى هذا المستوى من الاتفاق الصوتي يكون قد وصل إلى إخضاع أعضائه المشاركة في اللفظ إلى نظام حركات أعضاء النطق الذي يكون لأهله في لفظهم (أبٌ). هذه المؤتلفة المكونة من جملةٍ من حركاتٍ نطقية بدأت[1] وتطورت والعقل يرعاها.

فالنطق منه على غرار النطق الأم يعني أن جزءاً من نشاط أعضاء النطق قد تأمم. ساهم في تأميمه الأم والأهل والوسط الاجتماعي كما ساهم فيه الطفل باستجاباته المجودة وصولاً إلى السوية التي ينال عليها الشهادة الاجتماعية التي تشوقه، وفيها الضم وأشكال التحبب والمكافآت. فيفهم الطفل من ذلك أنه قام بإنجاز كبير ما دام الأهل يقدرونه كل هذا التقدير.

إن تعلم الطفل للكلمة الأهلية لا يجعله أهلياً اجتماعياً بصوت الكلمة الاجتماعي فقط، بل ينظمه في السلك الاجتماعي بانتظام حركات أعضاء النطق لديه في نظام حركات أعضاء النطق الذي يتحد فيه جميع أفراد المجتمع.

وانتظام الحركات النطقية لدى الطفل في السلك الاجتماعي الواحد الحركة، يأتي بعد توحده مع أفراد الجماعة في رؤية الصور المشتركة للـ (أب). ورؤية الأب المتعددة في وحدتها تعني اختلاجات للعين موحّدة في تعددها. وكذلك هو صوت (أب). إنه وحدة صوتية تتحد فيها أشكال التصويت المتعددة بلفظ (أب). ووراء الصوت الواحد على تعدد صوره اختلاجاتٌ سمعية تحدث في أعضاء جهاز السمع والعقلُ يوحد بينها لأنها متماثلة، أو أن أفعالها المتماثلة تصيب أعصاب الدماغ التي تدركها بفعلٍ هو واحد الصورة.

وكما أن صوت (أب) مؤلف من جملة جروس متسلسلة ومنتظمة في أبعاد محدودة ومدد محدودة كذلك هي جملة اختلاجات أعضاء السمع، عند سماع لفظ (أب)، متسلسلة ومحدودة الأبعاد والمدد. وجملة اختلاجات العينين إثر التقائهما جملة الأمواج الضوئية المنعكسة عن الأب هي جملة من الحركات العصبية ـ العضوية البصرية المحدودة في المدة والأبعاد.

وكل جملة من جمل الصوت والصورة البصرية واختلاج العينين والأذنين واختلاج أعضاء

(1) المفكرة البيضاء، ص 75.

النطق هي وحدة من وحدات الإدراك العقلي. وهي مؤلفة من دقائق العناصر الصوتية واللونية والحركية في هذا العضو وذاك.

ومتى وقع الإدراك على أحد هذه العناصر الدقيقة الداخلة في تأليف الجملة الصوتية أو الجملة البصرية أو الجملة الاختلاجية للأذن أو للعين تتولد في الوعي الجملة كلها وقد تتولد الجملة الشاملة لجميع هذه الجمل.

ولهذا تفهم أحياناً ما يقوله صاحبك في نفسه من اختلاجة شفتية. ولهذا يفهم الأهل من حركة فكي الطفل أنه يحاول أن يقول (أب). ولمثله تحلم بشخص إثر لمحة من شخص آخر لا ترى منها صورة بطل الحلم في اليقظة. ولمثله أيضاً نحب من اللمحة الأولى ونكره من اللمحة الأولى.

إن الإحساسات التي يشارك فيها الطفل عامة الناس هي من ضرورات الوحدة الجسمية للإنسان. وبهذه وتلك يحوز الفرد المولود من رحم امرأة على الهوية الإنسانية. أما هويته الاجتماعية فإنها تبنى بناءً. يبنيها له الأهل بتعليمه السلوكية الخاصة بالوسط الاجتماعي. وفي رأس هذه السلوكية الحركات المنسجمة مع حركات أفراد الأمة. وأبرز ما في هذه الحركات حركات جهاز النطق المؤدية بالطفل إلى بلوغ الكفاءة اللسانية اللغوية التي يتحلى بها عامة أفراد المجتمع ممن أدركوا سن البلوغ اللغوي.

وكما تتوالى النجوم الملونة فوق جباه الأحداث الخارجين من صفوف الروضات المدرسية تتوالى شهادات الأهل على الرضيع والفطيم كلما خطا الواحد منهما خطوة في طريق اكتساب اللسان الأهلي.

إن رقصة الدماغ المتكررة بتكرر اختلاجات جهاز النطق في عملية الكلام الأهلي ورقصته بسماع الأصوات الكلامية الأهلية لا تقتصر فقط على الرأس بأعضائه وأعصابه بل تنداح بصورة متواصلة في أنحاء الجسم خالقةً اختلاجات مرة وحلوة ومشاعر وإرادات وأفكاراً وأخيلة وحدوساً لا تنقطع لا في اليقظة ولا في النوم.

هذه الرقصة الدماغية الحاصلة بالكلام الذي يسمعه أو يتفوه به أفراد المجتمع توحدهم بقدر ما هي واحدة في ذاتها وفي توابعها لا على الصعيد النفسي والخلقي فقط بل وعلى صعيد الجسد وحركاته. لا تستغرب إذا ولد ولد لا يشبه أبويه ثم صار يشبههما بعد ما كبر في النفس والشكل والسلوك.

فبالكلام يستوي الفرد وتراً بين ملايين الأوتار التي تنبض بما يعتري خضم المجتمع من

تموجات. لذا كانت مناولة الكلام للطفل طقساً يناوله به المجتمع مفاتيح جميع الطقوس.

2 ـ الذهني يلتهم الحسي

الكليات الذهنية نوعان. نوع يبتنيه العقل من وحدات الإدراك الحسي التي تفد إليه عن طريق الحواس ككليات حسية متميزة عما عداها وبارزة في محيطها. فصورة الأم الحسية هي وحدة إدراك حسي بصرية متميزة. وطعم الحليب وحدة إدراك حسي ذوقية متميزة، وملمس صدر الأم وحدة حسية لمسية متميزة، ورائحة القهوة وحدة إدراك شمّي متميزة، وكلمة (ماما) التي يسمعها الصغير والكبير هي أيضاً وحدة إدراك حسي سمعية متميزة بين الأصوات وبين الأحاسيس الأخرى غير الصوتية. والنوع الثاني من الكليات الذهنية هو ما يبتنيه العقل أو ما تبتنيه النفس من حاصل التجارب العقلية والنفسية التي عرفها عقل الشخص وعرفتها نفسه سواء أكان صاحبها قد وعى مدارها في عقله وفي نفسه أم لم يعه. فإذا وعى الشخص ما يدور في ذهنه وفي نفسه فإنه يكون قد زاد على خبراته العقلية والنفسية خبرة وعيه لها. ومن الكليات العقلية أحكام العقل. وواحدة منها هي وعينا لعمل عقلنا؛ فإذا كنت عاطلاً من العمل يستعرض عقلي كفاءاتي ويستعرض مجالات العمل في المجتمع والطبيعة، ويربط إحدى كفاءاتي بأحد الأعمال، ولا أراني إلا ساعياً في الواقع لأحقق ما حققه عقلي من تصور. والأمثلة المتعلقة بالوحدات النفسية كثيرة. فالعواطف والرغبات والإرادات والأخيلة الحلمية والتأملية تبرز للوعي، وفي تأثيرها في أهلها، عاطفة عاطفة وخيالاً خيالاً . . . أي كلّاً كلّاً ذا استقلال.

هذه الكليات النفسية القويةُ الكُلِّيةِ، الشديدةُ الحساسية لوحدتها وكليتها، ليست في بساطة الجزء الذي لا يمكن تجزيئه ولا تحويله. بل إنها أمام العقل ذات مُدّد في تكونها وفي زوالها. ومهما تدنت مدتها، كتدنيها إلى حد الشك في كوننا نلمحها أو لا نلمحها، فإنها تظل من أبعاضٍ حتى تغدو بكلها بعضاً من مركَّب يشتمل عليها وعلى سواها. فإنْ تنظر إلى أقاصي السماء ويتعلق نظرك بنبضة ضوء تكون وتختفي تشك: أهي من عينيك؟ أم هي من السماء؟ فإن هذا الكائن الملتبس في حقيقته إنما أسس لذاته كلية تتألف من هذا الإحساس وهذا الظن. فهي كلية مركبة. ويمكن لها أن توجد في النفس كلما ومض كائن نضيع في حقيقته: أهو حسي؟ أم نفسي؟

الكليات النفسية هي إذاً كليات مركبة، بل تركيبية. فكلُّ كلٍّ يتألف من عناصر بفعل الجذب والطرد العاملين في الكون تأليفاً وتحليلاً. فأنت تقول للطفل (ابن سنة وشهرين وعشرة أيام): مَ. فيقول: ماما. وتقول له: كَ. فيقول: كاكا. وتقول له؛ بَ. فيقول: بابا. أنت تلفظ

(مَ) و (كَ) و (بَ) بحركات معتدلة لا هي مفخَّمة ولا ممالة، وهويلفظ (ماما) و (كاكا(و (بابا) بألفات مفخمة. وأنت تعتني وتتروى وتلفت نظر الطفل إلى التقيد بلفظ حرف (مَ) لا (ماما) و (بَ) لا (بابا(و (كَ) لا (كاكا)، فتراه مع ذلك يصيب مرة ويخطىء مراراً.

ما السبب في خطئه وعدم تقيده بما تطلبه منه؟

لا نشك في أن الولد يسمع (مَ) وليس (ماما). لكن هذه الـ (مَ) ما إن يدركها عقله حتى يتولد بإدراكه لها الكلُّ الذي سبق لعقله أن ابتناه من سماعه لفظ (ماما) بصورة متكررة. فقد اتحد صوت (مَ) الذي سمعه في الواقع الحسي بالوحدة الذهنية الكلية التي سبق لدماغه أن أَلِفَ الاختلاج بها. وما إن اختلجت أعصاب المركز اللغوي الدماغي بـ (مَ) عن طريق السمع ثم بـ (ماما) عن طريق التولد المتجدد للبنية الذهنية الكلية للفظ (ماما) بأثر من (مَ) الاختلاج حتى اندرج في أعصاب الجهاز النطقي اختلاجُ لفظِ (ماما) بكليته. وكان هذا الاختلاج مجدياً، أي هو من القوة بحيث ولَّد الطاقة المجدية لصوت (ماما) في سمع الطفل نفسه وفي سمع من جاوره ممن أمكن لأسماعهم أن تتأثر بتلك الطاقة تأثر سمعه هو بها.

لم يملك الطفل أن يقصر عقله أول الأمر على الفصل بين ما يحس به الآن أي (مَ) وبين ما تولَّد في دماغه تلقاء سماعه (مَ) أي (ماما). فأفلت من إدراكه ما سمعه وطغى على هذا الإدراك إدراكُ ما كان في الذهن بفعل الإحساس السمعي. سها الطفل عن الفرق ما بين السمعي وما بين الذهني الذي نتج عنه، فاستوعب الذهنيُّ السمعيَّ وملأ حضورُهُ الوعي، فأمر العقل بإجرائه في اللسان عن ثقة، حتى كان الإرشاد والتنبيه اللذان أخذا يؤسسان في عقل الطفل لكلٍّ جديد هو (مَ) المستقل عن الكل الذي يعهده وهو (ماما). ومع ممارسة العقل للتفريق بين الكلين لا يعود يخلطهما. وإذا خلط بينهما يدرك الخلط فيستدرك ويفرق.

وإدراك الطفل لـ (ماما) وهو يحس (مَ) لا يختلف عن إدراكك وهماً شخصاً غائباً بلمحة من شخص مرَّ مسرعاً في السوق ولا هو يختلف عن قولك بتعجب: «شمس!» وأنت ترى بنتاً تبهر نظرك. وقد تستثيرك فجأةً امرأةٌ لا تعرفها استثارةً عهدتها في امرأة عرفتها وغابت عن بالك. من هي؟ من؟ ماذا بهذه من تلك؟ ماذا؟ شعرها؟ لا. قدها؟ لا. طلعتها؟ لا. ماذا إذاً؟ إنه صوتها. وتُغرى، فوق ذلك، بالتجرؤ عليها بمثل ما عرفت من تجرؤ على أختها في الصوت. فقد صارت المرأة كلها في نظرك امرأة ذهنك. وقد ترى هي تصرفاتك من بليد التصرفات، وليس ما كانت المرأة الذهنية تستثار به؛ فترجع أنت مدحوراً وتنكبُّ على حساب جديد.

فالبنية الذهنية للمرأة، أي خبرتك النفسية التي تجددت بأثر من صوت المرأة التي ترى، استوعبت بالإجمال الخبرة الحسية المباشرة. هكذا يلتهم الشاغل النفسي الماضي الحاضرَ

وهكذا التهمت (ماما) الطفلِ الذهنيةُ قولنا له: (مَ).

يحدث مثل هذا في اليقظة وطرفٌ من الوعي يعي، ولو بضعف، أن هذه التي أذهلتك، وشغلتك على غرار ما فعلت المرأة الحاضرة في الذهن الغائبةُ عن الحواس، ليست هي تلك. فقد كان من المناسب أن تنظر إلى المرأة الحاضرة لا باعتبارها تقمصت المرأة الغائبة بل باعتبارها بذاتها، فتقبل عليها بما يناسبها هي لا بما يناسب امرأة رأسك. ولا مانع يمنعك من الإفادة من خبرات سلفت مما تراه صالحاً ومجدياً في موضوع جديد. إلا أن الذي حصل هو أن الذهني صادر الحسي؛ ولم تصلح المجاذيف التي صلحت قديماً في تحريك زورق مضى، لم تصلح لتحريك الزورق الحي الذي بين يديك. لم تعتبر بقولهم: لكلِّ حادثٍ حديث.

3 ـ الذهني يُجلي الذهني ويرمز بحركات الأعضاء

كان الفكر يملي واليد تكتب. تجول عبارة الفكرة في الذهن والفمُ مغلق، واللسان إن هو اختلج فبصمت. كتبت اليد مما دار في الفكر: «المقصود هو أن الدِّرْبَكّة النَّوَريّة رُبط بها حلقتان من أُنْبُوْط مطّاطي». ولاحظتُ أنه حصل تصحيف. فبدلاً من (أُنْبُوْب) كتبت (أُنْبُوْط).

كيف حدث هذا التصحيف؟

إن اللفظ الذي يدور في الفكر المملي يختلج به اللسان الصامت ما إن يدور أو يتكون. وحيث يختلج اللسان بصمت بالكلام الذي دار في الذهن يكون الذهن قد خلا مما دار فيه هو وانشغل بإدراك ما يدور في اللسان من اختلاج كلامي حتى يطرده غيره. إذ أن الذهن لا يدرك في الغالب ما تكوَّن فيه من كلام إلا في صورة سلسلة اختلاجية هي عبارة عن تتالي حركات دقيقة تجري في اللسان ومخارج حروف الكلام. وفي حال الكتابة تتكون لسلسلة الاختلاج الكلامي اللساني صورة خيالية خطية تنطبع على شاشة المخيلة ويدرك الدماغ تباعاً وحداتها الدنيا والوسطى والكبرى من حرف ومقطع ومفردة، يدركها بوساطة النظر الداخلي على شكل سلاسل من حروف ضوئية مائية. وكل وحدة يأمر الدماغ بكتابتها تنشط اليد إلى محاكاة صورتها فتتحرك على الورق وعلى الألواح وفقاً لخطوط هذه الصورة الخيالية.

وحين كانت اليد تخط لفظ (أنبوب) خطَّت من اللفظ المقطعين الأولين أي (أُنْبُو)، وهي لا تزال ماضية كيما تتم الوحدة إذ دار في الذهن لفظُ «مطاطي» وعلقت العين الخيالية بصورة الطاء المتكررة في (مطاطي) فرسمت اليد الطاء المقطوعة في مكان الـ(ب) من (أنبوب).

وهذا النقل عن اللوح الداخلي الخيالي لا يختلف كثيراً عن النقل عن اللوح المشاهد بالعين الخارجية، حيث يمكن أن يعلق بالعين حرف من لفظ لاحق سبق النظر إليه فتدونه اليد

في لفظ تجري فيه مكان حرف زالت صورته ليختطف موضعها صورة الحرف المتعلقة بالعين للتو. لنفترض أنك تشاهد مشاهدة حسية عبارة «النقل الداخلي والخارجي» وأنك شرعت في نسخها فكتبت بدلاً من لفظ (النقل) لفظ (النخل). فإنما يكون ذلك قد تأتى لك نتيجة لوقوع نظرك على الخاء من صورتي اللفظين (الداخلي) و(الخارجي) قبل أن تخط القاف من لفظ (النقل). فقد اقتحمت صورة الخاء الحسية المباشرة موقع القاف وأزالت القاف واستوطنت مكانها من لفظ (النقل) فاستوى لفظاً آخر هو (النخل). فهذا من باب طرد الصورة الحسية للصورة الخيالية. وإننا لنجد أمثلة تطرد فيها الصورة الذهنيةُ صورة حِسِّية وتستوطن مكانها.

أما في مثل أُنبوب/ أُنبوط فإن الذي جرى هو طرد عنصر من صورة خيالية لاحقة العنصرَ في صورة خيالية سابقة واستيطانه مكانه، ليس فقط في الخيال والذهن واختلاج اللسان بل وفي خط اليد الواقعي المحسوس.

فاليد تحكي الحركات التي تقع عليها عين الإدراك في الصور الخيالية وتحكي أشكالها وأبعادها في ترسيمات مماثلة لها. وعندما أنيطت الريشةُ المحبَّرةُ باليد أمكن تقييد تلك الترسيمات على شكل خطوط وبقع ذات ألوان في ألواح أو صحائف مختلفة المواد والأشكال والأقدار. ومن ثَمَّ تطور التلوين. وتحولت الترسيمة إلى إيقونة بلغت من جودة الصنعة حدّ السجود لها وعبادتها. وقد تكون الإيقونة من اليقين، على الرغم من القول بأنها يونانية يقال: قحطان ويونان شقيقان.

هذا مما يفعله الخيال والكلام النفسي (الاختلاج اللساني بحركة الدماغ الكلامية) بأهليهما. إنهما لا ينطقان بكلام اللسان وكلام اليد فقط، بل ينطقان بما ناسبهما من أعضاء. فقد رأيت في أحد الشوارع شاباً أنيقاً ضخم الرأس والجثة يحدث شاباً آخر وهما يمشيان حديثاً حميماً. رأيته يهمز نحو صاحبه برأسه الضخم وبانفعال، فتهيبت ومالت بي قدماي عنهما بلا إرادة. لكنني سمعته يقول لصاحبه: «ونقر رفيقه ودمّاه». فتأكدت أنه يحدثه عن عصفورين في قفص. ضحكت حين رأيت هذا الرأس الكبير الكبير يحكي حركة من رأس عصفور تدور صورتها في خياله. ولو كانت صورة جناحي العصفور هي المهيمنة لحكاها الشاب بجناحيه.

فقد هيأت لي حركات الشاب وحديثه إلى صاحبه صورة عصفور ينقر صاحبه في القفص. وهذه الصورة ولدت في ذاكرتي صورة لعصفور صغير رمادي ندعوه «أم نوح» وهو كسّار اللوز نسبة إلى صوته الذي يذكر بأصوات تكسير اللوز والجوز. أرى «أم نوح»، في بطمة الحاج علي ظاهر أمام شباكنا الشمالي، تتنقل خائفة من غصن إلى غصن وتحرك رأسها خطفاً إلى اليمين والشمال وتنظر ما فوقها وما تحتها وفي كل اتجاه، فلا أشعر إلا وأنا أميل برأسي كيفما تميل، ويكاد جسمي أن يقفز حين تقفز، تختلج فيَّ حركتها ولا أطير، كما يختلج اللسان

بالكلمة ولا يقولها.

وهذا يعني أني أكتب مشاغل فكري وخيالي ومشاعري بجسمي كله. فقبل أن أقول: «أدارت رأسها ومنقارها وعينيها إلى الشرق»، أكون قد أحسست أن رأسي مثّل حركتها اختلاجاً. وقبل أن أقول: «بسطت جناحيها ونفضت عن ريشها برجفة من جسمها رذاذ الغطغيطة»، تكون قد جرت في بدني رجفة مماثلة.

وسؤال الجاحظ المتهكم: «أإذا نَبَحَكَ كلب تنبحه؟ أو رَمَحَكَ حمار ترمَحه؟» يدل بوضوح على أن خياله قد تمثل صورة رجل ينبح كلباً نَبَحَهُ وصورة رجل يَرْمَحُ حماراً رَمَحَه وقد يهم المنبوح والمرموح بالرد فيمنعهما الأدب.

وبعض حركات الأعضاء تبقى مقصورة على وظائفها الضرورية؛ أما البعض الآخر فقد تحول إلى إشارات دالة، هي من رموز اللغة الحركية. فأنت تحيي بانحناءة من الرأس كما ترفض عرضاً برفعه. وقد تضع رأسك في وضع المستعد للضرب به. وقد تمد رجلك في اتجاه شخص احتقاراً كما تنزل ساقاً عن ساق احتراماً لجُلاّسك. وهناك إشارات رمزية بالقفا. فقد تدل المرأة على إحدى عجيزتيها استخفافاً بتهديد رجل. وقد ينفخ المرء صدره إعجاباً. وخفقة الكتف والكتفين رمزان، واحد يعلن به الولد عن رفض المراضاة والثاني يعلن به الكبار عن لامبالاتهم بالمسؤولية عن تسرعهم.

الجسد كله يتكلم؛ ولكن اليد هي اللسان الثاني وذلك لحريتها الحركية وخفتها اللتين لا يدانيها فيهما عضو آخر ولا يفوقها فيهما سوى اللسان. وهي، لشدة اعتماد الحياة عليها، مركز إشعار للعقل ليس إبان مزاولتها لأعمالها فقط بل أيضاً وقت لزوم قيامها بعمل فات العقل التنبه إليه:

السادسة والربع مساء اليوم نزع بجامته ولبس بنطلون الجينز الأزرق على قميص الكُم المخطط طولياً: خط فولاذي بعرض خط القلم، يليه خط أبيض مماثل، وبعدهما خط أصفر بصفرة الليمون الحامض يحاذيه خيطان بُنِّيان يفصلانه عن خط أبيض بعرضه (٤ ملم). هذه هي وحدة تخطيط القميص المتكررة في القماش. معقول؟ معقول. وضع في معصمه ساعته: سيتيزن، عقارب ونقاط بدل الأرقام على مينا أسود لمعته نحاسي محروق؛ وكعب صباطه الانكليزي الأشقر، وحمل مسبحته السوداء الطويلة وفيها الشهود والمئذنة. معقول؟ معقول. وخطا نحو الباب يريد الخروج. شيء في يده يشد خطاه إلى الوراء. ألقى بيديه على جيب الصدر وجيوب البنطلون وتفكر، ثم هز رأسه وتمتم: لم أنس شيئاً. خرج من البيت وأقفل الباب ومشى. في يده اختلاج يعلن نقصاً ما. توقف وفكّر وقال ليده: ماذا بعد؟ كتاب؟

محفظة؟ . . . لم يطمئن اختلاجها. زهرة فل؟ حين قال (زهرة فل) عبقت بأنفه رائحة طاهرة وانفتح خياله على طريقه المحاط بأكوام القمامة. وفطن وهزّ رأسه واختلجت في لسانه هذه الكلمات: مضبوط، نسيت كيس النفايات.

عاد وأخذ بيده الكيس ومشى يفكر؛ كيف أمكن ليده أن تحمل هذا الإشعار/ الرسالة إلى عقله؟ وجمع باله كله في الوجيب الذي كان شائعاً في يده فلم يعثر له على أثر. ورأى أن الموقف الذي صار فيه هو عبارة عن وحدة توازن نفسي عضوي. جميع الأعضاء كانت منسجمة مع الموقف سوى يده. كأنها مزودة ببرنامج خفي ينذر بالخلل متى كان خلل. على اليد في هذا الموقف أن تحمل شيئاً. إن التهيؤ للخروج المُرْضي شحن اليد بالاستعداد المناسب. وما حقيقة هذا الاستعداد؟ إن أعصاب اليد تنبض في العضلات التي تتوتر استعداداً لرفع ثقل. إن في عضلات اليد قوة مقاومة ولكن الجسم الذي استعدت لرفعه غائب، فهي روافع ترفع في الفراغ. هذي هي حقيقة الرسالة التي كانت من القوة بحيث شغلت العقل ودعته للبحث عما يملأ الفراغ بالشيء المناسب.

ويفتح هذا الواقع باباً للنظر في حلم رأى فيه الحالم كفيه تأخذان بِرِدْفَيٍّ امرأة وتشدان بهما إليه. وصحا فوجد كفيه مفتوحتين بقدر ما يلزم لأخذ الردفين، وفيهما من الانشداد ما يناسب ذلك الثقل. إن الصورة الحلمية والتعامل النفسي معها يشكلان موقفاً يلزم أن يكون فيه لليدين دور، فاستجابت الكفان واستعدتا بالوضع والقوة اللازمين لهذا الدور.

أن تحمل رأسك ذلك يعني أن تواصل عضلات الرقبة نشاط الرفع، أن تواصل بذل القوة المناسبة عالياً لطرد ثقل يعادل ثقل الرأس. وذلك موج من الحركات الخلوية العضوية، ذلك موج اختلاج ناهض.

فلكل عضو اختلاجه الخاص به. ولكل مهمة يقوم بها العضو اختلاج يناسبها ويناسبه. ألا ترى إلى الرمل تحت مياه الشط، إثر بحر كبير، كيف تموَّج؟ أليست خطوط الأنامل وبصمة الإبهام من حاصل تلاطم الموج النفسي في صفحة الجسد؟

لقد أغراني زوج من الحساسين كانا يغردان في سوق العتيق وأمواجُ الموسيقى تمخر صفوف الألوان في أطراف الريش موجة إثر موجة؛ ثم يخطر الغَرَدُ اللاحقُ في آثار الغَرَدِ المتلاشي، حتى قر في النفس قرار لا تملك عليه برهاناً هو أن هذا الاختلاج المتراقص في أمواج غينية متتابعة، من أعماق النفس حتى المدارج الملونة، إنما هو الخالق المبدع لهذه الألوان المتحركة كيما تنشر سحرها في اختلاج الضوء في العينين ففي النفس.

هذا الكلام الذي يناغم ما بين الموسيقى والرسم له غاية أخرى هي التساؤل عن ألوان

الخيال في اليقظة والنوم: هل إن اختلاجاً معيناً لأعصاب المخيلة يفرز الألوان ويفرز الأشكال والأبعاد؟ لمَ لا، ما دام الكلام في مبدئه أمواجاً من الضغط على أعصاب السمع يليها تواصل عصبي كله طاقات وإفرازات وحركات؟

4 ـ كيف يدفع الخيالي بالحسي إلى الظل؟

هو ماشٍ يسلك رصيف الشارع الغربي متجهاً من مستديرة شاتيلا على طريق المطار إلى قصقص فالبربير. يلتفت شرقاً فلا يعترض نظره معترض سوى أوتاد عالية هي أعقاب حرج الصنوبر الذي دمرته الطائرات وأحرقته إبان الهجوم على بيروت. تعدت عيناه المشهد وظلت، وهي في شغل داخلي، تصعِّد النظر بلا مبالاة حتى التقتا جبل صنين.

الجبل تلفه دكنة الجو التي لا تشف عن غير أخاديد ثلجية خططت متونه تخطيط المتون من سرب من الخيول الوحشية.

وقع النظر على هذا الجبل الثلجي والاهتمام كله بالأهل داخل الشريط المحتل من الجنوب، إلا أن اللسان اختلج بصورة عفوية بكلمتين صامتتين هما: «جبل الشيخ».

هذا الاختلاج أدركه صاحبه صامتاً إذ أنه لم يفتح فمه ولم يسمع للسانه صوتاً. فالاختلاج اللساني هو كلام نطقي ينقصه الصوت وإنجاز عقد مخارج الحروف. وحين يكون الكلام مصوتاً يضؤل وعينا لاختلاجه اللساني لأن الصوت يستقطب الانتباه. فلغة التخاطب والمناجاة السائدة هي لغة يُنتبه فيها أولاً إلى الأصوات ونظام تركيبها، ولا ينتبه إلى نظام اختلاجات اللسان وهو نظام لغوي ناجز يتحرك في ظل الأصوات اللغوية التي تلد عنه. بل إن كلام اختلاجات اللسان يعد من كلام النفس في الدراسات الفلسفية وفي دراسات علم النفس، في حين أن دراسته الموضوعية ينبغي أن تكون دراسة نفسية ودراسة حركات أعضاء النطق في آنٍ واحد، إذ إن الاختلاج اللساني يبدأ في نقطة الانفعال العضوي المباشر بالشاغل النفسي الواعي وغير الواعي.

كيف رأت عينا ذلك المرء جبل صنين ولم يلفظ لسانُه اسمه، بل لفظ اسم جبل الشيخ؟ وجبل الشيخ هو في أقصى جنوب السلسلة الشرقية للجبال المطلة على سهل البقاع في الغرب، بينما يقع صنين في وسط السلسلة الغربية المطلة من الشرق على البقاع ومن الغرب على البحر. والمرء يعرف الجبلين من قريب ومن بعيد.

حين رأى بعينيه جبل صنين كان انتباهه منصباً على صور أهله في عَثْرُوْن. وقريتهم هذه

مواجهة لجبل الشيخ. لكن خياله المنشغل بأهله لم تكن دائرته تتسع لتشمل جبل الشيخ. ومع ذلك رأت عيناه جبل صنين بلا تركيز من وعي ولا تحقيق، وإثر مشاهدة الجبل دار في جهاز نطقه اختلاج كلامي صامت هو «جبل الشيخ».

إن الإطار الجغرافي الخيالي الذي تتحرك فيه صور أهله هو قريته في أقصى جبل عامل. وليس القرية بأبعاد أرضها المحيطة بها، بل البيوت والطرقات والوضع الاجتماعي للأهل والناس. ولم يظهر جبل الشيخ بين المعالم التي ظهرت في ذلك الإطار القروي الضيق؛ فكيف نشأ اسمه على صورة جبل صنين المتسللة إلى العقل اللاهي عنها بما يشغل البال؟

مشهد صنين المخطط بالثلج كما يبدو من بيروت والرؤية داكنة يؤدي في النظر اللامبالي صورة عامة لا تختلف، عند من لا يهتم بالفروق بين النظائر، عن صورة غامضة يطبعها جبل الشيخ في نظرٍ مشغول بهموم صاحبه الداخلية. عندما نلتقي الناس ولا يكون لنا غرض من تمييزهم فإننا لا نرى من أفرادهم سوى ملامح عامة؛ أبيض/ أسود، طويل/ قصير، أنثى/ ذكر، عار/ مكتس، طفل/ راشد، وهكذا هو حظنا من أجناس الحيوانات والأشياء في الأحوال المماثلة.

فمن ناحية موضوعية إذاً يمكن أن يقع الالتباس بين لمحة لا مبالية من جبل ولمحة مثلها من مثله.

ولكن هذا وحده لا يكفي لتفسير تسمية ملمح صنين المواجه للعين باسم جبل الشيخ الغائب عن العين خاصة وأن الأرض المكشوفة للعين والتي تشتمل على صنين تشكل وحدة نظر من حرج بيروت حيث هو المرء إلى صنين.

فهناك عامل آخر يساعد على وقوع الالتباس وهو أن المرء الناظر إلى أهله في خياله ضمن مكان يعهدهم فيه إنما يجد نفسه على علاقة بهم في حلمه ويجد صورته بين صورهم في محيطهم المتخيل. وعندها يكون تاركاً جسده ماشياً على رصيف قصقص في بيروت ويكون كل باله في شاغله النفسي الذي هو جزء منه، بحيث يستجيب لأي مفاجأة طارئة على أنها من طوارىء المكان الخيالي الذي هو فيه وليس من المكان الواقعي الذي تمشي فيه قدماه.

هذا العامل كان يمكن أن يفي بتفسير الالتباس لو كان جبل الشيخ من عناصر البنية الخيالية السائدة في ذهن المرء وقت ذاك. فلو كان أهله في محيط خياليٍّ بحريّ هل كان يلمح جبل صنين ويقول في نفسه: جبل الشيخ؟ فما دام يعرف من خبرات سابقة ذينك الجبلين فإنك يمكن أن ترجح إعطاءه المشهدَ اسمَهُ الحقيقي.

العامل الذي ما يزال مفقوداً وعليه المعوَّل هو التالي: حين يولد في الخيال صورة لأرض نعرفها وفيها صور لأناس نعرفهم فإن الظاهر من الأرض والناس يشكل مركز اهتمام النفس. ولكن هذا المركز الذي استقطب النظر الداخلي يشبه إلى حد بعيد أي مركز يستقطب النظر الحسي. فإن ما تقع عليه العين منه يستفز توابعه الظليلة ويشحن الأعصاب المختصة بها فيظهر منها كل عنصر يجد ما يساعده على الظهور، سواءاً كان المساعد من شذرات الأحاسيس أم من التجليات النفسية المحاذية.

وهذا ما يجعلنا على ثقة من أن البال أو الوعي المركز في الشاغل النفسي إنما يكون منفتحاً في الآن ذاته بدرجة أقل على استقبال الأحاسيس والحركات النفسية المناسبة لما هو فيه. عندما يتركز الانتباه في موضوع نفسي من شعور أو خيال أو فكر أو حلم أو ذاكرة أو إحساس فإن قنوات النشاطات النفسية لا تُسد دون استقبال ما يلزم منها لمعالجة هذا الموضوع. بل إنما يتعب الباحث النفسي ويجتهد كي يثبت أن المراكز الدماغية المختصة لا تكف عن الاستزادة من الخبرات الجارية والمبالاة منصبة على موضوع الاهتمام مما عداها.

وإنه لمن المبرر نظرياً أن تنفتح القنوات بين نقطة الاهتمام والمبالاة التابعة لأحد المراكز الدماغية وبين محصلات المراكز الأخرى سواء ما كان منها حديثاً أو ما هو مستجد، وذلك من أجل التزود بكل خبرة نافعة في استكمال معالجة الموضوع المباشر علاجهُ أو من أجل التنبه إلى واجبات حان وقتها. والواجبات التي تلهينا عنها المشاغل حتى حين موعدها تعمل سراً في الأعصاب المختصة بإظهارها إلى حيز الوعي. فالنائم الذي حان وقت ذهابه إلى عمله يرى في طنين بعوضة تحوم فوق رأسه جرس المصنع يرن. فيتغلب منبه الواجب على دواعي الاسترخاء فيصحو المرء وينهض. وكأن اللغة عنت هذا حين دعت الواجب واجباً، حيث أن الوجيب هو وتيرة من الاختلاج العصبي العضوي تفوق المعدل، كما تفوق وتيرة الخفقان في القلب والنبض في الشرايين معدلهما عند الانفعالات. والإحساس بالواجب هو الإحساس بوجيب ذلك الواجب ليس إلا.

حين نمنا على خوف من الاقتحام حلمت بأنا أخفينا، في زمن آخر، من حول البيت كل شيء يدل على أن أهله فيه. وغلقنا الأبواب ونمنا، وشعرت بأن القوات التي لا نريد مجيئها أحاقت بالبيت، وتقدم جندي من الباب ونقر خشبه بعقدة سبابته ثلاث ضربات مطردة في قوتها، أفقت من النوم وصوتُ رصاصة قويٍّ يطن في أذني من بعد صوتين آخذين في التلاشي.

إنه بلا شك من أحلام الذين سقطت حاميتهم. ولكن هذا التعليق هو غير ما يهمنا استفادته من الحلم. فالمهم هو التعرف على وصول الصوت من الإحساس السمعي إلى

المخيلة العامرة بالحلم. فقد حول الحلم الإحساس السمعي الصوتي إلى شعور سمعي حلمي. وقضى الحال في الحلم بأن يهوّن من قوة الصوت ومن حقيقته كما قضى بتوظيفه الوظيفة الأهون شراً. إلا أن الدق على الباب عمل ما يعمله جرس المعمل في حلم العامل. فهو تنبيه كبير إلى الواجب. وإذا سلمنا بأن الواجب هو الشاغل الذي يحرك الدماغ بالاضطراب ويحرك من بعدُ الشخصَ كله بالاضطراب فإننا نقتنع عندئذٍ بأن حال الوجوب أو الوجيب هي حال تملي على صاحبها الهبوب إلى معالجة المشكلة التي أوجبتها. فالصراع بين الحالة التي يدفعنا إليها الواجب والحالة التي نكون فيها هو الذي تسبب في تحويل الأصوات عن حقيقتها وفي اطراد قوتها الواحد فوق الثاني. حالتنا في النوم عدت أصوات الرصاصات دقات على الباب لا أصوات إطلاق رصاص، لأن فرق ما بين الحالين لمصلحتها. ولكنها لم تستطع أن تجعلها، مثلاً، من نقر آلات الطرب في الأعراس لأن الواجب كان يجب بالخطر. ثم إن حال النوم رأت في دقات الباب الدقة تعلو في الصوت سابقتها، والثالثة فجرت النوم، مما يظهر أن الزمام كان آخذاً في الإفلات من يد الاستسلام للنوم لصالح القيام للواجب. ولو لم تكفه الدَّقة الثالثة على الباب (حلمياً) كي يفيق النائم على قلق لكان قد جد على الحلم ما ينقضه.

هذا التحول الذي طرأ على الإحساس بأصوات الرصاصات فجعلها، في الحلم، دقات على الباب يماثل بعض المماثلة تحول اللسان عن الاختلاج باسم «جبل صنين»، والعينُ على مسماه، إلى الاختلاج باسم «جبل الشيخ» الكامن هو ومسماه في ظلال المشهد الخيالي العاملي.

فمع جبل صنين تطور الإحساس تطوراً مجازياً وفقاً لهذا المنحى:

صورة حسية مشهدية (جبل صنين)

صورة خيالية كامنة (جبل الشيخ)

اختلاج لساني صامت: «جبل الشيخ»

وفي حلم الطلقات تطور الإحساس تطوراً مجازياً أيضاً على هذه الصورة:

صوت الطلقات (سماع حسي)

صوت الدق على الباب (سمع حلمي)

صورة الدق على الباب (مشهد حلمي)

يلاحظ أن الحسي في كلا الحالين ولَّد الخيالي، فتقمصه هذا الوليد كاتباً عليه اسمه أو راسماً عليه صورته. ومع هذا تظل هاتان الواقعتان تشكلان نموذجين من المجاز. قاعدة الأول:

صورة 1 ← صورة 2 + لفظها.

وقاعدة الثاني هي:

صوت 1 ← صوت 2 + مبعثه

والقاعدتان تصلحان للعمل في المجالات التالية جميعها:

صوت حسي 1 ← صوت حسي 2

صوت حسي ← صوت خيالي

مشهد حسي ← مشهد خيالي

مشهد حسي 1 ← مشهد حسي 2

مشهد حسي ← اختلاج لساني

نلاحظ أن الحسي الذي يُـوَلِّدُ خيالياً، سواء من خيال اليقظة أو النوم، إنما يتجاوز الإدراك الحسي، ولا نعي قيامه بين الأحاسيس، ليسري في الخبرات الخيالية وينهض متجلياً للوعي واحداً منها كما ينهض برعم العود في التطعيم، من خلال برعم القشرة التي طعِّم بها، غصناً مستعاراً. أو لنقل؛ الحس حَبِل والخيال خَلَّف.

وقد يكون الحس مستعداً لملاقاة محسوس ثم تلتقي الحاسة ذلك المحسوس، ولسبب أو أسباب يُوْلَد به خيالي من حواشيه. فقد قال محمود: يعاونني على التتبين غداً خليل محمد. وأمرُّ أنا صباح الغد وأرى على سطح التبان رجلين يجتهدان في تفريغ أكياس التبن من خلال الرَّوْزَنَة المفتوحة في التبان، وقد كساهما العمل منظراً مهيباً. عرفت محموداً والرجل الثاني تساءلت عنه: من هو؟ وقلت في نفسي: هذا ما هو خليل، كيف قال محمود راح يعاونه خليل؟ وفي هذه اللحظة انكشف وجه الرجل من جهتي بعدما كان بادياً لي جانب وجهه فقط. ما إن وقعت عيناي على وجهه حتى خفق قلبي خفقات قوية متسارعة: عمي حسن!! رأيت عمي حسناً، إنه والله هو دون أدنى ريب. ولكن عمي فارق الحياة منذ أكثر من عشر سنوات. قلت: يعطيكم العافية. رفع الرجلان ظهريهما وقالا: الله يعافيك، تفضل. وضحكا لدعوتهما إياي إلى التبن وإلى مغطس الغبار الذي يغرقان فيه. الأول محمود والثاني هو خليل.

كيف عاد عمي حياً؟ كيف رأيته في غيره دون زيادة أو نقصان، مع أني لم أفكر به على حد ذاكرتي منذ زمن لا أعرف مداه؟

أولاً خليل هو ابن عم عمي، وأخت خليل المرحومة هي امرأة عمي. وخليل يحب أولاد أخته الوحيدة ويغار على مصالحهم أكثر من غيرتهم هم عليها.

فهل يكفي هذا ليقنعنا بأن رؤية خليل لا تعطينا صورته بل تولد صورة قريبه الخيالية الذاكرية؟ لا، لأن الخبرة الحسية تتحد مع أختها السابقة، وإذا دعت دواع فإنها تذكر بما ناسَبَها. أما هنا فقد وقعت العين على خليل وهي موعودة بالوقوع عليه ومع ذلك رأت ابن عمه ولم تره.

فخليل الحاضر في الذهن يؤهل الأعصاب بلوازمه وبمن تشده إليهم الأواصر دون أن تنجلي صور تلك اللوازم وذوي الأواصر: إن وراء الأكمة ما وراءها؛ لكن هذه الأهلية العصبية الدماغية هي استعداد في أعصاب الذاكرة للإفصاح عما بها عندما تتوفر أسباب كافية للتذكر.

فما هي العناصر الإضافية التي حولت صورة خليل إلى صورة أخرى ذاكرية؟

في السهرة أخبرت محموداً بما حصل. وقلت له: لم أنتبه قبل اليوم إلى أن خليل محمد يشبه عمي. قال محمود بقليل من التمعن: أنت أبصر كيف تهيأ لك هذا الشبه، وإلاّ فلا هذا يشبه هذاك، ولا هذاك يشبه هذا.

استعدتُ صورة كل من الرجلين؛ وجه عمي كان أوسع وكان أسمر حنطياً. بينما وجه خليل أضعف ويبدو حنكه الأسفل أضيق فيبدو ذقنه أدق. ولون خليل أبيض على أصفر. وخليل أطول من عمي وأنحف فكيف تقمص الميِّتُ الحي؟

إن الثياب التي كان يلبسها أخفتْ نحافته. وإن الكوفية التي اعتمرها قد لُفَّتْ حول عنقه وغطت أسفل ذقنه، لأن ترابية غبار التبنِ قد ردت لخليل اللون الأسمر الذي كان لعمي. وإن انحناءه على كيس التبن قد حجب بعضاً من طوله. وبهذا حذفت أكثر الاختلافات وعلى رأسها دِقّة الذقن.

ولعل عنصراً آخر هاماً قد أهملناه ولا يدخل في الشبه الخَلْقي بين الرجلين، وهو طريقة وضع الكوفية والعقال على رأسه وردُّ أحد طرفيّ الكوفية من تحت العنق على الكتف وإرخاء الثاني يتدلى حراً فوق الصدر. إضافة إلى أن لون الثياب وقماشها وتفصيلها هي مما عهدته عند عمي.

هذه المظاهر قد تكون كافية لتقريب صورة شخص من صورة آخر، ولكن هل هي كافية لتزيل صورة حاملها وتولد صورة لشخص مات منذ عقد من السنين وليس الآن في البال؟

إذا لم يكن كل ذلك كافياً ليحدث ما حدث فإنه لا يلغي كونه قد حدث ومبدؤه:

صورة حسية مدركة بانتباه ووعي تولد صورة منسية تتعلق بها وتُعْرَف بذاتها بينما لا تولد أختاً لها هي من سالف الخبرة بها.

هذه الظاهرة التي تحدث عفوياً بصورة محدودة تمثل عماد المسرح المحاكي حيث يلبس الممثل هيئة المحكي وزيه؛ فيراه المشاهِدُ الذي يعرفه ويرى في صورته الحسية وفي أصواته وحركاته شخصاً آخر كان قد عرفه بشكل من الأشكال. وقد يكون المحكي من الأحياء كما قد يكون من الأموات. وشأن كل رمز ودال الذهاب بالإدراك إلى متعلقه لا إلى ذاته.

لكن أكثر الأمثلة المعروفة مما ينهض به الخيال بوساطة إحساس معروف لا يؤدي ذاته هي من صور الأحلام. ففي الأحلام خاصةً يولِّدُ الإحساسُ السمعيُّ والإحساسُ البصريُّ والإحساسُ الحركيُّ بنى خيالية ليست هي ن النماذج الخبروية لهذه الأحاسيس بقدر ما هي معان لها.

ونجد أمثلة أكثر شيوعاً، مما يتولد في الخيال عن طريق أحاسيس مغايرة، في ما تولده أحاسيس حركية وصوتية من اختلاجات كلامية لا تكون في اللسان لو لم تَحْفِلْ بها الأدمغة قبل ذلك (حفل ـ حبل ـ حمل).

5 ـ اختلاجات لسانية بأحاسيس حركية

أ ـ حركة الوجه تولد اختلاجاً لسانياً

فرك الوجه باليدين في أثناء غسله يستجيب له الفكان بحركات مختلفة: ينفتحان انفتاحاً كثير التباين، يتقدم الأسفل ويتراجع مع كل انفتاح بدرجات متفاوتة. ويوافق هذه الأوضاع أنفاس مختلفة وحركات الشفتين هي بين الانضمام والانفراج والتقلص والانبساط على تقارب وتباعد في كل حال؛ أضف إلى ذلك حركات اللسان وأجزاء الحلق الرخوة بما في ذلك حركات الأوتار الصوتية والرئتين، ناهيك عن حركات اليدين والكفين والأصابع إلى الكتفين وما تحدثه في سائر الجسم من اهتزازات وأوضاع متغيرة لم يحصها إحصاء.

كل هذا موصولاً بما يشغل النفس والفكر من مسائل تتحكم بالشعور والعقل يولِّد ألفاظاً مفردة أو كتلاً لفظية ليس لنا من السيطرة على تكونها سوى إدراك بعضها وتجاوز هذا الإدراك

إلى إدراك أسبابها أحياناً وإدراك معانيها ومدلولاتها التي ترحل بنا إلى عوالم نفسية لم يكن ورودها ممكناً لولا تكوّن تلك الوحدات التعبيرية اللفظية الاختلاجية.

ونمثل على هذا بتجربة واقعية حصلت في سياق غسل الوجه بصورة اعتيادية. وأنا أغسل وجهي وأفرك جانبيه بكفيّ انفرج الفك الأسفل عن الأعلى انفراجاً شعرت معه بتكون جملة مؤلفة من فعل أمر هو (حط) موجه عبر حرف نداء هو (يا) إلى اسم هو (حَسَنْ). وأدرك الفكر هذه الوحدات الثلاث المتتالية واجتمعت بين يديه على هذه الصورة: «حط يا حسن».

كنت قبل ذلك أعرف أن اختلاجات جوارح المخارج الصوتية تولد في الذهن، لسبب أو لآخر، ألفاظاً و أجزاء من ألفاظ يتولد بتولدها ما يكمل وحدتها اللفظية المعنوية، كأن تتولد الـ (فَ) بصورة اختلاجية على معدل نطقنا لها موصولة باللام الساكنة أي هكذا: فَلْ. ثم يؤدي كون هذه اللام بهذه الفاء إلى نشوء لفظ (نَوْ فَلْ) في صمت الاختلاج اللساني. ولفظ (نَوْ فَلْ) معهود في ذاكرتي كجزء من اسم شخص أسمعه من إحدى الإذاعات الموجهة إلينا من الغرب بالعربية. وما إن تكون هذا الجزء أي (نوفل) حتى تولد في الاختلاج اللساني جزؤه المكمل وهو (أنطوان)، وأدرك العقل الاسم تاماً بوحدتيه أو جزءيه يختلج في اللسان الصامت وفقاً لترتيب حروفه ومقاطعه وجزءيه في الإذاعة المسموعة.

والاسم يولد في الذهن - إذا لم يكن من مانع - وظائف الإذاعة التي تردده. وهذه الوظائف تقع ضمن بنية الوعي كجزء من سياسة غربية تجاه الشرق العربي الإسلامي. وهذه السياسة تنشط الوعي للبحث عن موقف شرقي يصلح لبناء وحدة قوية تعيد التوازن المفقود إلى العالم.

لقد تدرجت النفس إلى هذه الآفاق من خلال اختلاجة لسانية بسيطة ولدتها حركة اليدين على الفكين. فأسفرت حركة الفكين عن حركات لسانية غير مصوتة. وهذه الحركات اللسانية تسري في الأعصاب إلى الدماغ فيعقلها دون وعي من صاحبها. وبعضها يلتقي في العقل بل يحرك العقل حركاتٍ سلف للعقل أن خبر أمثالها وأمثال أجزاء منها إبان تحريك جهاز النطق ببعض الكلام. وهنا تتحد حركة الفم غير الكلامية، من خلال ما بينها وبين الحركات الكلامية من انسجام، مع حركة أعصاب الدماغ المختصة باستقبال الحركات النطقية المستقلة عن أصواتها. فيتولد في الدماغ عند ذلك بحركات غير كلامية حركاتُ كلامية يدركها العقل خارجة منه لتدور في اللسان بصورة عفوية، لا اللسان أرادها ولا العقل.

واختصاراً تتم العملية وفقاً لهذا الشكل:

حركة الفكين ← حركة جهاز النطق بوزن حركته في بعض الكلام ← حركة دماغية منسجمة مع حركة كلامية سلفت ← اختلاج لساني فصيح.

وما دامت حركات الجسم اللا كلامية قادرة على تحريك الدماغ بحركات كلامية كلما التقت وإياها في الوزن فإن المرء يسأل عن مسير الحركات الكلامية السمعية والنطقية في أنحاء الجسم. فهل تعم الجسم عند النطق بعبارة معينة وبحرف معين موجةٌ من الحركات المقيسة التي لا تتطابق وموجة أخرى تولدت عن عبارة أخرى وحرف آخر؟ إذا كان العقل، سيدُ الأحكام، معرضاً لهزات كلامية لم تكن فيه بأثر من كلام فإنه لمن الأرجح أن تسري في الجسم إثر كل حرف موجة خاصة بهذا الحرف. إلا إذا كانت هناك سدود وحواجز من وظائفها عزلُ هذا العضو وهذا الجهاز عن هذه الحركة وهذه.

وإذا تبين أن لاختلاج الدماغ وزناً مخصوصاً مع كل لفظ يتولد منه فإنه يصبح مشروعاً الاستيلاء على الكلام من أطراف الأصابع. ليس عن طريق استلال الكلام باستلال الأظفار بل عن طريق التقاط الموجات الإذاعية التي تبث حركات الكلام الصادرة عن الدماغ في الأطراف. أما من ريب في أن الاختلاج الدماغي الكلامي يسري في أنحاء الجسم؟

يكاد العقل لا يدرك شيئاً من حركات الجسم بالتكلم الصامت والناطق سوى حركات اللسان. ولو استقصى فربما أدرك حركات القلب والعينين وغيرها. ما الذي يمكّن الإنسان من الكلام عن المشاعر كما يمكنه الكلام عن الأحاسيس؟

إذا كان الأساس في الكلام هو التقاء في العقل بين إحساس بصوت وإحساس بحركة جسمية فإن إدراك المشاعر يتم عبر وعي الشعور والحركة الجسمية التي اقترن بها. وهذه الحركة ـ إذا لم يناسب الشعورُ الإحساس ـ تناسبُ حركة إحساس لهُ رصيدٌ في اللسان فتقترض من رصيد ما يناسبها من حركات. وإذا لم ينطق اللسان بما يشغل البال ويحز في النفس فإن أحلام اليقظة وأحلام النوم تنطق بذلك بجلاء. وما التيار الكهربائي المنبعث من نشاط الدماغ سوى نتيجة للتيار الحركي للأعصاب وتيار الحركات المتولدة عن التفاعل الحاصل بين الإفرازات الكيماوية الناشطة في الخلايا العصبية ضمن المركز الواحد وبين المراكز المختلفة.

وإن هذا التيار الحركي لأعصاب الدماغ ولأعصاب الحواس ليختلف باختلاف الطاقات المؤثرة في الأعصاب. ومتى واجهت الأعصاب تياراً من الطاقة المؤثرة تحركت حركة موزونة. فإذا ما واجهت تياراً مماثلاً إثر ذلك كان لها من الحركة ما يماثل في وزنه (= أقيسة موجه) الحركة الأولى. وهذا ظاهر في التعرف على الإحساس اللمسي الذي تكرر مرة بعد مرة. ويظهر

كذلك في التعرف على الاختلاج اللساني المتكرر لجملة كلامية وفي التعرف على أي حركة في الأحشاء أو في سطح الجسم مما يتكرر. وهو ظاهر كذلك في التعرف على الصورة البصرية والسمعية لما يتكرر منهما، كما يظهر في الوعي المتكرر لكل نشاط نفسي متكرر.

الوحدة المحددة من الطاقة المتكررة التأثير في الأعصاب تولد وحدة الإحساس والإدراك. ووزن الحركة الحسية المحدد إنما يعادله وزن محدد من حركة الأعصاب المختصة بإظهار الإدراك. كأنما أعصاب الإدراك شاشة يظهر فيها مخطط لمجريات الجهاز الحسي التي تنصب فيها كما يظهر فيها مخطط لمُجْرَيات الآلة النفسية ككل.

ب ـ وزن الحركة العضوية يولد ما يوازنه من الكلام الذي علق بالذهن

وذلك التعميم تجلوه واقعة دقيقة من وقائع الاختلاج اللساني كانت بحركة من اليد لا صوت لها.

فكثيراً ما تسمع أصواتاً طبيعية خاماً بالنسبة لك ويتولد لسماعك إياها ألفاظ وجمل قد تكون بعض جروسها مشتركة مع بعض جروس تلك الأصوات المبهمة، وقد لا يكون بينهما جروس مشتركة؛ لكن وزناً واحداً جمعهما، فنشأ من وزن الأصوات الخام في إحساسك وزن ذلك الكلام المدخر في ذهنك كخبرة اكتسبت أعصاب الدماغ القدرة على إعادة توليدها. وبنشوء وزن كلامي من وزن صوت خام ينشأ في الذهن الكلام الموافق في وزنه لهذا الوزن الكلامي الهجين، وذلك متى توفر في الحقل النفسي الناشط مثل هذا الكلام. وقد يكون وزن الأصوات الخام من التماسك والقوة في التأثير بحيث يستطيع أن ينقل النفس عن شاغلها الراهن الذي خلا مما يناسبه من كلام بوزنه إلى شاغل آخر كامن ويتضمن هذا الوزن. ويُثبت الوزن كما يثبت الشكل واللون والجرس القدرة على جذب الاهتمام ـ متى تُدْرَكْ ـ عن حقل اهتمام لم تكن فيه إلى حقل اهتمام هو فيه.

ولكن هذه المرة لم يكن هناك صوت بل كانت حركة في اليد وأمام العين. فقد كنت أحمل في يسراي بعض حبوب الترمس المبلول وأقف أمام المجلى في المطبخ لأقصقصها بأسناني وآكلها. وكان في جرن المجلى مصفاة لوضع الفضلات. وفي المصفاة كيس من النيلون يحتوي على بعض الأوراق وقشور الفاكهة. وكانت فوهة الكيس مضمومة لم يبق فيها مفتوحاً سوى ممر ضيق يكفي لمرور قشرة الترمس أو يزيد قليلاً. لم أوسع فتحة الكيس لرمي قشور الترمس اعتماداً على أني كنت صغيراً راعياً أحسن التسديد والإصابة بالحصى. فقد

سددت مرة ورميت بحصاة عنق سنبلة كانت واقفة ساكنة في مدى مرماي فقطعت عنق السنبلة من حيث شئت. وأصبت مرة أخرى منقار عصفور صغير أوى يختبىء بين فروخ سنديانة ملتفة من خلال ممر ضيق للنظر مفتوح على رأس العصفور. وبعد ذلك بسنين قبلني فريق في كرة السلة على رغم منه بين أعضائه فرميت الكرة من جوار سلتنا فوقعت في سلة الخصم، وصرت لاعباً في نظر الجمهور. وبما أنها كانت صدفة توقفتُ عن خوض المباريات اللاحقة احتفاظاً بهذه المنزلة التي لا أستحقها. واعتماداً مني على هذه الكفاءة لم أوسع فتحة الكيس.

رفعت بإصبعيَّ حبة ترمس وجرحت قشرتها بأسناني وضغطت عليها فخرجت من لبستها منطلقة إلى الأضراس، وظلت القشرة بين الإبهام والسبابة. اتجهت يدي بالقشرة نحو فتحة الكيس لقذف القشرة إلى داخله عن بعد ذراع فلم تخطىء الفتحة الضيقة ولم تمسس جوانبها واستقرت بين محتوياته، فتولد في الذهن، إثر حركات الرمي السريعة، لفظ (لاحِتْ)، بلام ألف وحاء مخطوفة الكسرة وتاء ساكنة شديدة الجزم.

هذا اللفظ هو لفظ الطفل علي محمود الذي لم يبلغ السنتين. وهو صورة تَلَفُّظه بقول أخوته (راحِتْ) أي (راحَتْ). وقد استحب البيت منه هذه الصورة اللفظية. وصار الكبير والصغير يحتال عليه ليسمعها منه. يسألونه: وأين سوسن؟ فيقول؛ لاحِتْ (خطفاً). وأين خلدون؟ «لاحت». وأين الكهرباء؟ «لاحت». يقول ذلك ويبتسم، يشارك أهله اللعب بالألفاظ.

فما الذي استوجب تولد «لاحِتْ» بحركة يدوية غير مصوتة؟

لقد أدرك العقل الصلة بين مقاطع حركة اليد وهي تدفع قشرة الترمس سريعاً إلى فوهة الكيس وهي: ثني الساعد على الزند ببطء للتسديد والرمي، تحريك الساعد سريعاً بحركة الرمي المعاكسة للحركة الأولى، توقف اليد في اضطرابها بعد الرمي، الحركات الثلاث هي إذاً: الثني والرمي والتوقف. وأدرك العقل هذه الحركات عن طريق العين كذلك. ثم أدرك اختلاجة الكلمة في اللسان بعد الذهن. وهذه الحركات في العين هي عبارة عن صورة اليد تنثني ببطء ثم تندفع بسرعة ثم تقف فجأة.

أما اختلاجة اللسان المكونة من «لاحِت» فعناصرها هي: اختلاجة اللسان في مخرج اللام، موصولة باختلاج فتحي بطيء في الأوتار الصوتية، يتلوه اختلاجٌ في مخرج الحاء ممدودٌ باختلاج الكسرة المخطوفة في الأوتار، إلى اختلاج الوقف المتردد في مخرج التاء الساكنة، أي في طرفي الصدام وهما أعلى طرف اللسان وداخل اللثة فوق الأسنان الأمامية العليا. اللام مع

الفتح حركة ممتدة تبدأ من سكون وتقف لتبدأ حركة أقصر مالت عن الفتح نحو الكسر هي (حِـ) وسكنت بالصدمة الخفية الحاصلة بين طرفي مخرج التاء.

فمدة الثني تقابل مدة اللام، والرمي بالساعد يقابل الميل بمخرج الحاء إلى الكسر، وتوقف اليد إثر عملية الرمي يقابل قطع الحاء المائلة بالتاء الساكنة.

إن الحركات الثلاث التي ألّفت جملة حركة الرمي باليد هي ثلاثة مقاطع في وحدة عمل يدوية، كما أن (لا) و (حِـ) و (تْ) هي ثلاثة مقاطع حركية في وحدة عمل لسانية. وكل مقطع من الوحدتين يشتمل على حركات دقيقة يلزمه استقصاء مخبري وعضوي دقيق ليكشف عن دقائقه.

ومن الجدير بالذكر أن كلاًّ من وحدة العمل اليدوية ووحدة العمل اللسانية الحركية تشكل وحدة عمل عقلي يجلو الإدراك حقيقتها، وينبغي أن يجلو هذه الوحدة كذلك علماء حركات الدماغ.

إن وحدة الوزن لحركات اليد وافقت وحدة الوزن المختبرة سابقاً لحركات جهاز النطق بـ (لاحِت). وكما يولِّد إحساسٌ ذاتَه المختبرة يولِّد وزنُ حركةٍ طارىء في الحس ما وافقه من أوزان حركات سلف للعقل أن اختبرها. وما دامت الحركة الطارئة بوزان حركات معهودة فإنها مرشحة لتوليد صورة متجددة لواحدة من تلك الحركات. إن أي لحن قديم بنغم جديد ليفتح الذاكرة على ذاته المعهودة وفي صُحْبَتِها صور الأنغام التي ألفها قبل ذلك. ولهذا جاء البيت الثاني من معلقة طرفة مطابقاً للبيت الخامس من معلقة امرىء القيس فيما عدا القافية. فلامرىء القيس (وتجمَّلِ) ولطرفة (وتَجَلَّدِ).

فالحركات كائنات مجردة عما يتحرك وفقاً لها، لا أعني أنها مجردة في غير الوجود العقلي لأني لا أعرف ذلك؛ إنما أعني أن العقل يجردها كخبرة خاصة مستقلة عما يلازمها من خبرات. حركة الأذن وحركة اللسان وحركة العين وحركة وحركة... فالحركات لها في العقل حيز إدراك مستقل وينبغي أن يكون لها في المراكز الدماغية مركز وعي مستقل بحيث لا يمكن تذكر شيء بشيء يجمعهما وزن الحركة متى أعطب ذلك المركز.

فما دام العقل يركب بصورة عفوية لفظاً من عدة حروف أو وحدة كلامية متلازمة الألفاظ في السمع والذهن واللسان باطلاعه على جُزَيء من حركة تسهم بها إحدى الجوارح لتؤلف مع حركات جوارح أخرى ما ندعوه اختلاجة الحرف اللسانية فإنه يرينا بل يري ذاته أنه يقوم بأعمال

دقيقة لا تعرف منها العلوم بعد سوى اليسير. إن صدمة ما لخلية عصبية لسانية طرفية سطحية كافية لتوليد اختلاجة لفظ حرف الـ (ت) إذا كانت من نوع الجملة ا لصدامية (الضغط والحركة) بين سطح طرف اللسان وداخل اللثة الأمامية العليا، هذا إذا لم تزمجر في الذاكرة جهرية الاختلاج في الأوتار الصوتية وتحيل الاختلاج التائي اختلاجاً دالياً، كل ذلك يحدث بوعي جلي للحركات الجزئية الدقيقة التي تؤلف وحدة الفونيم الاختلاجي.

فهل يقنعنا هذا بحقيقة نظام لغوي اختلاجي يظلله النظام الصوتي؟ إنه حقيقة حسية واعية.

6 ـ توافق النفسي والعضوي في الحلم وتوافق الذهني واللساني في الاختلاج

تولد اختلاج (لاحِتْ) في الذهن وفي اللسان بحركة من اليد تماثله في الوزن. وهذا التوافق المولد للاختلاج اللساني في اليقظة لا يشذ عنه ما يحدث في أحلام النائم.

فقد نمت بعد ظهر اليوم وافقت بُعَيد المغرب. البيت معتم، والأولاد وأمهم خارج البيت. قمت ومشيت لأخرج من غرفة النوم فاصطدمت بالباب الذي لم أقدر أنه مغلق اصطداماً قوياً. فقد ارتطم وجهي وصدري وقدماي بخشبه دفعة واحدة. لم أشعر بالوجع وضحكت في سري لأني تذكرت عامل الكسارة أبا دُرّة حين فر حجر كبير من بين مطارق الكسارة وأصاب رأسه فقال: «يا أبي لو ما يجي على راسي قتلني».

فتحت الباب ومضيت إلى المطبخ كي أشعل السراج كما يمضي الأعمى. أشعلته وفطنت إلى أن مصباح الغاز (اللّكس) فارغ. أعبِّئه؟ لا أعبئه؟ فلا كان الكسل.

أحضرت قارورة الغاز ومفتاح ساعة الغاز ومفتاح تنفيسة الهواء التي في قنينة اللكس وأنبوبة التفريغ. وأخذت اشتغل بالفك والتركيب والفكر يشتغل في غير ذلك. رأيتني أتخيل أني أقيم في الفلاة على رمل الأوزاعي محلاً لتعبئة قوارير المصابيح بالغاز. وفكرت في الأعمال التي سأقوم بها. فرأيت منها التعبئة وتنظيف المصابيح من الداخل والخارج. وفكرت في الأسعار. ورأيتني في الحال أسَعِّر التعبئة «بخمسة آلاف». وفي الوعي أنها خمسة آلاف ليرة لبنانية. لكن لفظ (ليرة لبنانية) لـم يَدُر في الذهن ولا في اللسان إبان التخيل.

وما إن حددت التسعيرة حتى تذكرت مشهداً من حلم رأيته في نومي الذي فارقته منذ قليل: أنا في سيارة أجرة. والسيارة تتجه غرباً نحو صور بين كروم كالكروم الواقعة إلى الغرب من المفرق الجنوبي لكفردونين، وإلى جانبي على المقعد الخلفي عجلة سيارة آخذها معي

لتصليحها. فأسأل السائق: كم يريد؟ فيقول: «خمسة آلاف». وأغضب أنا وأثور لأنه غلّى الأجرة كثيراً. فرد علي بقصد كسب المعركة قائلاً: الظاهر أنك لا تروح ولا تجيء. يُعَرض بأني لا علم لي بما وصلت إليه أجور النقل والدولارُ يأكل الأخضر واليابس.

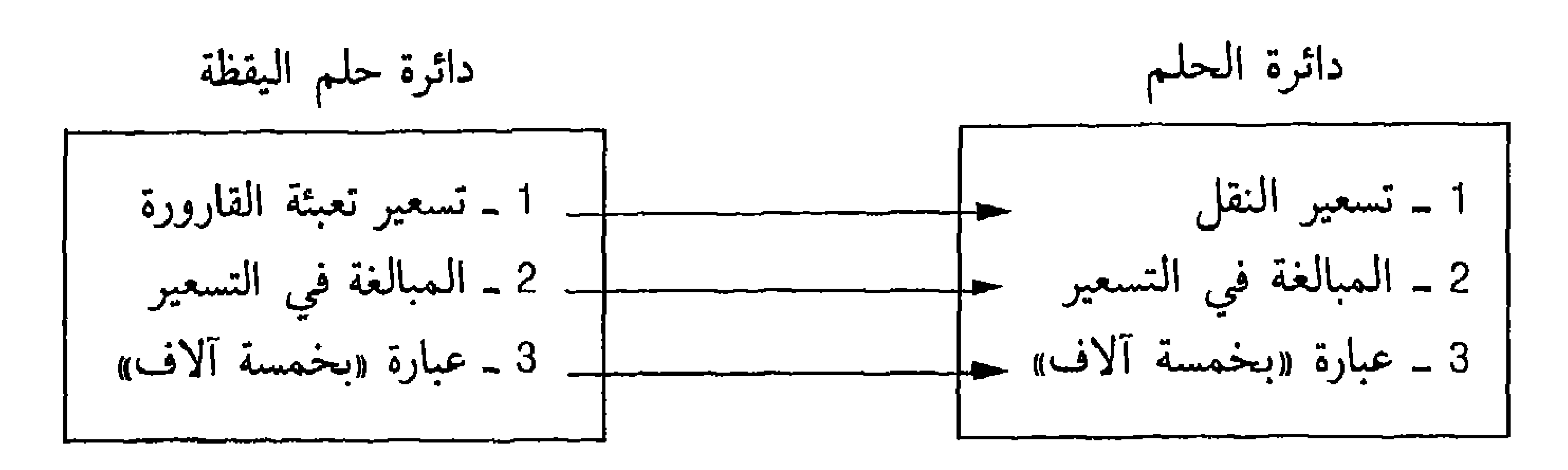
ثم تذكرت أني، قبل الارتطام بالباب، كنت أفكر أن مصالح الجسد تعمل في الأحلام على حفظ سلامتها، وأن ثورتي على غلاء أجرة النقل قد أمَّنت حرارة إضافية كانت من متطلبات الجسد لأني شعرت بأن الحرام الذي كنت أتغطى به لم يكن يوفر لي الدفء الكافي. وأرى أن مصادر الطاقة التي تؤمنها الأحلام للجسد عند حاجته إليها لا تقتصر على القتال واستنهاض الغضب، بل هناك الخجل والأشغال الشاقة وممارسة الجنس والاهتمام الفكري والعملي للخروج من المآزق.

إن حاجة الجسد تستثير، من ضمن الحقل النفسي المهيمن على النائم، الفصل الذي يلبيها. فإذا كانت النفس ماضية في شاغلها واحتاج الجسم إلى الحرارة فإنها تتعاطف معه وتتحول إلى أقرب ما يناسبها ويناسبه في آنٍ معاً مما يولد الحرارة في البدن ويوفي الحلم حقه في التطور والاكتمال. فقد كنت في بعض الأيام مشغول البال بالسجن الذي يخضع له الأطفال ما بين المدرسة والبيت، وأفكر كثيراً: أين وكيف نروّح عن الصغار هموم الضجر والزريبة. فوجدت في الحلم أني أصعد بولديّ إلى الجبال العالية ليلعبا بالثلج. ثم وجدت أني كنت في نومي بحاجة إلى دفء أكبر. ورأيت مع تذكر الحلم كيف كان الدفء يسري في الجسم من جراء الاستعداد النفسي والجسدي الذي ولده اللعب بكتل الثلج. وهذا الرأي يخالف ما جاء في كتاب محمد بن زكريا الرازي، «الطب المنصوري»، من أنه «من رأى كأنه قائم في الثلج في مكان بارد يتأذى به دل على غلبة الحرارة عليه». إلا أن تأذي الرائي بالثلج والمكان البارد لا أفهم كيف يكون ما دام هذا الرائي ممن غلبت عليهم الحرارة. وفي جميع الأحوال لا يصح هذا التعميم وتحتاج أمزجة الناس إلى فهم أكبر. فقد يتأذى حار المزاج من الثلج والمكان البارد عندما يرمز هذان إلى وسط اجتماعي فاتر يعيش فيه امرؤ شديد النشاط. وكثيراً ما تظهر حرارة الشاعر من جراء فتور الأحبة. يقول المتنبي: «واحرَّ قلباهُ ممن قلبه شبِمُ» أي بارد وفاتر.

يمكن إذاً تحديد مجال الأحلام بدائرة اهتمام نفسي تكون خالصة لما يشغل بال الحالم عندما تكون الأحوال العضوية في ارتياح واعتدال تامين وهذا الكمال لا يتوفر لحي. لذلك تشارك الحاجات الجسدية الطارئة والمزمنة (باعتبارها ناشطة إبان الحلم) في دائرة الاهتمام النفسي الحلمية بقدر أو بآخر. وقد تغطي دائرةُ الحاجات الجسدية كامل الدائرة النفسية الحلمية كما يكون الخسوف تاماً. أي أنه تظل الدائرة النفسية شفافة من خلال كثافة الهموم المتعلقة بمشاكل الجسد.

وإذ انتبهت إلى أني، في مجرى خيال اليقظة، سعَّرت تعبئة قارورة المصباح «بخمسة آلاف» وأن السائق في الحلم حدد أجرة النقل «بخمسة آلاف» أي بالعبارة ذاتها عجبت كيف أسرع لساني في خيال اليقظة إلى الاختلاج الكلامي عينه الذي دار به في الحلم لسان السائق. وأذكر أني عندما سعرت التعبئة بهذا الكم شعرت بأني بالغت في السعر. وها نحن نرى أن حلم اليقظة قد اشتمل على ثلاثة عناصر من حلم النوم وهي: التسعيرة المبالغ فيها، والكمية النقدية الواحدة، والعبارة الاختلاجية الواحدة أي «بخمسة آلاف».

ودوران هذه العناصر في النفس، وبصورة واعية، وبُعَيْد الحلم، ثلاثة عوامل ساعدت على تذكر الحلم. كيف؟ إن طريق الحركة النفسية الناشطة في وقت ما سالك إلى تحريك مركز دماغي آخر بها متى يكون هذا المركز حديث الخبرة بمثلها. وهذه ثلاث حركات دارت في خيال اليقظة وجرت من الأعصاب الآهلة بها عبر قنوات الوَصل العصبي إلى مواضع أمثالها من أعصاب الخيال الحلمي فتجلت تلك الأمثال من جديد. على هذه الصورة جرت عملية التذكر للحلم:



كان السؤال عن كيفية اختلاج اللسان في خيال اليقظة بمثل ما اختلج به لسان السائق في الحلم.

ينبغي أن نقر ونحن نحاول الإجابة بأن صورة السائق هي من خيال الشخص الذي يحلم به، وأن لسان السائق إنما هو لسان الحالم. فما يدور على ألسنة الصور الحلمية إنما يكون دائراً في لسان صاحب الحلم. وهذا يفيد أن لساني في الحلم قد اختلج قائلاً: «بخمسة آلاف». واختلاج اللسان الكلامي يعني في الآن ذاته اختلاج الأعصاب في المركز اللغوي الدماغي وفي أعصاب السمع في الآن ذاته. وهي الأجهزة العصبية الثلاثة التي تمرست بتوليد الألفاظ والعبارات العربية التي منها القول: «بخمسة آلاف».

وبعد حلم النوم بدقائق تولد حلم اليقظة. وكان في هذا مشهد لموقف يشتمل على خدمات هي تعبئة قناني مصابيح الغاز وتنظيف قطع هذه المصابيح ويشتمل أيضاً على بيع هذه

الخدمات مع مادة الغاز. وهذا الموقف يستوجب حكماً القيام بتسعير هذه الخدمات مع السلعة. وما إن استلزم الأمر تحديد السعر حتى سارع اللسان إلى الاختلاج الصامت بعبارة هي: «بخمسة آلاف». وهي نفسها عبارة التسعيرة الحلمية.

أما كان ممكناً القول (بأربعة آلاف) أو «بستة آلاف» أو بكذا دولاراً، كما هو جار اليوم في دكاكين بيروت، أو غير ذلك؟

فقد أمكن في الواقع الذي أمكن. ولم يمكن غيره لأن شروطه هو قد توفرت. ولو توفرت شروط لفظ غير «بخمسة آلاف» لكان قد تولد ذلك الغير.

وما مكن اللسان في حلم اليقظة من الاختلاج بـ«بخمسة آلاف» هو أنه اختلج منذ قليل الاختلاج عينه. هذا أولاً. وساعده على ترداد الاختلاج عينه أن النفس طامحة إلى عمل أوفر إنتاجاً من عمل صاحبها؛ وهي ميالة إلى بعض المبالغة في السعر كي تسد سريعاً عجزاً آخذاً في التراكم. ثم إن الخدمات مع كمية الغاز لا تقل قيمتها كثيراً عن ذلك السعر الذي حدده اللفظ.

من خلال هذه الأبواب المشرعة تمكن عضو اللسان وسائر أعضاء النطق التي تعاونه من استعادة حركة كانت تدور فيهما منذ قليل ولم تُمَل؛ اغتنم جهاز النطق هذه الفرص المجتمعة ووجب بحركة قد لا يكون وجيبها قد زال تماماً إلى الآن.

ولِمَ لا يكون ما يجري لعضو اللسان ولجهاز النطق مثلاً لما يجري للذهن؟ أليس حلم اليقظة كالنسخة عن حلم النوم ذاك؟ إن الحلمين يعبران عن هم واحد هو الوقوع في ضائقة مادية من جراء الحرب. كما يعبران عن سعي نفسي دؤوب للخروج من هذا العسر. ففي حلم النوم يحمل الحالم عجلة سيارته في سيارة نقل بالأجرة كي يصلحها. ومعنى هذا أن سيارته معطلة. ثم إن السائق قد فاجأه بارتفاع الأجر لينبهه إلى أن كل شيء قد ارتفع ثمنه ما عدا بضاعتك أنت، فكأنه معلمه. وهو معلمه بالفعل لأنه يقود به مركبه ثم إنه أي الحالم قد جلس في الخلف أي وراء هذا السائق المعلم. ولا يسع الحالم ادعاء الأبهة التي يدعيها مستأجر «التكسي» بجلوسه في صف خاص مستقل عن صف من يخدمه لأن عجلته المعطوبة فضيحة.

فمتى توفرت للخبرة اللغوية المكتنزة محركات نفسية تعادل المحركات الحسية اختلجت وصوتت سواء مع خيال اليقظة أو خيال الحلم.

«انتهى الأمر»

1 ـ (انْ) اختلاج ذهني بأثر من الزفير

اهتدى إلى طريقة يعالج بها تشنجاً أصيب به مفصل إبهام يسراه عند أصل الإبهام في الكف. فقد فرض على نفسه أن يدير إبهامه دورة فوهة الكأس فتتحاكّ العظام ويؤلمه تحاكها، ولكنه مع الأيام تغلب على الوجع وصارت دورة الإبهام أيسر ولم تزل طَرَقات العظام على العظام في المفصل المدار تتوالى كطلقات سبع تسمع من مدفع رشاش بعيد.

أدار اليوم إبهامه وطفر إلى وعيه لفظ تحرك في ذهنه هو:انْتَهَى = نْ + تـَ + هـ+ ا. ا. وفيما هو، الإدراك، يلاحظ تكون لفظ (انتهى) في الذهن قام في إثره، ومتصلاً به، لفظ (الأمْرْ) = لْ + ءـَ + مْ + رْ.

فقد رأى بعين وعيه جملةَ «انتهى الأمر» تتكون في اتصال على مراحل؛ ورأى في تكونها صورة من صور نشاط الدماغ في بناء الألفاظ والجمل لا تُفوَّت. صب كل انتباهه في فصول تكونها ووضع الصورة نصب عينيه خشية أن يفلت شيء من صيده الثمين.

رأى نَفَسَ الزفير يجري من المنخرين بيسر ولطف لكنه أحس اختلاجة جرس (نْ نْ) في جيوب أنفه تحت عينيه. ولولا الخجل من العلم لقال إنه أحس شيئاً من اختلاج هذا التنوين في عمق عضلات العينين نفسها. وما قبل النون أحس باختلاج هوائي هو ألطف من أن يسمى (هْـ) لارتياح هواء الزفير في مجاريه. غير أن الشهيق جاء أقوى من الزفير فحصَّل الإدراكُ جُرَيْسَ النون التنفسية وحَصَّل الهاء الخام بعيد النون مع مرور الهواء في فم المزمار. لم يخرج جريس النون وجريس الهاء الشهيقيان أو اختلاجهما عما كان منهما في وعيه للزفير.

إنه يذكر هذا جيداً ويذكر أن لفظ (انتهى) الذهني قد بدأ في الوعي بنون لا تتميز من نون قولك بصمتٍ: «انْتهى الأمر» (= نْتَهَى ألأمْرْ)، بسقوط ألف الوصل من (انتهى) ومن (الْ) التعريف في (الأمر). لكن الإحساس بهواء النَفَس الزفيري الميسَّر كان كما يكون مِثْلُهُ أوَّلَ النطق بأي حرف ابتدائي؛ هذا الإحساس الهوائي وعاه الإدراك في مطلع تكون النون الساكنة من لفظ (انتهى) الذهني. إنه اختلاج هائي يسير لكنه لم يكن في الوعي شيئاً من المعجم.

بيد أن الإحساس بجريس الزفير الهائي أو باختلاجه قد تميز من الإحساس بجريس الشهيق الهائي وباختلاجه تميزاً ضبطه الإدراك وعَيَّنه. هاء الزفير واختلاجها قد جريا مائلين إلى الكسر في اتجاه النون؛ فلو اقتصرتَ على عشر الـ (هِـ) وبدأتَ به (نْ) من (نْتهى) لحصلتَ على قدر ذلك الجريس الهائي الزفيري وقدر اختلاجه. بينما يفاجئك الجريس الهائي الشهيقي واختلاجه بكونهما موصولين بفتح شهيقي مشبع، كأن تقول أو تنوي أن تقول مع الشهيق لا مع الزفير: ها. الفتح طويل ويميل إلى التفخم. ونعرف في جبل عامل (ها) شهيقية تطلقها المرأة تعبيراً عن استغرابها واستنكارها لسلوك مستهجن فاجأها به بعض معارفها. ومع ذلك لم يتعين الجريس الهائي ولا اختلاجه الشهيقيان في الوعي بين حروف المعجم الذهنية.

فبغير وعي إذاً جمع العقل الصويتَ الزفيريَّ المعادلَ لهمزة الوصل المهملة إلى (نْ) من (انتهى): فهذا الصويت ضروري، كما يقول ابن جني، للنطق بأي حرف ساكن. وهو ضروري لا في المستوى التصويتي فحسب، بل في المستوى الاختلاجي الذهني للحروف الساكنة وفي المستوى الاختلاجي اللساني على السواء. جمع العقل هذا الصويت الخام المكسور في مجراه التنفسي بمثله المعجمي المكنون في الخبرة الدماغية أولاً ثم وصل هذا المجموع بـ (نْ) الزفيرية المحسوسةِ جرساً واختلاجاً في تجاويف الخياشيم، فتكوَّن لديه من هذا الجمع وهذا الوَصْل الجزء الأول من (انتهى) أي (انْ)، بدون همز الألف: (ـِ)+ (نْ) ← (انْ).

هذا المقطع اللفظي، (انْ)، ما إن اختلج في الذهن حتى انبجس، على اتصال واتحاد به، اختلاجاً (ـتَـ) و (ـهَى). وقامت (انْتَهى) في الذهن خلقاً سوياً.

2 ـ (ـهَى = ها) بين الاختلاج الذهني و (ها) الشهيق

إذا كان من المعقول أن تليَ (ها) الشهيقيةُ (ا) و (نْ) الزفيريتين، باعتبار إدراكِيَ (انتهى) قد بدأ بهما، فلماذا لم يقم في الذهن لفظ من الألفاظ البادئة بـ (انْها) كلفظ (انهارَ) و (انهال) و (انهاها)...؟ فقد لحقت فيها الـ (ها) بـ (نْ) على (ا) الممالة إلى الكسر كما تلاحقت جريساتها واختلاجاتها في الشهيق تلو الزفير: ا ← ن ← ها (←: اتجاه الاستقطاب).

لو حدث ذلك لاستغنى العقل عن التحرك بـ (ـتَـ) الواصلة بين المقطعين المحسوسين، كان استغنى عن القيام بمبادرة خاصة به، وهي حركة منه لم يستوجبها انفعاله بإحساس من أحاسيس الحركات الجارية بوضوح في جوارح النطق؛ فا (ـتَـ) من (انتهى) لم تكن ملحوظة الحركة في مخارجها الساكنة. فكيف ابتدعها وشبك بها بين (ان) و (ها)؟

ويزداد السؤال قوة بوعينا أن (ها) الشهيقية، جرساً واختلاجاً، لم يدمجها الإدراك بخبراته

المَجْنِيّة من (ها) اللغوية؛ ولم يكن اطلاعه عليها، بالتالي، متضمناً إعدادها من جنس الحروف، بل يراها خبرة حسية مباشرة يجتمع فيها الإحساس بحركات الهواء الشهيقي من خلال الإحساس بحركات مجاريه العضوية، اختلاجات هذه المجاري، والإحساس بصويتها الخام.

فلكي تصبح (ها) الشهيق حرفاً لغوياً يلزم العقل أن يضيف إلى وعيه لها بذاتها وعيه لها وهي تولِّد مُجانِسَها اللغويَّ في أعصاب المركز الدماغي اللغوي؛ يلزم أن يعطيها إدراكاً بأنها راهنة في وجودها وإدراكاً بأنها ذات وجود سابق في إطار الحروف المعجمية وإدراكاً ثالثاً بأنها الاثنان معاً في وقت واحد لكون اللغوي الواقع في إدراك الوعي له مركباً من شقين، شق يأتي من تجديد الدماغ لحركات كانت له بفضل خبرات سابقة، وشق يُوْلد من حركات الدماغ التي توجبها الخبرة الحسية الراهنة التي تمور في هذا العضو وذاك وتنتهي إلى الدماغ بأعصابه المتفرعة في هذه الأعضاء.

فهل كانت (هى = ها) من (انتهى) فعلاً عقلياً قائماً على نشاط أعصاب الدماغ مجدِّداً بخبرتها السالفة من (ها) اللغوية؟ أم اتحد الصوت الشهيقي الخام، (ها)، بمثل ذلك النشاط حتى برزت هذه الـ (هى) قطعةَ الختام من (انتهى)؟

حين يدرك العقل صوتاً خاماً مثل (ها) إبان الشهيق يمكن له أن لا يوحد بينه وبين مثيله اللغوي، يمكن أن لا يترتب على هذا الصوت الخام وعلى اختلاجه الخام نشوء قرينيهما الخبرويين، يمكن ألا تنشط الأعصاب التي تجدد الخبرات اللغوية السالفة بـ (ها) الخبروية لتلتحم في صورتيها بـ (ها) الحسية في الصورتين الصوتية والاختلاجية. يمكن ألا يحدث ذلك لأن (ها) اللغوية المكنونة في الأهلية الخبروية للأعصاب اللغوية الدماغية إنما هي محوطة بخبرة أخرى ملازمة لها في كنها وفي علانيتها. وهذه الخبرة الملازمة هي الوعي الخفي على عامة المتكلمين بأن (ها) المعجم تولد مع الزفير ونادراً ما تولد مع الشهيق. وإذا ولدت في الشهيق فلضرورات كالشـرَق أو الاحتضار، أو يولدها الممثلون في الأعمال المسرحية. ولذا لا يدرجها العقل بين خبراته بـ (ها) الزفيرية اللغوية. ولكنه من الأيسر على (ها) زفيرية خام أن تحرك الدماغ بخبرته السالفة من (ها) اللغوية فوق ما تحركه بها (ها) شهيقية خام. فالأولى تتضمن من (ها) اللغوية الإحساس الصوتيَّ إلى الإحساس الاختلاجي الطردي: رئة ← أنف، بينما تتضمن الثانية الإحساس الصوتي المعهود منقوضاً بإحساس اختلاجي غير معهود هو عكسية اختلاجه: أنف ← رئة (←: خط التتابع).

وقد يغفل الدماغ ضمّ وعيه بإحساسِ صوتٍ أو اختلاج لغويين إلى أهليته الخبروية

بأمثالهما لأنهما يكونان والوعي منصرف حتى الاستغراق إلى حقل يكون المعجم فيه ثانوياً.

أما وقد ولد في الذهن، رأيَ العين، لفظُ (انتهى) فإننا مسؤولون عن كيفية ضم العقل لـ (ـتـ) و (هى) إلى (انْ) التي رأينا جانباً من كيفية تكونها.

وليس في الوسع الإسراع إلى الحكم بأن (هى) من (انتهى) قد ولدت بفعل (ها) الشهيق مع أنه حكم مغر بفضل ما يوفره من الجهد اللازم لزيادة الاستقصاء. ليس في الوسع ذلك لأن الواقع يشهد دائماً بأن ما يترتب وجوده إثر وجود غيره لا يكون في الضرورة وليد ذلك الغير حتى وإن كان ذلك ممكناً ومتوقعاً. إن التصوير البطيء للحركات السريعة والمسافات الدقيقة يبين للمشاهدين أوهاماً بصرية كثيرة وقعوا فيها، وتفوق أوهامٌ غيرُها القدرةَ على الكشف.

3 ـ التحام (نْ) الأنفية بـ (ا) الحلقية في الزفير

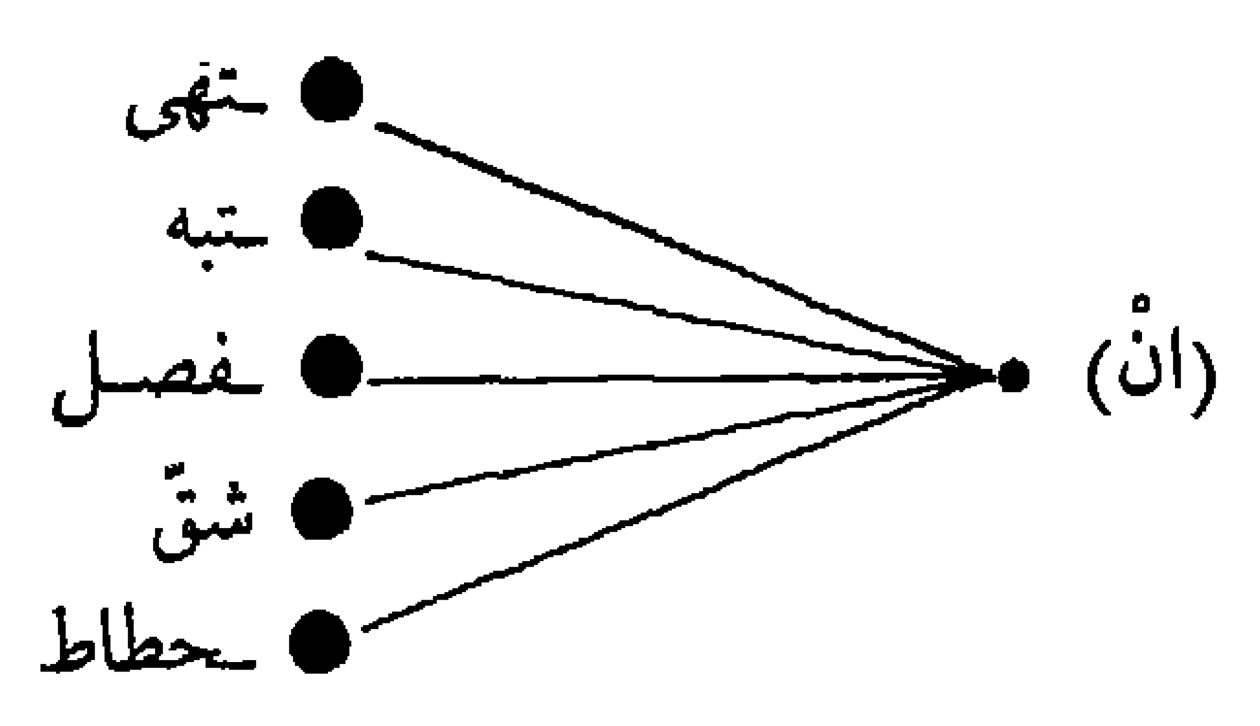
لا يبدو ممكناً حسم الرأي في تكون (ـتَـ) و (هى) من انتهى قبل استكشاف مبدئي لضرورات أسهمت في تكون لفظ (انتهى) ككل في الذهن.

صُوَيت الزفير الهوائي المعادل لبعض الألف الممالة غير المجهورة، التي تلتبس لعدم الجهر بصويت هائي مائل إلى الكسر، نحسه فرداً بين صويتات النفَس الزفيري. ونحس (نْ) الزفيرية فرداً آخر أبين بين جريسات النفس الزفيري هذا. ونحس أن الصويت الهوائي المذكور يندرج قبل (نْ)؛ ويلي هذه الصوتُ الزفيري الفائي من فتحتيّ الأنف الخارجيتين. ومن هذه الجروس عينها بنى اللسان العربي (أنف) و (هنف). والتهانف أول الضحك الممزوج بأصوات الزفير الأنفي وأول البكاء الممزوج أيضاً بهذه الأصوات. ، ومن هذه الحروف وتلك الأصوات بنت العامية الـ (نهفة) وابتنت الفصيحة (نوف) وغيرَها من الأخوات باختلاف جمع العقل لهذه الأصوات وباختلاف أداء اللسان لها معتبرين القلب والإبدال والزيادة والنقصان والتداخل بين العامي والفصيح.

وقد يمضي عمر وأعمار دون أن يلتفت عقل الناس إلى هذه المادة الصوتية الجارية معاً وتباعاً ولكن على تبعثر. بيد أن مَسَّ الحاجة يملي على العقل أحياناً واجب الالتفات إلى ما بين يديه من مادة صوتية فلا يوفَّق أو قد يوفق إلى صناعة لفظ من لفيف الأصوات الخام الواقعة في حقل اطلاعه. وأحياناً يفرض البعض من تلك الأصوات على العقل القيام بتأليف وحدة عقلية منها. وكل صغيرة لغوية وكبيرة هي وحدة عقلية. فهو إذاً يشتغل بدافع من الحاجة الإنسانية مرة وبضغط من الرسائل التي يتلقاها بطيب خاطر أو رغماً عنه. إذ إنه لا يملك القدرة على رد الرسائل القوية. وأحياناً يسعى إلى التأليف من مثل الهباء لأن ذلك من اختياره. وقد تتضافر هذه

العوامل الثلاثة في عمل العقل وقد تتضارب.

فما هي الحاجة التي جعلت عقل ذاك المرء يضم صويت الزفير الهائي أو الألفي الخام إلى صوت (نْ) الأنفي الخام ويستولد بهما من خبرته اللغوية وحدة اختلاجية لغوية تماثل وحدتهما في (انْ) ويستفز بها متمِّماً بعينه هو (ـتَهى)، مع أن لِـ(انْ) آلاف المتممات في اللسان العربي الدارج والفصيح؟ ومنها ما يتمم بَدْءاًومنها ما يتمم وسطاً وختاماً. ومتمماتها الختامية على غرارها في (انتهى) تكون في مثل الصورة التالية:



ومتمماتها الوسطية تظهر في مثل (هندام) و (منقار) حيث تفيد (نْ) جزءاً من كسر ما قبلها:

هندام = هـ + ـِ + نْ + د + ا + م
منقار = م + ـِ + نْ + ق + ا + ر

أما متمماتها البدئية فتظهر في كل لفظ ينتهي بنون ساكنة يتقدمها صامت مكسور مثل (مؤمِن) و (يُعْلِن) و (لا تَسْتَمْنِنْ).. حيث تفيد (نْ) كذلك شيئاً من كسر ما قبلها:

تستمنن = تـ + ـَ + سْ + ـتـ + ـَ + مْ + ـن + ـِ + نْ

فالنون الأخيرة نحتاج في لفظها إلى طاقة زفيرية، فتأتيها في الدرج من هواء حركة ما قبلها، وبهذا تلبي كسرة (نِ) الحاجة إلى لفظها وإلى لفظ النون الساكنة التي تليها: (ن) + (ـِ) + (نْ) =

(ن)(ـِ)(نْ)

النون المنفرجةُ عقدةُ مخارجها على الكسر تنكسر، والكسر المتصل بانعقاد مخارج النون التالية يتحد في جزئه الأخير مع الصامت الذي صار إليه، فيجتمع في وحدة (نِنْ) جزء أول، هـو (نِـ) بكسرة جزئية، إلى جزء لاحق هو (ـِ ن) المؤلف من جزء الكسرة الثاني ومن صوت النون الساكن. والكسرة التي عشقت ما قبلها وما بعدها ليست مقطوعة فصلين، بل هي وحدة

متصلة توحد بين صامتين كالجسر الذي يوحد ضفتين أو كالخليج العربي من جهة الفارسي من جهة؛ فإنه واحد في العين والنفسُ منقسمة فيه على رغم ذلك.

فمع اعتراف اللغويين قديماً وحديثاً بأن الحركة التي تلي الصامت هي حركته وأنه يُلْفَظ بها فقد أهملوا الكشف عن الحركة اللازمة للفظ صامت ساكن يقع بعد حركة الأول. فالحركة هي المنفذ إلى وجود الصامت أو منفذ الصامت إلى الوجود، وبين الحالين فرق.

وما دام جريس (نْ) المحسوس في مجراه الأنفي غير لغوي فإنه يحس فرداً بذاته وفي اللحظة التي تعين عليه أن يندرج في الإدراك بين الوحدات اللغوية العقلية اتخذ من حركة الصويت الهوائي المحسوس في مجرى الزفير حركة له وصعدا من الإحساس الاختلاجي ـ الصوتي الخام واستفزا متممات لهما متلاحقة وكونا معها (انتهى). و(انتهى) ظلت ساعية في العصب الدماغي كتيار في سلك حتى نبض العصب أو اختلج بـ (الأمر) حالَ فراغه من انتهى. ولعل الصورة أوضح في اشتعال العُقَد من إصبع من أصابع الألعاب النارية. فما إن تثور عقدة باشتعال الحشوة وتظن أنها همدت حتى تثور العقدة اللاحقة واللاحقة في مثل الجنون إلى آخر العبوة الماضية في اضطراب. فهي حركات جزئية متصلة لتؤلف حركة كلية أكبر.

4 ـ «انتهى الأمر» بيان لمؤتمر نفسي ـ عضوي

4 ـ على هذه الصورة كانت (ا ن) اختلاجاً في أعصاب الدماغ وولَّدت اختلاج (تـَ) و(هى). والوعي يرى اختلاج الأجزاء واختلاج الوحدة المؤلفة منها أي (انتهى)، ثم اختلاجَ (الأمر) في المستوى الذهني عينه.

لكن مجرى هذه الأحداث لم يكن معزولاً عن مجريات الشاغل النفسي. فإدارة الإبهام وتفقّع العظام في مفصله يتعلقان بسلامة الأعضاء، وصاحب هذا التمرين يراقب التطور الصحي في مفصل إبهامه. فقد وعى خلاصة التمرين واستقر على شعور وحكم. فما دام مفصل الإبهام يقبل الحركة الشافية ويسجل تحسناً ملحوظاً فإن الشفاء آتٍ. ورؤية الشفاء حاصلاً ولو في المستقبل تتضمن رؤية العارض الصحي قد انصرف أو رؤية الأمر قد انتهى. هذا الحكم وهذا الشعور اللصيق به أوجبا اختلاج أعصاب الدماغ بالعبارة المناسبة لهما. لكن العقل الذي كان منتبهاً إلى الذات، إلى الجسمِ والنفس، كان يستقبل، إلى العديد من الرسائل، رسائل الأنفاس الصوتية. فهو لذلك متهَيِّىء، كيما تختلج أعصابه بعبارة الحكم والشعور حول صحة الإبهام، لتوليف جملة اختلاجية تنسجم فيها اختلاجاته الناشئة من الشعور والحكم مع اختلاجاته الناشئة من الرسائل الصوتية الاختلاجية الحسية الأنفية والفموية، خصوصاً وأن هذه

الأصوات الفموية الأنفية الخام واختلاجاتها على تماس مع أخواتها اللغوية التي يحتفظ الدماغ بالكفاءة على تجديد خلقها لطيلة ما خبرها واشتغل بها وانشغل.

هذا الواقع النفسي اللساني العقلي حرّكَ أعصاب الدماغ باختلاجة القول الذهني «انتهى الأمر». ولكن تفاصيل العملية لم تستوف كلُّها بعد.

ليس من مشكلة في اختلاج الدماغ بـ (الأمر) لأن (انتهى) تشير، بما فيها من وعي عياني للمنتهي، إلى عينية ذلك الأمر. بلى، هناك مشكلة من نوع آخر هي دعوة العارض الصحي باسم مستعار هو (الأمر). فالأمر هو واحد الأمور وهي الأحداث والأحوال الجارية. وإطلاق اسم الأمر على علة الإبهام هذه هو من نوع تسمية الخاص باسم عام. كيف قبلت النفس وكيف قبل العقل وكيف استجابت أعضاء النطق لأن يتولد تعبير (الأمر) كاسم لتعقد حركة المفصل؟

لقد بدأ التواطؤ بين النفس والعقل والجسد منذ قام في المستوى اللغوي تركيب(ان)من (انتهى). بل إن هذا التواطؤ كان قد بدأ مع بدء الاهتمام بتمرين المفصل. الشاغل النفسي الآني هو صحة هذا المفصل. والإرادة تحرك الإبهام الحركات التي ارتضاها العقل علاجاً. والعقل والانتباه يراعيان مجرى التمرين، والعقل يستنتج ما يسفر عنه هذا التمرين. والشعور مرهون بالنتيجة. والحقل اللغوي الذهني ينشط في إطار التمرين وما يسفر عنه. والأنفاس واختلاجات اللسان في وئام مع هذا الركب. وكل طرف من هذه الهيئة الكبيرة التي تعقد مؤتمرها يسهم بعمل ويكون على حال. والبيان الختامي اللغوي الذهني يفترض أن يأتي معبراً بدرجات عن إسهام الأعضاء وعن أحوالها.

فهل كان البيان المؤلف من جملة «انتهى المهمة التي كانت الإرادة تنفذها. وتفيد أن العقل قد حكم بذلك بعد اطلاعه على مجرى التمارين وعلى نتائجها المقومة. وتفيد كذلك أن الشعور الذي كان مزيجاً من الخوف والأمل قد ذهب منه الخوف وأصبح على انفراج، كأنما في «انتهى الأمر» شيء من تنفس الصعداء. و«انتهى الأمر»، بالنسبة لنشاط الحقل اللغوي الدائر في إطار المعالجة، هي اختلاجه المبين. فهو الناطق باسم المؤتمر النفسي الجسدي. وأعصاب المركز اللغوي الدماغي التي تنتهي إليها المعلومات والخلاصات تتمخض ـ ولا بدّ ـ عن موجة اختلاجية هي جملة اختلاجية لغوية، ولا تكون كذلك مالم تكن أهلاً للسريان المباشر في أعصاب الأعضاء النطقية. ولكي تيسر أعضاء النطق مرور الاختلاج اللغوي الدماغي في شبكة أعصابها المنتشرة في أنسجتها المختلفة يُشترط في هذا الاختلاج الانسجام مع مكنة هذه الأعضاء وراحتها، وإلا عرقل اللسان وصحبه من أعضاء النطق سوية الجملة اللغوية الاختلاجية العقلية كل العرقلة أو بعض العرقلة. وينتج عن اختلاج اللسان بغير ما أجرى فيه العقل من

اختلاج ارتباك للعقل وعسر في فهمه لذاته؛ كما ينتج عن ذلك ظهورُ قصورٍ في أداء مهمة اجتماعية لا يستوي ميزان الفرد في المجتمع وهي مختلة، تلك هي مهمة السوية اللسانية. فما لم تنسجم اختلاجة أعصاب الدماغ اللغوية المرشحة دائماً لعبور اللسان مع الاختلاج اللساني، الذي يطيب لعضو اللسان وسائر الهيئة النطقية، فإن العواقب وخيمة.

5 ـ تواطؤ ذهني لساني بغية اختلاج لغوي مشترك

فاللسان وسائر أعضاء النطق هما الهيئة التنفيذية لمشاريع العقل اللغوية، لذلك يأخذ العقل في الحسبان مسبقاً مدى استجابة اللسان لرسالته قبل أن يقدم على إجراء أي حرف فيه. وهو في ذلك كرأس السلطة الذي يراعي قدرات هيئاته التنفيذية على تنفيذ قراراته قبل أن يصدر تلك القرارات. ويحتال كما يحتال ويمالىء كما يمالىء.

هذا الواقع القائم في علاقة العقل باللسان من جهة وبالمشاغل التي تشغل النفس بإشرافه من جهة ثانية يدلنا على كيفية حدوث الاختلاج اللغوي في المستوى الدماغي بالانسجام مع الراهن اللساني إبان تكون رسالة العقل الاختلاجية. وبه تتبسط السبل أمامنا لحل المعضلات الباقية من الجملة الاختلاجية الذهنية التي تعنينا أي «انتهى الأمر».

فقد رأينا أن الإحساس كان يقع على (ـِ) الزفيرية وعلى (نْ) الزفيرية وعلى (ها) الشهيقية. ورأينا كيف بنى الذهن بأثر من الأوليين اختلاجاً لغوياً ذهنياً هو (ان) كالتي في (انتهى) بلا همز. ورأينا أن هذه الوحدة الاختلاجية قد حركت أعصاب الدماغ باختلاج مكمل لها هو (ـتهى)، وأن الاختلاجين التحما في وحدة أكبر هي (انتهى)، وأن اختلاج (انتهى) ولَّد دون لبث اختلاج (الأمر). واستوى في الوعي جملة اختلاجية لغوية ذهنية هي (انتهى الأمر) = (نْتَهَلأَمْرْ). ولولا طول فتحة الهاء كانت الكلمتان كأنهما واحدة. لكن الفرق ما بين فتحة الهاء والفتحة العادية وما بينها وبين الألف طولاً وقصراً قد مكن من ملاحظةِ فترةٍ بين الهاء واللام هي الفترة التي يعيها المتكلم والسامع ما بين كلمة وكلمة في السياق. (متى) تنزل تصر الكلمتان كلمة.

فكيف استكمل العقل هذه الوحدة الاختلاجية الطويلة؟ كيف ضم إلى اختلاج (ان) اختلاج (ـتَـ) و(هى)؟ وكيف ضم إلى كل ذلك اختلاج (الأمر)؟

فالعقل يحيط في الواقع بالموقف الجامع ويتلقى الرسائل من أعصاب الإحساس في مفصل الإبهام ومن أعصاب الإحساس في جهاز النطق ويطلع على المشاعر المتكونة وعلى الخيال المُواكب. فقد أشرف على الحكم وأمامه (ا) الزفير و(نْ) الزفير و(ها) الشهيق. ولم

تكلفه الـ (ا) والـ (نْ) سوى فتح الباب أمام الإحساس بهما على معمله اللغوي أو على المركز اللغوي الدماغي. فلهما فيه خبرة قوية راسخة يكفيها لكي تختلج اختلاجها بهما أدنى استشعار لصوتهما ولاختلاجهما في الحلق والأنف واللسان. ويبدو أن الحاجة قد شرعت الأبواب وتكون في الذهن من المادة مقطع لغوي هو (ان). لكن هذا المقطع المتصل بالشعور بنهاية الأزمة الصحية، أو بداية نهايتها، قد نحا به العقل النحو المناسب لتكوين كلمة مناسبة للمعنى الذي بات واضحاً. ولا ننسى أن (ها) الشهيق حاضرة في الحس المفتوح على المركز اللغوي الدماغي ومتواصلة فيه. فالعقل الآن بين المعنى الناجز والمقطع اللغوي الذهني الناجز (ان) وبين (ها) الشهيق. فماذا ينتظر حتى يقلب (ها) الشهيقية إلى (ها) الزفيرية ليكون لديه مقطع لغوي ذهني آخر في مقابل (ان) وعلى هذه الصورة:

(ان)... (ها)؟

ما إن حوّل (ها) الشهيق إلى عنصر لغوي في مقابل (ان) حتى استَكْمَل اللفظَ المناسب للمعنى المعقول بارتجال المتمم (ـتَـ)؛ ارتجل (ـتَـ) ونزَّلها بين (ان) و (ها) بسرعة فائقة وبلا وعي منه لما فعل. فهل أغفل استمراء اللسان لهذا العنصر الذي كان غائباً عن الحس الاختلاجي اللساني وعن الحس الصوتي؟ أم راعاه واسترضاه؟ إن الفم كان مقفلاً واللسان في هذا الوضع يطاول مخرج التاء. ولعل الشعور بمعنى انتهاء المشكل الصحي كان موجباً لحركة لسانية معينة كالهمة ببلع الريق، أو لعل الشعور بتأخر اللفظ عن المعنى أوجب اللسان بمثل تلك الحركة. وأقل وجيب لمخرج التاء، مع انفتاح الباب بين الإحساس الاختلاجي اللساني الخام والمركز اللغوي، هو كافٍ لنشوء اختلاج ذهني تائي. فالزفرة العادية تدفع باللسان للقاء مخرج التاء فيختلج هذا بدقة.

وقد جاء اختلاج التاء الذهني مفتوحاً ومرصوصاً مع اختلاج (ها). فإذا لم يكن ذلك الفتح بالإفادة من فتح (ها) فإنه يمكن أن يكون المقطعان قد تولدا معاً. لقد قام اختلاج الذهن بـ (ـتها) واحداً في حدود الوعي العيني مع أنها ليست لفظاً عربياً. ولكن ليس عسيراً على العقل الذي يولد بالجزء متممه أن يكون قد ولد (ـتَهى) قطعة واحدة وضمها إلى الأساس وفقاً للمعنى المتصور الذي ينشد اسمه، ما دام اللسان في الحركة الاختلاجية المناسبة تماماً لـ (انتهى).

6 ـ خزانة الدماغ الاختلاجية، برنامج الكلام

وبعدما استبانت جملة انتهى الاختلاجية تلتها جملة (الأمر) وكونتا جملة «انتهى الأمر».

وكل ذلك موافق لما في العقل والنفس واللسان.

وهذا يدل على أن العقل يؤسس في أعصاب المركز اللغوي خبرات اختلاجية لغوية دنيا هي الحروف الاختلاجية وما دونها وظيفة، وأخرى مقطعية وثالثة جزئية أكبر من الأولى ورابعة من لفظ واحد وخامسة من لفيف لفظي وسادسة من جملة. ويجمع حين تدعو الحاجة أي وحدة من هذه الوحدات مع غيرها، ويضم بالتسلسل أي مجموعة إلى أخرى، كما أنه يطرح بعضاً من بعض ويبدل في الترتيب والتركيب ويبتكر وحدات ويستنبط غيرها ويسقط ويستبدل ويضع قبعة هذا على رأس ذاك... ولكنه لا يغفل الجسد والنفس والمجتمع ولا يغفل ذاته في أي حال.

إن (ـتَهَى) من وزن (نَهَى) وبعضهم قال هو وزن (فَعَى) بدلاً من قول الآخرين بأنه وزن (فَعَلَ). والأوزان الشعرية والنثرية تقوى أحياناً إلى حدود الاجتزاء من وحدات المعجم وحداتٍ جزئيةً لا يتبينها العقل لولا السياق: «حدثنا»← «ثنا». (راجع: حرف الألف اللينة، لسان← العرب).

يمكن للعقل إذاً أن يبتني بناء للوزن وغيره خزانة لأجزاء الألفاظ القصيرة والطويلة وأن يكمل هذه بتلك وتلك بهذه ويرغب في أن لا يعيد صناعة قطعة الغيار التي سبق له أن صنعـها. وهذا ظاهر في العقل العملي ومستمر. فهو يصنع من الوحدات الدنيا وحدات وسطى ووحدات كبرى. وقد يصنع الكبرى من صغرى ووسطى. وهذا بين في الأعداد وفي الموسيقى وفي كل عمل عقلي وجسدي حالفه النمو والاستمرار وكثر طلبه. وهو ما بان في جملة الاختلاجات الذهنية المقروءة في صورة (انتهى الأمْر) على:

وحدة صغرى		وحدة صغرى		وحدة وسطى
ا	+	نْ	←	ان
ـتـ	+	ـَ	←	ـتَـ
هـ	+	ا	←	ها

فالكلام كله من اختلاف تركيب عنصريِّ الحركة والسكون وأعدادهما.

لكن العقل الذي تمكن من صناعة هذه الوحدات الوسطى واغتنى بها وتمرس في استعمالها المتعدد الأشكال والأساليب لم يعد يدرج درجه الأول في توليدها. فقد وكزته حركتان زفيريتان فقرأ: (ان)، ووكزته هذه و (ها) الشهيق فقرأ: (تها) موصولة بـ (ان)، ورأى المجموع في وحدة وقرأ: (انتهى). (انتهى) قامت في أعصاب دأبت على التحرك بها وبلفظ يألفها هو (الأمر). وهذا التحرك العصبي المؤلف من اختلاج (انتهى) موصولاً باختلاج (الأمر) صار جملة حركية واحدة ذات وجود مستقل عن وجود أجزائها. ويمكن أن يكون لها أعيرة في أعصاب الدماغ ومفاتيح كالحالة النفسية وكاختلاج أحد أعضاء الجسم بصورة مماثلة لاختلاجها الجزئي

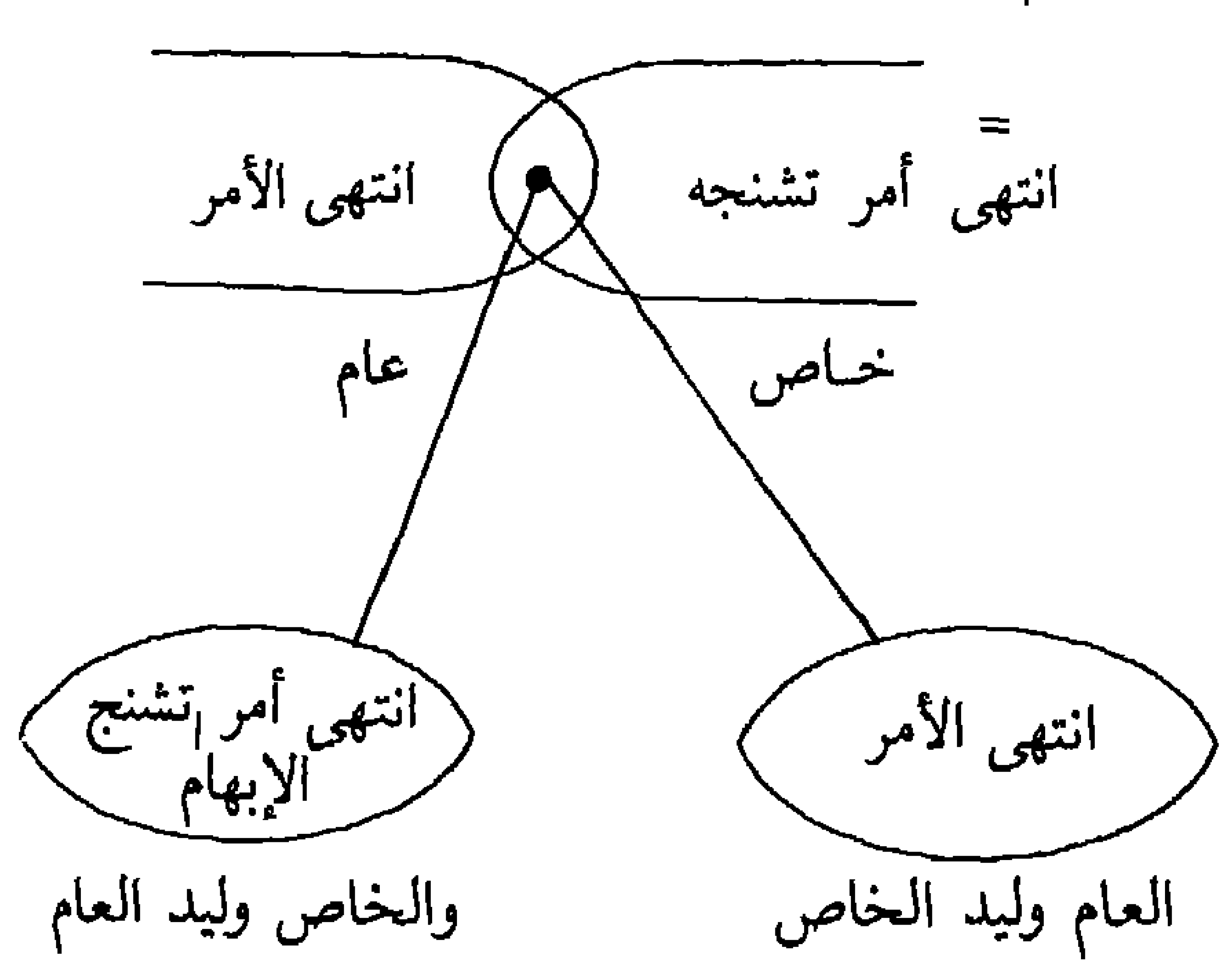
أو الكلي شرط أن تُعقل الصلة، وكالتصويت بصوت يماثل جملة صوتها أو بعض أجزائه، وكالمعنى الذي فيها أو بعض عناصره.

تعيش هذه الجملة الاختلاجية ما دام لها في الحسبان العقلي حاجة، وما دامت من لوازم حركات نفسية فردية واجتماعية وما دامت مولِّداتها في أهل اللسان فاعلة. فهي كالأمثال وكالقواعد العلمية تولدها بذورها وفروعها. وهي كالجنس من الشجر الذي تجدده أفراده بالبذور والأغصان والخلايا الوراثية.

7 ـ ما للمتكلم من كلامه وما للسامعين

«انتهى الأمر» هي من العبارات الجاهزة، والتي هي لذلك عبارات مجازية بكمالها أو ببعضها. فكلما انطلقت في المستوى الصوتي الاختلاجي أو الخطي أو الشفروي إنما تنطلق من حقيقة قد تكون هي ماهيتها وقد تكونان في دائرتين متقاطعتين.

شفي مفصل الإبهام من تشنجه



الفنون تقول الخاص وتقصد العام، والأمثال تقول العام وتقصد إلى الخاص لأن العقل والنفس يذهبان بالفن إلى الكوني ولأن إطلاق المثل، وله ماله من عمومية، يحرك العقل للبحث عن مجسِّده في إطار استعماله عندما يستعمل. وبهذه الازدواجية يؤمن القول المأثور، سواء أكان مثلاً سائراً أم تعبيراً مبتكراً أوشائعاً، رضى القائل ورضى أهل ذلك القول.

ورضى القائل يعني رضى نفسه وعقله وجسده إما بالتعادل وإما بالتفاوت. والتفاوت في رضى النفس يشبه رضاك عن وضعك القولَ المأثورَ في وضعٍ يناسب الحال الراهنة التي أنت فيها

ولا يناسب مصالحه اللاحقة. كأن يقول لك الحاكم:

إن الـزرازيـر لمـا قـام قـائمهـا   تـوهمتْ أنهـا صـارت شـواهينـا

ُفتـرد عليه وتنال منه بقول مأثور:

نـامت نواطيـر مصرٍ عن ثعـالبها   فقـد بَشِمْنَ ومـا تفنى العنـاقيـدُ

فيضمرها لك ويقسو عليك في الحكم فيثقل قولك على جانب من نفسك فيّ حين كان لاذًا لجانب آخر.

أما التفاوت في رضى الجسد فقد ينجم عن تدفق الصوت تدفقاً يريح الرئتين ولكنه يزعج الحنجرة والأذنين. أو قد ينجم عن طيّ الكلام في حبس الاختلاج واللسانُ تواقٌ إلى ترداده والصراخ به وهي حال الأولاد في المدارس وسائر الناس في المواقف المهيبة والمؤدبة.

والتفاوت في رضى العقل يكمن في اختلاف الحساب وفي اختلاف الآفاق، حيث ينقض حكماً بحكم ويحكم على نفسه بمحدودية الرؤية، وقد يصير في نظر نفسه موضع تهكم: عشت أيها الأبله، الحمار ما سبقك عليها! وقد يتمثل العقل المقصر، لوماً لذاته على تقصيره، بالآية:

﴿إنَّ شرَّ الدوابِّ عند الله الصمُّ البُكمُ الذين لا يعقِلون﴾.

ويكون رضى الجماعة في كل قول ينتهي إليهم موفوراً أو منقوصاً؛ أو هو موفور في بعض العقل والنفس والجسد أو منقوص في بعضها. فقد يأتي خطيب ليجرف الناس بلسانه، فيصمون آذانهم عن خطبته البليغة لأن صوته المنكر يصعق في الصميم. وقد ترى فئة أرضاها كلام وفئة لم يرضها. وترى الفرد الواحد راضياً من ناحية ساخطاً من ناحية. وحاصل الرضى والسخط يَنظِم الناس بين موالين بدرجات ومعارضين بدرجات أو لا مبالين.

أوتفيد هـذه المعالجة العسراء أن أمر «انتهى الأمر» انتهى؟

1 ـ الأعضاء تخل بتنفيذ الرسائل الدماغيّة

بعد أن يختلج الذهن بجملة لغوية فإن هذه الجملة تجري في اللسان وسائر أعضاء النطق مجراها النطقي المصوّت أو مجراها الاختلاجي الصامت. فإذا ما شرعت تنساب في اللسان يمكن أن تظل تحت رقابة العقل لضمان استمرارها وسلامتها ولتفحص صلاحها للتعبير عما يريده صاحبها وللاطمئنان إلى فعاليتها في ما يخدم إرادته. كما يمكن أن يتركها العقل تجري في اللسان لينصرف إلى النظر في موضوع آخر كان يشغله أو بدأ يشغله . وفي هذه الحال يمكن أن يؤدي اللسان رسالة العقل اللغوية كما قررها العقل في الفرع العصبي الذي يحرك اللسان وجهاز النطق بجملة من الحركات تطابق حركات الرسالة؛ بل إن هذه الجملة من الحركات هي نفسها الرسالة الذهنية في الحيز اللساني ، هي الرسالة في صورتها الاختلاجية اللسانية سواء نتجت عنها طاقة تجدي في السمع الرسالة الصوتية والاختلاجية السمعية أو لم تجد صوتاً من هذه الرسالة؛ وقد تحدث في اللسان فترة وتراخ فلا تتم الرسالة اللغوية الموكلُ أداؤها إلى اللسان كما قررها العقل . فقد يطرأ تشويش ، وقد يطرأ انحراف، وقد يطرأ علو أو خفوت ، كما قد يطرأ إسراع أو إبطاء، وقد يطرأ انقطاع ختامي ، وقد يطرأ تشعب وانفتاح على مقرَّر ليس من عناصر الرسالة.

هذه الأشكال من الخلل قد تطرأ على كافة الرسائل الجارية في الأعضاء ومُنْطَلَقُها النفسُ أو الجاريةِ في النفس ومنطلقُها الحواس، أو الرسائل التي تمازجَ فيها الحسيُّ والنفسيُّ، سواء ما كان منها رمزاً أو ما كان ذاتاً في الإدراك لا تجيزه عن حالها إلى سواها.

وليس من العسير ملاحظة أشكال الخلل التي تنتاب الرسائل المنطلقة من الدماغ لتجري في بعض الأعضاء على الصورة المرسومة إبّان إطلاق الدماغ لها. فالعقل يعرف حقيقة الرسالة المنطلقة من الدماغ ويطّلع عليها في مجراها في العضو المكلف أداءها من خلال الرسالة التي تعود بها أعصاب الحاسة المختصة من ذلك العضو. فهو يرى الرسالة كما صاغها الدماغ ويرى صورتها كما نفذها العضو الموكل إليه أمر تنفيذها أو تعبيرها ويرى مدى التطابق والاختلاف بينهما. وليس هذا الاطلاع العقلي على الرسالة العقلية وصورة تنفيذها محصوراً بين الشخص ونفسه إلا في بعض الأمور. فنحن نرى شخصاً يمدّ يده ليأخذ معجون الحلاقة فإذا بيده تأخذ

معجون الأسنان. ويفتح قمع معجون الأسنان ويمد منه على ذقنه قدر أنملة هنا وأنملة هنا وعيناه تريان لوناً غير لون صابون الحلاقة وتريان حبلاً أدق من حبل معجون الحلاقة؛ كما أن الإحساس بمعجون الأسنان في جلد الذقن مختلف عن الإحساس بصابون الحلاقة. ونراه على الرغم من ذلك يبعث اليد فتأخذ فرشاة الحلاقة وتبللها بالماء وتعود بها إلى الذقن تحف بها الصابون/ المعجون لترغي فلا ترغي. وهنا ينتبه العقل مع جفلة: كل الردود من الرسائل السابقة كانت ممكنة الهضم، أما هذه الرسالة فاختلافها نافر عما توخاه العقل من تحريك الفرشاة بالمعجون على الذقن.

والكاتب الذي يخط ويغير حرفاً خطته يده يدلّك بذلك على أن دماغه أفتى ليده بحركة فيها رسم يتوخاه، فتحركت اليد حركات أدت رسماً آخر. وليس من الضرورة في شيء أن يعول العقل على جواب العين، فإنه يستطيع أن يدرك أن اليد لم تتحرك الحركة التي رسمها وأجراها فيها. والعين نفسها تتلقى رسالة من الدماغ على صورة فتأتي حركة على غير صورة الرسالة فيدرك العقل أن الحركة ليست هي الحركة التي رسمها الدماغ وأجرى مقررها في بريده العصبي. يدرك ذلك من اطلاعه على حركة العضو التي كانت رسالة جوابيةً آبت بها عيونه الأمينة.

فكل هذا من لغة العقل الذاتية والعامة: رسالة الدماغ إلى العضو كي يتحرك بمقتضاها هي جملة الرموز التي يفهمها العقل؛ وردُّ العضو على الرسالة التي استقبلها من الدماغ هي المعنى العيني لجملة تلك الرموز مجسَّداً بالحركة العضوية. وإذا لم تثمر ما رجاه العقل منها من فائدة وكانت هي المطلوبة بالرسالة الدماغية فإنها مقبولة على أنها هي ولكنها توجب تغييراً في الرسائل اللاحقة يستتبع تغييراً في الجواب ليكون منه نفع مقصود. أما إذا عاد جواب الرسالة من العضو على غير رسمه المقرر فإنه لا يعتبر المعنى الذي يجلو جملة الرموز وإن جاءت فوائده خيراً من فوائد الجواب المرسوم. وفي هذه الحال أيضاً يعدِّل العقل في الرسالة الدماغية اللاحقة ليكون تحققها في حركات الأعضاء أجدى للنفس في ما تقصد إليه.

2 ـ عيار الكلام الذهني

إن النائم الذي يرى في حلمه أنه طرد بيده بعوضة جاءت تمتص دماً من ولده ولا يحرك يده الحركة التي تكون في الواقع لهو يحس بالفعل أن رسالة الدماغ الموجِبة على اليد مثلَ تلك الحركة قد مشت في اليد؛ ولكن ذلك يكون اختلاجاً كاختلاج اللسان الذي يتحرك حركات كالتي يكون بها الكلام ولكن دون أن يسمع شيئاً من هذا الكلام. فهل يصح أن نقول: المعنى

من الكلام الذهني هو اختلاج اللسان بهذا الكلام؟ عند العقل عيار لوزن الكلام الذهني هو هذا الاختلاج اللغوي اللساني المبين لصاحبه وغير المبين لغير صاحبه. لكنه يصبح مبيناً لأهل اللسان حين يتولد عنه أصوات مصوغة في كلام يوافق كلامهم. ويصبح الكلام الذهني مبيناً لجميع الناس حين يرون أن صاحبه في موقف وفي هيئة وتند عن فمه حركات تولد في أسماعهم أصواتاً، عندها يتصورون أنفسهم في ذلك الموقف ويتمثلون هيئة صاحبه ويترجمون حركات شفتيه إلى حركات شفاههم ويحكمون بأنه يقول، فيما لو رأوه على أطلال بلاده: آخ يا بلادي!

فالمعنى الذي ننتزعه للكلام هو ما تنتزعه هذه الحاسة وتلك من آثار الكلام سواء في صاحبه أو في محيطه. فإذا طلب إليك أحدُهم طلباً ورفعت برأسك، فقديعني رفعك برأسك أن لا. وإذا كنت تباشر رفع رأسك تقول إيماءً: لا، وانسابت عيناك قبل تمام الرفع مع مشهد قضى بأن تميل برأسك يميناً ألست كأنك كنت ترى دماغك يفضي إلى لسانك بالقول: «ليسَ لي قُدْرَة على عَمَلْ أكثَرْ من ذلكْ»؛ ففوجئت بأن الاختلاج اللسان بهذه الجملة قد فرَّخ قبل تمامه ومن صلبه اختلاجاً فرعياً لم يكن من رسالة الذهن الكلامية على الإطلاق؟

إذا انعطفت إيماءتك بعد أن سَبَكَ الدماغ رسالته وشرع يجريها في العضو المومأ به، إذا انعطفت والعقل لاهٍ بشاغل آخر بعد وثوقه من سلامة التنفيذ المباشر فإنما يعني أن حركاتٍ قد طرأت على جملة حركات الرسالة المقررة وغيرت في تركيبتها؛ أضافت عناصر لم تكن في مرسوم الدماغ وأحدثت فصلاً بين عناصر الرسالة المرسومة؛ أو قد تتغير تركيبة الرسالة بحيث تتألف رسالة جديدة بجزء من الرسالة التي كانت آخذة في التحقق وبجزء اندس بصورة طارئة سواء من النفس عبر أعصاب الدماغ التي تحررت من رقابة العقل المنصرف إلى موضوع ثانٍ، أو من العضو المنفذ وهو لا يخلو من الحركة. فقد تكون الرسالة الدماغية الواعية بالنفي عبر رفع الرأس جارية مجراها، ومع مجراها انتاب الدماغ إحساسٌ من العنق يفيد الارتياح إلى رفع الرأس، فارتفد هذا الشعور باستجابة الخبرة الدماغية المكنونة المماثلة له، فأدى ذلك إلى تدعيم رفع الرأس للراحة من إحنائه، وواصلَ الرأسُ ارتفاعه استجابة للشعور بالارتياح، مما قد يؤدي إلى تحول إشارة النفي برفع الرأس إلى حركة استراحة للعنق من تعب الانكباب على عمل ما، أو تحولها إلى إشارة اصطلاحية غرضها الأول إعلام الآخر بحلول وقت هذه الراحة مع ما في الإشارة من راحة. فقد كنا ننفذ رسالة مقررة معلومة العناصر الحركية في ترتيب متسلسل وأقيسة محددة بحيث لا تخطىء الرسالة مرماها فإذا نحن في حركات استراحة للعنق تكون عادة برسالة مختلفة من الدماغ، أو نجدنا في مجرى أداء إشارة أخرى كانت تستوجب من الدماغ تحرير رسالة خاصة لتكون هذه الإشارة التنفيذ لها.

اختلاج الجارحة العضوية بحركات تنسجم في رسالة إيمائية اصطلاحية هو من نوع الحركات الاختلاجية اللسانية التي تنسجم عناصرها في رسالة دماغية اصطلاحية تؤدي كيانها وتؤدي معنى آخر يُبلَّغ للذات دون سواها بالاختلاج اللساني الصامت ويُبلَّغ لأهل اللسان بالاختلاج اللساني الذي يثمر الأصوات في أسماعهم ومداركهم. وكما يدخل في اختلاج الإشارة اختلاج دخيل يدخل في اختلاج العبارة اختلاج دخيل. وقد يؤدي هذا الاختلاج الدخيل بكل من الإشارة والعبارة إلى تحول أو تشوه أو زيادة مستحبة أو مستكرهة.

3 ـ اختلاج لساني واختلاج ذهني سليل

وهذا ما بلوته إثر محاولتي تلاوة الفاتحة وفقاً لأبعاد حروفها وألفاظها وآياتها في النفس. فبعد الوهن تجمعت الجهود وتوفرت العزيمة واستبد العزم. رأيتني أفكر في تحليل نص طويل وفقاً لاختلاج النفس بوحداته الدنيا والوسطى والكبرى ووفقاً لاختلاجها بكليته. واستعرض الخيال النصوص العربية الأم ثم توقف عند القرآن، وإذ بي أضبط الذهن يختلج بهذه العبارة مضبوطة بما ترى فيها من حركات:

«لَيْسَ لِي قُدْرَه عَلَى عَمَلْ أَكْثَرْ مِنْ ذالِكْ».

كانت هذه رسالةَ الذهنِ التي ما إن كانت حتى سَرَتْ تختلج في اللسان تباعاً وبصمت. وقبل أن يُتِمَّ اللسان اختلاجه بها داخلها والتحم بها اختلاجٌ لغويٌّ طارىء يقول بالحركات الظاهرة:

«لَأخْضَرْ لِبْراهِيْمِي»

فهل وعى العقل شيئاً من ظروف تفرُّخ هذه القطعة اللغوية الاختلاجية الذهنية الدخيل؟ عند أي جزء من جملة الاختلاج الأصيل بَرَقَتْ؟ وما هي موجبات هذا الاختلاج الدخيل بعينه سواء ما تعلق منها بمجرى الجملة الأصيلة، أو ما تعلق منها بأهمية (الأخضر الإبراهيمي)، الشخص والاسم؟

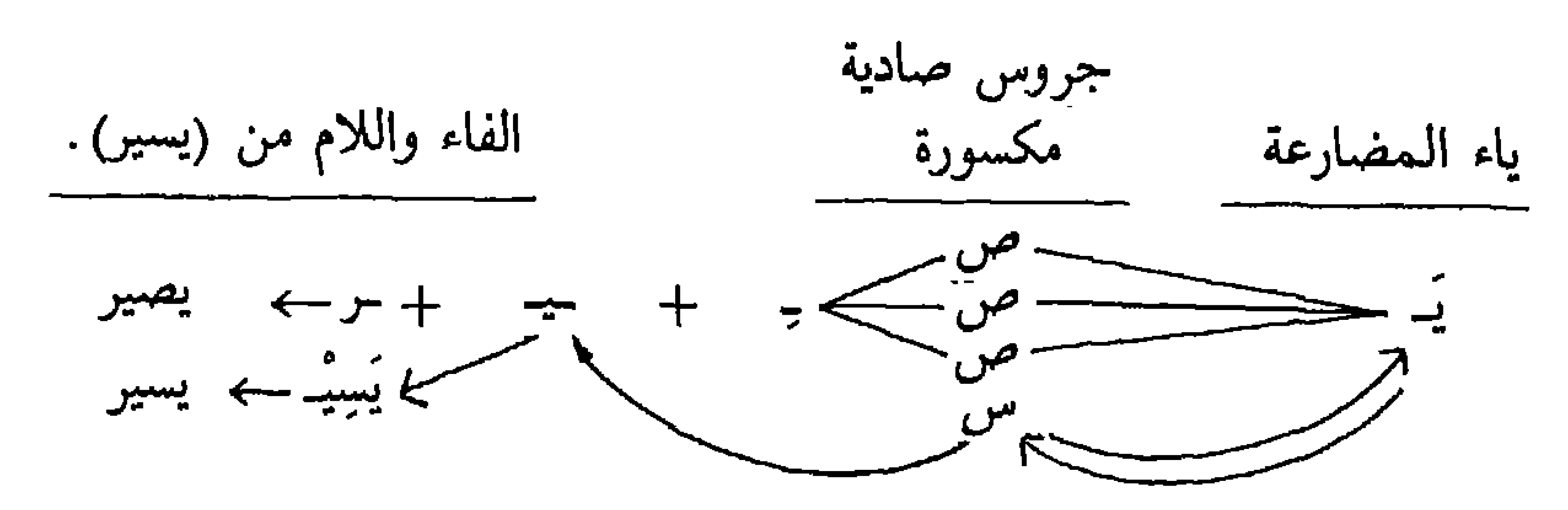
وُفِّقَ العقلُ إلى ضبط القسم الاختلاجي من الجملة الأصيلة الذي أدى باضطرابه الخاص إلى توليد اختلاجةِ «لَأخْضَرْ لِبْراهِيْمِي» دون أن يُعَطِّل بذلك استمرار الاختلاج الأصيل الذي يندرج فيه. ذلك القسم الاختلاجي هو المحصور بين حاصرتين داخل الجملة الاختلاجية الأصيلة:

«ليسَ لي قُدْرَه على عَمَـ[ـلْ أَكْثَرْ مِنْ] ذَالِكْ».

أي هو [لأَكْثَرْ مِنْ]. لكن شرارة التولد لا بدّ أن تكون بمثابة رعشة في السلك العصبي المختلج بحروف الجملة.

4 ـ فإذا كنت تلفظ في سرك، أي اختلاجاً، كلمة (يَصيْر) فإنه يمكن أن تحس بأن أواخر اختلاجات الصاد، أي التي تكون بعد انقضاء صاد كسرة ومع بدء الصاد ياء، قد تحولت إلى اختلاجات سينية وليس صادية، وعند هذا الإحساس ترى ذهنك يختلج بلفظ (يَسِيْر) ولسانُكَ يكمل اللفظ (يصير). فكأن الصاد تنشطر شطرين أو تنشعر شعرتين. فلو سجلنا (يصير) على شريط ثم جعلنا سماع الشريط بطيئاً بدرجة كبيرة فإننا نسمع سلسلة من الجروس الصادية المكسورة الحركة ونسمع بذيلها، بعد انقضاء ما يعادل مدة الكسرة، جرساً سينياً يشكل المفصل الذي نعبُر به من الكسر الصادي البسيط إلى الكسر اليائي العميق. وهذه السُّيَينة تأخذ من استمرار ياء المضارعة في الذهن ياء وَصْل حتى تكوِّن (يَسِيـ)، كماتأخذ من (ـيْـ) و(رْ) اللذين يكملان (يَصِـ) صلةً فتتم أمام الوعي جملةٌ اختلاجية ناعمة هي (يسير)بمحاذاة جملة (يصير).

وتقريب الصورة على الورق يشبه هذا الشكل:



كأن المسار قد تم على النحو التالي:

ـ بانحدار الصاد المكسورة نحو الكسر اليائي العميق تولدت السين موصولة بالياء أي (سيـ).

ـ بتكون (سِيـ) اتجهت المعلومة المنبئة بهذا الكائن إلى العصب الدماغي الذي ولد رسالة (يصير) فاختلج لها فيه (يَـ).

ـ قلب الوعي الترتيب من (سِيـ + يَـ) إلى (يَـ + سِيـ) ← (يَسِيـ).

ـ تمت مراحل (يصير) واختلج عصب الدماغ بـ (ـيْر) و(رْ).

وافق تمام (يصير) الذي نهايته (رْ) تكون (يَسِيـ).

ـ اتصل اختلاج (يَسِيـ) باختلاج (رْ).

ـ قامت وحدة اختلاجية لفظية دَخيل هي (يَسِيْرْ) من خلال ولادة اختلاج أصيل هو (يصير).

قد تُداخِلُ بعضَ الأذهانِ الشكوكُ بأن الأمر يتعلق بالجروس الصوتية لا بالاهتزازات والاختلاجات العضوية العصبية من خلال الاستعانة، على سبيل المثال، بالتسجيل والسمع. لا، إنما نقل المثل من الاختلاج اللغوي الذهني اللساني إلى الصوت اللغوي لأن دقائق الجروس الصوتية في كل صوت حرفي إنما يولدها اختلاج دقيق هو من الجملة الاختلاجية أو الرزمة الاختلاجية الخاصة بكل حرف؛ والصويتُ أمكن تسجيله أما الخلجة الدقيقة من الخلجات اللسانية فلا نعرف لها تسجيلاً لا في مستواها الذهني ولا في مستواها العضوي اللساني. أو أننا بعيدون عن المختبرات التي بلغت مستوى معرفة الحرف الاختلاجي الذهني والعضوي اللساني كما يعزفه مُضْمِرُهُ ويَعْرِفه.

وعدم الإحساس باختلاجة سينية في أواخر الذبذبة الصادية، بعد انقضاء مدة الكسرة الصادية وعند ابتداء الكسر اليائي، يرجع إلى عاملين. الأول هو عدم المبالاة بما يحدث من مفاجآت دقيقة عند التقاء الأصوات والاختلاجات أو تماسِّها في التأليف والتركيب اللذين نتوصل بهما إلى وحدات لغوية نفسية وعقلية ولسانية أكبر من الصُّوَيْتات والخليجات المنفردة. والثاني هو انسجام الصاد مع كسرة أو ياء لا تخلان بصوتها أو باختلاجها، فلا تحيلان جزءاً منهما إلى اختلاج سيني أو صوت سيني. فالكسرة التي تلي السين، كي يبقى السين سيناً، لا تكون ضرباً من الكسرة التي تلي الصاد. ولا الياء التي تلي السين ضربٌ من الياء التي تلي الصاد لا في الإحساس الصوتي ولا في الإحساس الاختلاجي.

في حال النطق بالصاد يكون الحلق والأوتار الصوتية في وضع يختلف عن وضعهما عند النطق بالسين. وهذا يوجب حركات حلقية حنجرية خاصة بكل من الصاد والسين ويوجب حركات صوتية خاصة بكل منهما ويوجب اختلاجات خاصة كذلك. ووضع اللسان في مخرج الصاد يدع ممراً للزفير أوسع من ممره مع السين. ثم إن جانب اللسان الأيمن مع ما يلتقيه من يمين الغار الأعلى مع فرجة صفير الصاد من بينهما هي تكتل عضوي لا يتألف مخرج السين بمثله ولا تشترك العضلات ذاتها، التي بني منها مخرج الصاد، في بناء عقدة المخرج السيني؛ فهذا يتشكل من مواجهة أسلة اللسان لمقدم الغار مع ميل بسيط إلى اليمين أو إلى الشمال، وبفسحة يسيل منها هواء الزفير السيني أضيق من فسحة مخرج الصاد.

هذا الواقع يقدم أربعة أصوات متميزة هي: ص، س، صوت كسر مُسْتَعْلٍ، صوت كسر

رقيق. وهذه الأصوات هي مواليد أربعة أنواع من الاختلاجات العضوية النطقية: اختلاج صادي، اختلاج سيني، اختلاج كسر مستعل، اختلاج كسر رقيق.

فإذا كان لسانك جارياً في لفظ (يصير) فالكسر المستعلي هو الذي يصرِّف هواء الزفير من فرجة المخرج الصادي. وتدرك هذا الكسر بصوته وبمخرجه الحلقي الخاص إذا أجريت التصويت بـ (صِي) محافظاً على التفخيم في كلا الصوتين. ويجدر بالحركة المستعلية رمز خطي خاص رسمناه في «بحوث لسانية» بقاف صغيرة عليها السكون أو إحدى الحركات: ڡْ، ڡِ، ڡُ، ڡَ. وإقبال لسانك على الصاد المكسورة أو غير المكسورة يوجب أولاً سكوناً مستعلياً أي عقداً حلقياً مستعلياً، ومن هذا المنعقد الحلقي المخرجي ينصب الهواء على مخرج آخر هو في حال انعقاد؛ انطلاق الهواء من وضع حلقي مستعلٍ يكلف طاقة أكبر ويُشعر بجهد لا تُشعِر بمثله الحركةُ الرقيقة كفتحة (سَ). لهذا يتعرض مخرجِ الحركة المستعلية لإغراء السقوط في المِثْل الوسط. ونرى العربية تعترف بحرفين هما (ص) و (س) بينما لا نراها تعترف بحركتين هما ڡِ [= كسرة قِ = كسرة مستعلية] و (ِ) أي الكسرة الوسط.

عِلْماً بأن الوضع اللساني الوسط يشدّ إلى اعتداله كل وضع كان يدانيه وخرج عن الاعتدال. كالرأي العام الذي يكافح من يخرج منه كي يبقى في مستواه. فلكي لا يَهْوِي المستعلي في ما جانسه من الحروف المعتدلة تلجأ الإرادة إلى صيانة هذا الاستعلاء ما دام مطلوباً. أما إذا كان الاستعلاء ولم يُصَن بالإشراف والعزم فإنه لا يلبث أن ينكسر كانكسار آخر الصاد من (يصير) إلى سين وتتنفس (يسير) تبعاً لذلك. فاليسير والأيسر يختلجان من خلال الاختلاج الواجب القهار كأنهما الحركة الأرْوَحُ للنفْس تجيء في وقتها وفي محلها. ولعل هذا هو السبب في نزول اللسان العامي عن الحروف المُجْهِدة إلى ما جانسها أو ما شاركها في بعض أصواتها أو اختلاجاتها أو وظائفها. فالقاف تحوَّل إلى همزة أو كاف أو غيرهما كالغين والجيم والخاء. والضاد ضاعت في الظاء والدال. والطاء أكلت منها التاء الشحمُ واللحم: مقال/ مآل، ضَرّابة/ دِرابة، طريق/ تريء... وهذا الإبدال الذي تراه في الصوت ليس سوى إبدال اختلاج عضوي لساني باختلاج عضوي لساني أطوع.

فالنفَس اللساني الفصيح يتولد عن وضع نفسي فصيح وحالة نفْسية مترعرعة في عالم ذهني فصيح أي في خضم تجارب وخبرات فصيحة اللسان، ثقافية على العموم. والنفَس اللساني العامي هو أيضاً زفير الأحوال النفسية الناشئة في الخبرات العامية. والعبارة المعتدلة هي عبارة العقل في كل حال. فإذا قلت في أوج الانفعال: «طيِّرْ لي عقلي هذا الحيوان»! ثم قلت الكلمات ذاتها وأنت تملك بعقلك زمام نفسك، تكون كلماتك معتدلة النبرة، لا هي متفجرة ولا هي ذاوية بل عبارة رَيِّق الحال وهادىء البال.

5 ـ مفصلية التحول من وعي إلى وعي

وكل تحول يتم من خلال مفصل؛ فأن تتحول من مشهد تراه إلى مشهد خيالي بلا انقطاع بينهما إنما تتحول بأن يصيب أثر مما تراه عُصْبُوناً في المركز الدماغي للأخيلة فيختلج هذا العصبون اختلاجات يتولد عنها شروق صورة لجزء من إحساس أو جزء من شعور أو جزء من فكرة أو لأي جزئي آخر سلف أن خبرنا من أثره مثل ما نبتلي من أثر هذا الجزء من المشهد الحسي. ويظهر أن مجموعة الأعصاب التي تتأثر معاً بانفعالٍ ما إنما تؤلف بانفعالها المشترك وحدة الخبرة. فإذا ما أصيب بعض هذه المجموعة من الأعصاب بتأثرٍ عَرَفَ مثيلاً له في خبرة سابقة تَحرَّكَ حركتَهُ المماثلةَ لحركته في الخبرة السابقة؛ وقد تجر حركتُه حركاتِ سائر أعصاب المجموعة فتقوم في الخيال أو في الذاكرة صورة كالتي ظهرت بالتجربة السابقة لهذه المجموعة. فإذا جاءت الصورةُ الفاتحةُ للخبرة على الخبرة وحدها شبيهة بالعنصر المشهدي الذي أنجبها وظهرت باقي عناصر الصورة الخيالية مختلفة عن عناصر الصورة المشهدية قلنا: هذا المشهد يشبه الصورة الخيالية أو صاحبها بهذا العنصر، وإذا كثرت العناصر المتشابهة لم يعد من فضل في إدراك الشبه. أما إذا وافقت العناصرُ كلُّها من هنا العناصرَ كلها من هناك، فنقول: هذا المشهد هو عينه الذي رأيناه سابقاً (وتكون المفارقة في الظروف وليس في الذوات). والضربان المختلفان في الظروف وحدها وفي وجودهما معاً ما كان ممكناً وعي تعدد وحدتهما لولا الخبرة بهذا التعدد. يبقى وعينا للشيء الذي يواصل تأثيره المتكرر في إدراكنا وفي مشاعرنا وأحاسيسنا. إننا نحكم بوحدته بناءً على وحدة تأثرنا. ووحدة تأثرنا تتألف من التأثر الذي عانيناه في اللحظات الفائتة موصولاً بالتأثر الذي نعانيه في هذه اللحظة. مدة الإحساس تعني أن كل ما كان منه حتى اللحظة قد صار خبرة ماضية مفتوحة على الخبرة المباشرة في اللحظة. ولولا هذا الاتصال لانعدمت المعرفة. فالمعرفة ليست إحساساً زائلاً إنما هي خبرات متصلٌ أولُها بآخرها، كنايةً عن اتصال الخبرة بالخبرات السالفة سواء كان بينها تباعدات أو استمرار، وسواء تزاوجت وتوالدت أو ظلت مرصوفة كالبغال، وسواء ما وعيناه منها وما نجتهد لوعيه وما لم يخطر أثرٌ منه ببال.

وتظل المعرفة المفصلية مثيل معرفتنا النطفة التي في النواة، لا تقوم بلا معرفة النواة ولا بلا معرفة النطفة بذاتها ولا بلا معرفة النبتة التي تكون عنها وليس فيها. معرفة المفصل تقوم بالتوحيد القائم على فعل العقل: يرى العقل المجريات النفسية المكشوفة، ويستكشف المجريات العميقة، وتتضح له مآلات هذه وتلك وعلاقاتها. وتنشب نتيجة لأعماله هذه انفعالاتُ تحدِّد السلوكَ العفوي، ما ظهر منه في الحركات الجسمية الموجَّهة وما التفَّ على بعض الانفعالات لاحتوائها قبل أن تحرك الجسم أو النفس بما يرى العقل أنه لا تحمد عقباه.

6 ـ وصف خلجة تنشأ وتنمو

فقـد رأينـا الظـرف العملي ثم الظرف النفسي اللذين وُلِدت فيهما الجملة اللغوية الذهنية:

«ليسَ لي قُدْرَه على عَمَلْ أَكْثَرْ مِنْ ذالِكْ»

ولم يلتفت العقل إلى المفصِل النفسي الذي أسفرت من خلاله الحالة النفسية عن هذا الكلام الذهني. هذه البراعم من المشاعر والأخيلة وسائر ما أحاط بموقف الشخص كيف تفتحت كلاماً؟ هو سؤال لم يحظ من العقل بالإدراك العيني على الرغم من أهميته. وأدرك العقل بدلاً من ذلك ما دار في الذهن من اختلاج كلامي، أي الجملةَ الآنفة، ونزولَها في اللسان، ثم نشوء الاختلاج الذهني الفرعي عنها، أي: «لْأَخْضَرْ لِبْراهِيْمي». وأدرَكَ مع هذا تماشيَ الحدثين الاختلاجيين اللغويين، الأصلي اللساني والفرعي الذهني، أدرَكَ تماشيَهما وأدرك أن الواحد في مجراه اللساني المفارق لمجراه الذهني لم يعق مجرى أخيه من الذهن ولا هذا أعاق ذاك. كما استطاع العقل إدراك القسم الاختلاجي من الجملة الأصيلة الذي أدى بوزنه الخاص إلى توليد الجملة الفرعية؛ فالقسم المولِّد هو (لْأَكْثَرْ مِنْ) ووزنه (سْتِفْعَالُنْ)، والقسم الأكبر والأول من الجملة الفرعية هو (لْأَخْضَرْ لِبْ) ووزنه أيضاً (سْتِفْعَالُنْ). ولم يفت العقلَ أن يَلمح الجروسَ المشتركة والمتجانسة في كلا القسمين، وقد سجل الحس الترتيبَ المشترك لهذه الجروس في الأصل والفرع:

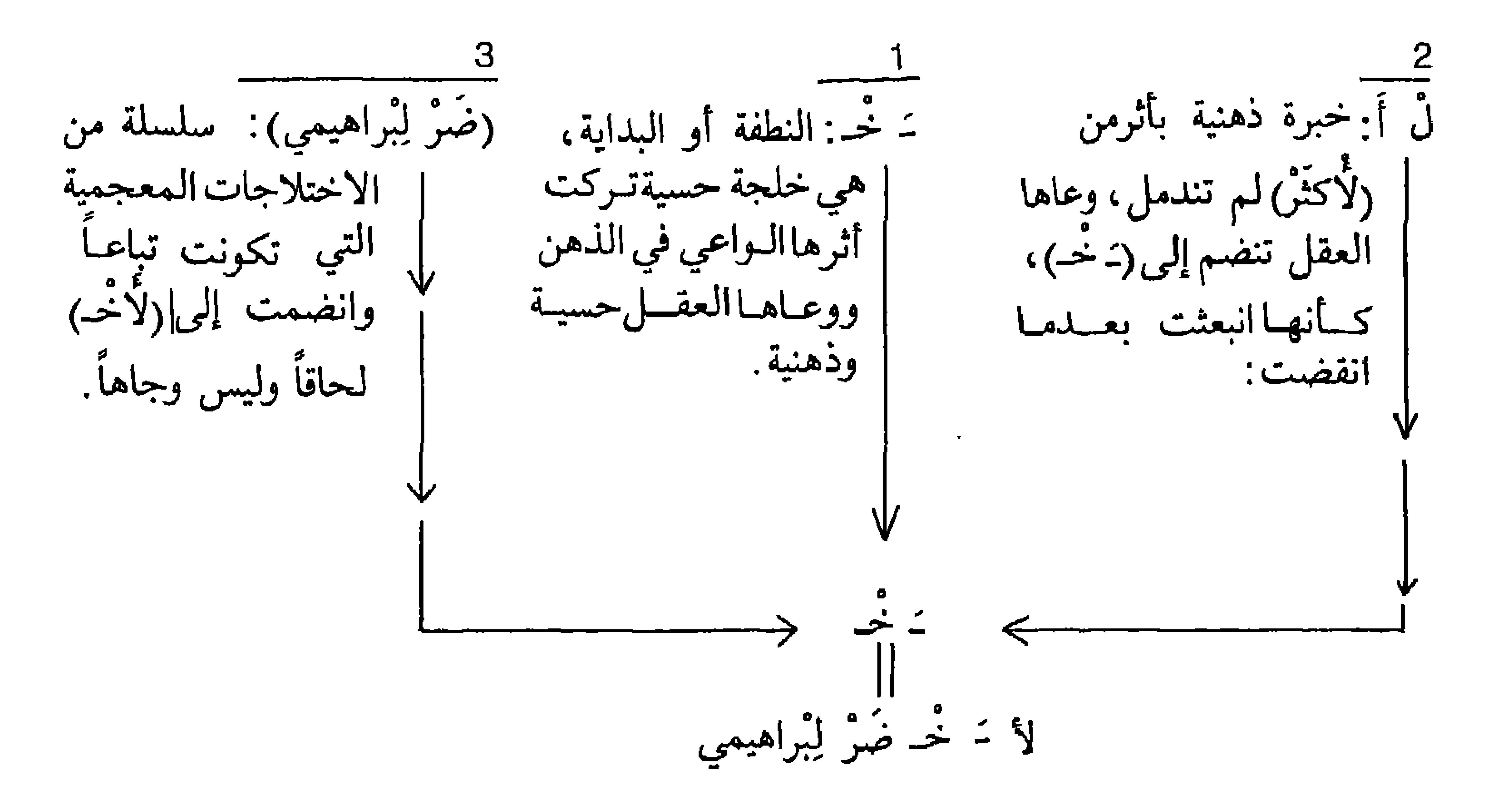
لْ	ء	ـَ	كْ	ـثَ	ـَ	رْ	م	ـِ	نْ
لْ	ء	ـَ	خْ	ض	ـَ	رْ	ل	ـِ	بْ

توالت في الأصل والفرع ثلاثة جروس مشتركة هي اللام الساكنة فالهمزة فالفتحة. ثم كان تقابل بين الكاف والخاء؛ وباختلاج مخرج الواحد يختلج مخرج الآخر جزئياً بسبب الاتصال العضوي بين هذين المخرجين. ثم كان الاختلاف بينهما في الثاء والضاد؛ وعاد الاتفاق في الفتح فالراء. وتلا ذلك اختلافهما في الميم واللام مع حفظ الاتفاق في حركتهما المشتركة. وأفضى هذا الاتفاق إلى اختلاف في النون والباء مع تسجيل الاشتراك ما بينهما في السكون.

هذا كله كان من الإدراك المباشر وإن تفاوت إدراك البعض وإدراكُ البعض الآخر. فقد طغى، مثلاً، إدراك الاشتراك الموسيقي بين القسمين على إدراك المواضع المشتركة للنغم الذهنية واللسانية. وكاد إدراك الوحدة ما بين القسمين، على الرغم من امتدادهما الكبير، أن يحجب إدراك الاختلاجة المفصلية الدقيقة التي ضمت إليها، عن يمين وشمال، مما هو رجْعٌ

ذهني لاختلاج لساني مضى للتوّ ومما هو ذهني يندرج في اللحيظات هذه في اللسان ولم يكتمل، ومما هو خاص بالاختلاجة المفصلية ذاتها من حيث انحرف جوابها ـ باعتبارها رسالة ـ عن أرومتها المقررة في الذهن والمرسَلة في اللسان ومن حيث انحرافها عن المخرج الحلقي الجدير بالاختلاج بها، كما ضمت إلى طلعتها المستجدة بل إلى هويتها المنفصلة ما كان دأبه الانضمام إلى هذه الهوية في التاريخ اللساني وما كان يطرق السمع موصولاً بها في الظرف الحالي ومما هو في البال لصلته باسم يتعلق بأزمة اجتماعية هي في البال.

مع إدراك (لأَكْثَرْ مِنْ) جاريةً في اللسان اختلاجاً أدرك العقل نشوء (لأَخْضَرْ لِبْراهيمي) وأدرك الوحدة بين (لأَكْثَرْ مِنْ) و (لأَخْضَرْ لِبْـ). فهما قسمان من سلسلتين، تجري الواحدة في اللسان اختلاجاً والعقلُ يدرك تباعاً حلقات اختلاجها في اللسان، ونشأت الثانية في الذهن وجرت في أعصاب الدماغ لا في أعصاب الجهاز النطقي ما خلا اختلاجة الـ (ـَ خْـ) التي لوحظ نشوؤها كفرع انشقَّ عن اختلاجة الـ (ـَ كْ) في مخرج الكاف الساكنة من الحلق وتوطَّدَ لحظةً في مخارج الـ (ـَ خْـ)، ثم انضم إليه من مدارك العقل لـ (لأَكْثَرْ مِنْ) الجارية في اللسان مُدْرَكُ (لَا)، وكان قد مضى فتكونت مجموعة هي (لأَخْـ). وما إن كانت حتى انضمت إليها سلسلة اختلاجات هي (ضَرْ لِبْراهِيْمي). فاكتملت بذلك الوحدة الاختلاجية اللغوية الذهنية أي (لأَخْضَرْ لِبْراهيمي) التي نَمَتْ، كما رأينا، من نطفة هي (ـَ خْـ). فقد تعلق بهذه النطفة شيء من الخبرات السالفة وشيء من الخبرات الجارية، شيء من الخبرات الذهنية القديمة المتجددة وشيء من الخبرات الاختلاجية الحسية الجارية في اللسان بما تترك في الدماغ والعقل من حركات بينة، وذلك وفقاً للشكل التالي:



هذا الشكل يوافق الوحدات الاختلاجية الذهنية للحروف المتسلسلة فيه. ويعي العقل أنه الصورة الاختلاجية لتسلسل الحروف في مقاطع الصورة الخطية للاسم «الأخضر الإبراهيمي» الذي تتفوه به بعض الإذاعات وبعض الناس تفوهاً يتفق مع هذه الصورة الخطية: لأَخْضَرْ لِبْراهِيمِي.

وسماع الاسم على صورة صوتية معينة يُقَرِّرُ له في أعصاب الدماغ صورة اختلاجية منسجمة مع الصورة السمعية. فلا نرى في الاختلاج الموافق للصورة السماعية المذكورة إحساساً باختلاج الهمز الذي نعهده في (إبراهيم) أو في (الإبراهيمية) أو في (الإبراهيمي) المنسوب إلى الإبراهيمية.

وهكذا كانت خبرتي السمعية بهذا الاسم، مما أوجب اختلاج الذهن به وفقاً للخبرة عندما توفرت الشروط اللازمة لنشوء هذه الوحدة الاختلاجية الذهنية.

7 ـ تفسير الطفرة الاختلاجية

فهل يقتنع العقل بأن ما ألم به الوصف إلى الآن كان كافياً لأن تطفر الاختلاجة الفرعية الذهنية من شق من اختلاجة الـ (ـَ كْ) الدارجة في سياق الاختلاج اللساني المؤلف من (لَيْسَ لي قُدْرَه على عَمَلْ أكثَرْ مِنْ ذالِكْ)؟

إن طفرة الـ (ـَ خْـ) من (ـَ كْ) تحتاج إلى تفسير. وإن نشوء الاختلاجة الكبيرة، (لأَخْضَرْ لبراهيمي)، من نقفة الـ (ـَ خْـ) الصغيرة وما أحاط بها من اختلاجات سابقة ولاحقة هو أيضاً يحتاج إلى تفسير، إذ يمكن أن أحيط سمع أي من الناس بما أحاط به إدراكي من عناصر اختلاجية مرافقة لـ (ـَ خْـ) ولا تتحرك أذهانهم بمثل ما تحرك به ذهني.

فكيف نشأت (ـَ خْ) عن (ـَ كْ) منحرفةً عن سياق الدرج الاختلاجي؟

حين يكون الفم مطبَقاً تجري الأنفاس من الأنف. وكثيراً ما يعرف أحد المنخرين انسداداً كلياً أو جزئياً في الخياشيم بين الحلق والأنف على تخوم أقصى الحنك. وإذا اعترض الزفيرَ أو الشهيقَ ما يعيق طريقهما من بلغم أو مخاط يدفع النفَسُ ذلك العائقَ ويجري محشوراً بين أقاصي الحنك الرخو والخياشيم ليخرج من الأنف. فيتولد عن تجاوزه العوائق بشيء من العسر تقلقلات واهتزازات تضطرب لها المجاري الهوائية الخيشومية وتخومُها. ويكون من أثر احتكاك النفَس المحشور هنا والمتقلقل اضطرابُ مخرج الخاء من داخله، أي من الجهة الحلقية لا من الجهة الحنكية الغاريّة. وهذا الاضطراب أو الاهتزاز أو الاختلاج القوي يولد جروس الخاء الساكنة. فالخاء الساكنة التي تعقد لها مخارج الخاء إنما تتلقى، ولكن عن قصد، تيارَ الزفير

من باطن المخرج الخائي وإن أدى عبورُ الزفير لفرجة المخرج الخائي إلى هَزِّهِ من الداخل ومن الخارج؛ غير أن الضغط الزفيري يتركز في الوجه المقابل للحنجرة بعكس الخاء المحرَّكة التي توجب تركيز الضغط في الوجه الخارجي لمنعقد المخرج الخائي.

يبدو أن الوضع العضوي لمجرى النفَس لم يكن ميسَّراً لسلاسة التنفس، بل صادف هذا في الخياشيم بعض انسداد لحظة مرور الهواء في هذا الموضع إبان اختلاج الحنك بـ (ـَ كْ) من الجملة الاختلاجية «. . . على عَمَلْ أَكْثَرْ مِنْ ذالِكْ». اهتز مخرج الخاء باندفاع الهواء اندفاعاً تنفسياً عفوياً فتولدت جُرَيسات خائية خام ليست مقصودة ولا هي من الخاء التي تتضمن وعي صاحبها المسبق لهويتها. إنما أحس بها الحسُّ السمعي؛ وانساق الإحساس هذا فحرَّكَ عصب الدماغ الحركة التي تكون منه في حال سماع الخاء وقت السماع اللغوي الواعي وفي حال النطق اللغوي وفي حال النطق الحلمي. وما إن تحرك عصب الدماغ الحركة (ـَ كْ) حتى وعى العقل خاء متحدة مع (ـَ كْ) في هذه الصورة: (ـَ كْ ـَ خْـ)، مركَّب دقيق. وما إن تصورت هذه الـ (ـَ خْـ) حتى انفصلت وانضَمَّ إليها بخفة ودقة حركات لغوية تجددت في عصب الدماغ حيويتُها كأنها لم تكن بعد قد سكنت السكون كله، كما انضم إلى المجموع الناشيء تتمة اسم كان على ما يبدو يتحـرك سرّاً في الأعصاب. انضمت (لأ) إلى (ـَ خْـ) فكونتا (لأَخْـ). وقبل أن يمشي الذهن في اتجاه (الأَخّ: صوت التوجع) أو (الأخبار) أو (الأَخْفَش) أو (الأخشن) أو (الأخ الصالح). . . قبل أن يمشي نحو أي مكمل من المكملات الأخرى الممكنة، وقبل أن يقف عند حدود الوعي اللغوي لـ (لأَخْـ) باعتبارها صورة من صور كلمة (الأخ) التي تستحق أن تخطر في البال، قبل ذلك كله كرَّت اختلاجات الحروف الذهنية عن يمين وشمال وكونت من هذه النواة إسماً طويلاً يجمع خمس وحدات لغوية هي: (ال، أخضر) + (ال، إبراهيم، ي)؛ حدث هذا لـ (ـَ خْـ) و(ـَ كْ) تجري مجراها في (لأَكْثَرْ مِنْ ذالكْ) اللسانية بلا عائق.

وما من شك في أن الوزن الذي ارتصَّتْ فيه سلسلةُ الحروف الاختلاجية، (لأَكْثَرْ مِنْ)، كان موجباً لقيام وحدة كلامية يشكل هذا الوزن عمودها الفقري. وأي كلمة كانت في حينه (بين 14 و17 كانون الأول 1989) أوفق وزناً وأكثر انسجاماً، من حيث الاختلاجات الحرفية المتسلسلة، مع (لأَكْثَرْ مِنْ)، وأكثر إيجاباً في نفس تكتب برماد شباب توالت عليه نيران الحروب اللبنانية، من اسم الأخضر الإبراهيمي الذي كلف بإجماع دولي وعربي معروفين متابعة الأزمة اللبنانية لمعالجتها وفقاً لنصوص بيان الطائف؟! زد على ذلك أن الاسم كان في ذلك الوقت كثير التردد في الإذاعات وفي وسائل الإعلام الأخرى كما كانت الشفاه تتناقله وتتداوله كثيراً، مما أرسى له في ذهن من يسمعونه ويقرأونه ويلفظونه ويكتبونه ذكراً لا يزال يختلج في أعصاب الدماغ بحيث يكفي أن تهتز تلك الأعصاب بوزن يشتمل عليه ذلك الاسم حتى تختلج

جملة حروفه؛ أَوْ يكفي أن تتسلسل قلة من الجروس التي يشتمل عليها هو وغيره حتى يكتمل بتلك الجروس قبل غيره من الكلمات التي تشتمل عليها.

هذا الانشغال النفسي واللساني والذهني باسم الأخضر الإبراهيمي يسَّر له أن يتكرر اختلاجُ جملةِ حروفِه في أعصاب الدماغ لدى تأثر الدماغ بالعديد من المؤثرات التي تعمل في الأعصاب مثيل ما تعمل فيه عناصر هذا الاسم بأفرادها وجماعاتها. هل يعني ذلك أن الأعصاب المشتغلة بلفظ ذي أهمية في الحياة العملية إنما تتخذ لها وضعاً يناسب سماعَه والنطقَ به في ظروف قدَّرها العقل مسبقاً؟ إن الذين ينتظرون القيام بأعمال مُلْزِمة يكيفون أنفسهم وسلوكهم لتتلاءم وتلك الأعمال، فهم يستعدون لها.

8 ـ المشكلة اللغوية بين الفردية والعالمية

أما كيف تترتب الأجهزة العضوية والعصبية في ضوء هذا الاستعداد لأمرٌ مطلوبٌ الجوابُ عليه من العلماء المختصين. إلا أن الوضع العضوي المؤهل للقيام بمهامَّ منتظرة يُعَدُّ ترتيباً ضرورياً في عالم الأحياء. الخبرات الماضية تبني في نفوس الأحياء قصوراً للخبرات المرتقبة. وهذه التصورات تملي على الكائن الحي أن يرتب بيت جسده الترتيب الصالح لخوض تلك الخبرات، أن يضع أجهزته العضوية في أوضاع مخصوصة يرى أنها أجودُ الاستعدادات المنظَّمة لملاقاة المحن المستقبلية المنتظرة. ومع أن المستقبل قد لا يأتي إلا بالقليل من المتوقع، كما هي الحال في الأمم التي تنشىء أجيالاً لوظائف لا يلقونها، فإن الكائن الحي لا يسعه سوى أن يجعل من وضعه اليوم منصةً يقفز عنها وبها إلى الغد. أفلا نرانا كل يوم نجهز كلاماً مناسباً لمواقف تنتظرنا؟ ألا نلوم أنفسنا أحياناً وأصحابنا أحياناً لتقصيرٍ لساني بدا منا ومنهم؟

أفلا يعني ذلك أن أدمغة أولادنا مضطرة لاتخاذ الكينونات العضوية المناسبة لتكلم اللغة التي ننشئهم فيها؟ أو يعني هذا أن لكل أمة عقلية خاصة؟ وأن الوصول إلى عقلية إنسانية عامة يستلزم لغة إنسانية عامة؟ إننا لنجد العوام يسمعون الكلام في حدود خبراتهم المحدودة، كما نجد الذين اتسعت خبراتهم وتعمقت أوسع فهماً للكلام وأعمق. وهذا يدل على أن الكلام، كل كلام، ذو دلالتين هما دلالة اللفظ ودلالة معناه. ودلالة اللفظ قومية واختصاصية؛ أما دلالة المعنى فإنسانية عامة. ولولا دلالة المعنى لكان كل إنسان أسير بيته اللغوي ولحال ذلك دون تحلي الفرد بصفة الوعي الإنساني. دلالة المعنى هي المنقذ للفرد من فرديته وللفئة من فئويتها وللأمة من وطنيتها المحدودة. وترتيب النفس وأعصاب الدماغ وفقاً لمهمة التكلم مضطر لأن يتعدل كي ينسجم مع ترتيبهما وفقاً للخبرات الحية، وفقاً لمعاني الكلام ولما هو أوسع من

معاني الكلام؛ ولهذا عجزت اللغات عن رفض التطور وقَبِلَتْه مضطرةً تلافياً للفناء وطمعاً في الحياة.

لكل حال مُسْكة أي صورة من التماسك العضوي لأعصاب الدماغ ولأعضاء الجسم وبخاصيةٍ ما تعلق منها بهذه الحال. ولكل عمل تقوم به خلية عصبية أو ذراع من خلية عصبية مُسْكة مناسبة تنشأ في هذه الخلية أو في هذه الذراع. ولكل مُسْكة ديمومة وطاقة تتناسبان مع مدة العمل وقدره. فمتى انقضى العمل تبدلت المُسْكة أو ظل العضو على توتره تحسباً لعمل مماثل. وآثار المُسْكة لا تزول بزوال الوضعية المناسبة للحال والعمل الزائلين بل ترسو كتجربة في الاستعداد الدماغي والعضوي. ثم إن أي تماسك مستجد ينشأ في مجموعة عصبية معينة لا يخلو من التأثير في ما جاورها وتعاضى معها من الأعصاب والأعضاء المتصلة.

لمثل هذا نرى الحركة في مخرج الكاف تولد حركة أخفى في مخارج الخاء المتاخمة لمخارج الكاف. ولمثله نرى اختلاج الكاف في المستوى الذهني قابلاً لتوليد اختلاج الخاء في أعصاب الدماغ بفضل تحادِّهما في هذه الأعصاب وبفضل تأثر مخارج الخاء من الحنَك إبان حركة الدماغ بالكاف. والألعاب الموسيقية تعتمد على توصيل نغمين أو أكثر في آنٍ واحد إلى الإدراك من أجل مناولة السامع مزيجاً من الأنغام، قوسَ قزح نغميّة. وعندما تسيل النقطة أمام عينيك جداولَ في أكثر من اتجاه فإنك ترى وتقرأ عجباً. هكذا يحدث في المفصِل الاختلاجي حيث تنشعب الاختلاجة الدنيا إلى اختلاجين تكر لكل منهما جملة اختلاجات، فتكون الاختلاجة إحساساً فرداً فإذا هي جملة حركات مقروءة، جملة ذات وحدة بذاتها أي هي واحدة في خبراتنا الحسية والعقلية، وذات وحدة من حيث ما تبلِّغنا. اسم السنبلة نحسه وحدة صوتية واختلاجية في السمع وفي اللسان وفي الذهن وخطية في العين أو في اللمس. هذه الوحدة تبلغنا صورة من خبراتنا الحية بالسنبلة. وهذه الخبرة تفتح لنا الآفاق.

هكذا تنداح بنا الاختلاجة الصغيرة كأننا في زورق من ضياء يمد مداركنا في المحيطات ما امتد ومضه، إلا أن وعينا لانشعابات الوحدة الاختلاجية اللسانية الذهنية الدقيقة ضئيل؛ فيمكنه أن يدرك انشقاقاً ثنائياً فيها في أحسن الأحوال. وقد يكون الانشقاق الثنائي أصلاً لا ثاني له. فهذا أمر يجدر بوعينا التأكد منه لأن العقول مختلفة الكفاءات برغم اشتغالها وفقاً لقوانين مشتركة.

استمعت اليوم إلى إذاعة غربية تبث بالعربية، ولفت نظري لثغ في صوت إحدى المراسِلات. لم يحتج الأمر إلى جهد كبير حتى ظهر لي أن اللثغ يحدث في حرف الراء، وأنه لثغ غيني؛ كأن المراسِلة تلفظ الراء وحافة اللسان اليمنى متراجعة في الفم لتحف بباطن الأضراس الخلفية؛ وكأنها تصب على اللسان، وهو في هذا الموضع، تيارَ الزفير من مخرج الغين بمحاذاة مخرج الخاء.

ويشيع من جراء اللثغ نغم يشوش بعض التشويش الحروف اللاحقة سواء ما كان في الكلمة مع الراء وما كان في كلمات تالية بلا راء. لذلك يعود السامع ويقع في شك: هل تلثغ هذه المراسلة في غير الراء؟ يبدو أنها تلثغ في أصوات الحروف كلها. لكن هذه اللثغة الشائعة العامة، وإن تباينت واختلفت باختلاف السلسلة الصوتية للحروف، تظل تبدو واحدة. ولا يعسر على الانتباه أن يضبط أنها موجات تبدأ قوية واضحة ثم تأخذ في التلاشي ثم تفور من جديد. ويكون أوجها كلما لفظ لسان المراسلة الراء، ويكون هبوط وتلاش كلما ابتعد اللسان عن الراء.

إنها نغمة اللثغ في الراء. وهي تدوم في أصوات الكلام، على انحدار، من راء إلى راء. فإذا قالت المراسلة: «عقد الرئيسان جلسة عمل سرِّية» تحس أن الأنغام الغينية خالطت بقوة الراء وتدرجت على ضعف في الحروف اللاحقة حتى عادت وانبثقت مع الراء من «سرِّية».

لماذا لم يقف العيب عند حدود الحرف الذي عابه اللثغ؟

إن الاختلاج الذي ينتج في مخرج الراء من جراء اصطدام الأعضاء المشاركة في الانعقاد للنطق بهذا الحرف يتألف من موجات متلاحقة. ومتى انقضت هذه الموجات التي يحسها الناطق والسامع في بعض أعضاء المخرج يكون قد بقي بأثر منها شيء من الوجيب الدقيق الذي يتردد واللسان يدور بحرف جديد.

ومن أثر ذاك الاختلاج وهذا الوجيب التابع له ديمومة الصوت في السمع وديمومة له ذهنية تستمر في الوعي والإدراك إلى ما بعد ولادة أصوات الحروف اللاحقة. ووجود الصوت المستمر في السمع والإدراك بعد توقف تيار الطاقة الصوتية التي ولدته ومع أصوات لاحقة ولدتها تيارات

أخرى من الطاقة وإلى ما بعد توقف هذه وتجدد سواها، وجوده كذلك يضع السمع والإدراك في اختبار صوت مزدوج؛ يُمَثَّلُ السمعيُّ منهما بشريط متعرج عريض ويمثل الاختلاجي بخيط دقيق يدخل في تعاريج الشريط العريض. ويهي ذلك الخيط ويمحي بقدر ما يبتعد اللسان المتحرك بالحروف عن العمل بالحرف الذي نغم به ملثوغاً.

الجملة التي نسمعها وندرك تسلسل أصوات الحروف فيها لا تتألف إذاً من قِطَعٍ صوتية مرصوفة الواحدةُ تلو الأخرى. بل إن نسيماً من كل حرف مضى لَيَدْخُلُ ممتزجاً مع أصوات ما تلاه من حروف، حتى تكون الجملة بوعي منا أو بلا وعي روحاً واحدة؛ وكأن لعاباً من الصوت التالي كذلك قد سال بعكس التيار ومضى متسللاً حتى يَدْخُلَ الأثرَ الباقي في السمع والذهن من الصوت الفائت.

عند أي حد يقف هذا التماوج الصوتي الاختلاجي الذي ينداح في ما يأتي وفي ذكرى ما مضى من أصوات الجملة ويحافظ في الآن ذاته على طابعه المنفرد؟

قد تتواصل أصداء الصوت الحرفي في سلسلة لاحقة يبلغ عدد أصواتها الخمسة عشر. وقد يبلغ الرَّجْع مدى أقل من ذلك. أما التحديد فيلزمه استقصاء مخبري قد لا يكون حاسم النتائج بعد. إذ أن العوامل المؤثرة في مدى استمرارالنغم، وفي مدى رجوعه على ما فات من السلسلة التي يقع فيها، كثيرة. فقد تكون ديمومة حرف صلب المخارج أقل من ديمومة حرف رخو المخارج. وقد تكون ديمومة حرف مهموس أطول من ديمومة حرف مجهور. فمن يعرف مدة استمرار الاختلاج في الأوتار الصوتية ومدة وجيبها الباقية من بعد الاختلاج إثر النطق بهمزة معتدلة؟ ومن يعرف الفرق في المدة ما بين الوجيب الذي يتردد في أصول الأسنان إثر النطق بـ (ذْ) معتدلة وبين الوجيب الذي يرتْجف له سقف الحلق الصلب إثر النطق بـ (شْ)؟ وإذا كان من الممكن معرفة هذا، فهل يمكن أن نعرف مدة اختلاج العصب الدماغي المتأثر بإدراك الأصوات وإدراك اختلاجاتها في جهازي السمع والنطق؟.

يضاف إلى هذين العاملين عامل يعد من الأركان هو اهتمام النفْس بما نسمع من أصوات. فالذين يحفظون النص الطويل المتوالي على أسماعهم من أول دورة يدلون على أن أعصاب أدمغتهم تستمر مدةأطولَ في اختلاجها بتلك الأصوات من الاختلاج بها في أذهان من لا يحفظونها. فانشغال أعصاب الدماغ بما تدرك من أصوات واختلاجات يرجع إلى مدى اهتمام السامع بها، إن من حيث هي أصوات واختلاجات وإن من حيث هي مولِّدات لمدارات نفسية خيالية وعاطفية وفقهية ظاهرةٍ للوعي أو مستسرة.

ويرتهن استمرار اختلاج الصوت، اختلاجه المصوت والصامت، في الذهن بمدى أهمية

ما يتوالى على الذهن من رسائل لا يمكن الحيلولة دون وصولها إليه. فقد يولهنا التعلق بجناح من حلم رأيناه وفتح لنا الشهية على تتبع حلقاته، إلا أن أبواب خيالنا توصد بسبب رسالة طارئة شدت انتباهنا. وهيهات أن تعود ذكرى ثانية لذلك الحلم! وهذا معناه أن أعصاب الخيال قد عزفت عن عمل لتزاول عملاً آخر لا نلاحظ فيه مما حلمنا به سوى هَفْوٍ إلى فراغ.

ليس هذا كل ما في الأمر، بل هناك واقع إضافي لا يجوز التغافل عنه. وهو أن من يلثغ بحرف أو أكثر يدرك أن في نطقه عيباً. وفي محاولة لتلافي هذا العيب ما أمكن تتشنج أعضاء النطق بعض التشنج، أو أن صاحبها يمسكها على وضع يظن فيه تقليلاً من عيب النطق المنتظر في أي لحظة من سياق الجملة. وهذا الإمساك المتشنج يؤثر على اعتدال النطق وسويته فيلفظ اللاثغون وأعضاء جهاز النطق لديهم غير مرتاحة. ويحس السامع في أصواتهم انحرافاً دائماً عن السوية الصوتية المعهودة في الوسط اللغوي الذي ينتمون إليه. فتنضاف أنغام الانحراف إلى أنغام اللثغ.

وقد يتمكن علماء الخلايا العصبية من عزل خلية دماغية لغوية في حال النطق السوي وأخرى في حال اللثغ وتجميد الخليتين للنظر في الفرق ما بين الحالين. كما قد يمكن اكتشاف الفرق الكهربائي والكيميائي ما بين مركزين دماغيين لغويين، واحد يلثغ وآخر لا يلثغ.

فالذين يلثغون يقلون من الكلام وإذا تكلموا استحوا وبذلوا جهداً آخر لتغليف الخجل مضافاً إلى جهدهم المبذول في تستير عيب اللثغ. وقد يكون اللثغ من أسباب تحول الأولاد تدريجاً عن الأعمال والوظائف التي يلزمها الكثير من الكلام إلى وظائف يلزمها منه القليل. لقد سألت مرة رساماً عن بدء ميله إلى الرسم فأشار بيده إلى أسنانه ولسانه ولم يجب بكلام.

إن دراسة الأحوال المنحرفة عن السوية لا تمكننا من فهمها هي فحسب بل تساعدنا على فهم الأحوال السوية التي خالفتها. فها قد دلنا اللثغ من حيث تأثيره على ما جاوره من إخراج الحروف أن كل حرف ننطق به سواءَ النطق إنما ينساب أثر من صوته واختلاجه في صوت ما يليه وفي اختلاج ما يليه. فالأثر المقبل يستحق اسم التأثير المَدِّي بينما يستحق الأثر الراجع من حرف على ما صار في الذهن من حروفٍ سبقتْ اسمَ الأثر الجزري.

وتدلنا عواقب اللثغ التي تتجلى في تشنّج جهاز النطق عند التكلم ستراً للعيب وحذراً من تفاقم العيب على أن المتكلم، كل متكلم، يختص بانضباطية نطق فريدة لا يشاركه فيها أحد، لكونِ كل منا يحصِّل الخبرة الكلامية في سياق نفسية مستقلة، ولون هذه الخبرة خاصة بجهاز نطق فردي ودماغ فردي. فشدّ الحنكين والضغط الرئوي ودرجة الضغط عند التقاء أعضاء المخارج للنطق بالحروف والفترات أو المُدَدَ التي ينجز فيها النطق بالحرف، كلها أمور خاصة

بكل فرد. فكما أنه لا يسع صاحب البصمات أن ينكر الاختلاجات الثابتة في تضاليع جلد الأنامل ولا آثارها حيث تؤثر فإنه لا يسع المتكلم أن ينكر كلامه بجروسه الخاصة ومدد حروفه وأطوال موج الكلام.

فمجموع العمل النطقي لدى الفرد يفرض عليه مُسْكة خاصة لدماغه وجهاز نطقه يَنْشَدُّ معها كل عضو ودقائق كل عضو إلى القيام بوظيفة خاصة بتماسكه مع وظائف الأعضاء الأخرى وأجزائها تماسكاً لا يكون واحداً لدى ناطقَين. فالمُسْكَةُ هي إذاً تركيبة عضوية ونفسية خاصة بالفرد فيما بينه وبين ذاته وفيما بينه وبين مجتمعه ومحيطه مداً وجزراً وفي المكان والزمان.

انطلاقاً من هذا الواقع الذي يراعي فيه الناطقُ أو القارىءُ أبعادهُ الداخليةَ والخارجيةَ لا بدّ أن تأتي كلّ عملية نطقية فريدةً في طابعها. ولكل مقام نفسي مُسْكَةٌ نطقية متميزة بطابع خاص في الأصوات والاختلاجات الموافقة لها.

هذا الاستبصار شجعني وأنا أسهر في إحدى الليالي على خوض تجربة لم أخض مثلها من قبل. فقد ارتأيت أن أقرأ سورة الفاتحة من القرآن انسجاماً مع نفسي وفهمي بحيث ينطلق صوتي مما تقع عليه عيناي من إيحاءات الكلمات والآيات في نفسي. فرأيت الأمر كبيراً وكبيراً جداً إذ أني أشرع في القول: «الحمدُ لله» وأطمع في استيعاب أبعاد «الحمد» فيجري لساني إلى آخر «العالِمين» من الآية الأولى وعيناي ما تزالان تحوّشان ثمار «الحمد».

فأرد لساني للبدء من جديد حتى ترضى نفسي عما جنته من «الحمد». فتنطلق عيناي واصلة «الحمدُ» بـ «لله». وأي انبساط في النظر يلزم المتأمل عن وضع نظره في مدى (الله) من قوله (الحمدُ لله»! ثم تقف بعد لأي على مشارف قوله «ربِّ العالمين» ولسانك لا يزال يعيد الآية لأنه ممنوع من التزحزح قبل أن ترضى النفس.

انقضت تلك السهرة والنفسُ تسير من حرف إلى حرف حتى كلت فعلاً كالجارحة التي تكل فلا تقطع، أين؟ عند نهاية قوله «إهدنا الصراط المستقيم». لم أتجاوز النظر في الاستقامة التي تطول الأحاسيسَ كما تطول السلوك والأخلاق وتتعارض مع الاستدارة وتطرح مشكلة النقطة: أهي خط مستقيم أم مستدير؟ إذا مس المستقيمُ دائرةً في نقطة من محيطها وكانت هذه النقطة في المستقيم والدائرة معاً ألا تكون مستقيماً ومستديراً في آنٍ واحد؟ وإذا استوى الجزءان ألا يستوي الكلان ويتماهيان؟

عند هذا النزاع تذكرت قول ابن عربي الذي يفيد أنك لو أفنيت العمر في استكناه أسرار النقطة التي تحت الباء من «بسم» لما بارحتها. فرجعت واثقاً من عجزي عن بلوغ ما حلمت

به. ثم ما هو سر انجذاب الإنسان إلى أعماق المجاهل وكلٌّ خطوة في الطريق تحتاج كي تُعلم لمثل ما تحتاج تلك الأعماق؟ غير أن الإنسان ما إن يشعر بتوفر الطاقة لديه حتى تنطلق به غرائزه من جديد إلى مجابهة المعضلات ناسياً ما انتابه في الجولات السالفة:

كناطحٍ صخرةٍ يوماً ليفلِقَها   فلم يضرها وأوهى قرنَه الوَعِلُ.

في الأسبوع الأول من الشهر الثامن عشر من عمره، وقف الطفل أبو محمود على كرسي ومد يديه إلى الكتب الأقرب إليه: زوربا، الأدب المسؤول، تاريخ الأثاث، الإنصاف، وما جاورها. لم يكن أبوه قد رآه يفعل مثل هذا قبل اليوم. لذلك جاءه مبتسماً وقال له: دِدْ الكُتُبْ. فرحت عينا الولد وفرح ثغره وقال وهو يخبط الكتب بيديه: كُتُتْ.

استسلم الأب لنشوته بحركات طفله وبلفظه وتقدم منه وجعل خده إلى خده وقال له: كُتُبْ. فعاد الطفل يخربط الكتب بيديه وقال: كُتُتْ، وردّدها مستعجلاً فسمع الأب مرة (كُتُتْ) ومرة (تُتُتْ). ولم يسمع لفظ (كُتُبْ) من طفله أبداً، بينما ذكر أن أخاه محمداً قد لفظ وهو في الشهر الثالث عشر (كُتَبَ). بضمة وفتحتين، وكررها دون إشكالات.

ما هو السبب الذي مكّن محمداً من لفظ الباء بعد الكاف فالتاء؟ ولماذا قصر أبو محمود عن ذلك؟

لقد كان أهل الطفلين يسمعون ابنهم محمداً لفظ (كَتَبَ) ولفظ (كُتُبْ) قصداً ويُلفتون انتباهه إليهما أكثر مما فعلوه تجاه أخيه الأصغر، علماً بأن هذا الطفل يجيد لفظ (بَ) ولفظ حروف كثيرة أصعب منها، كما يلفظ كلمات صحيحة إذا كانت من يسير الحروف على نطقه، بل إنه يتطاول على لفظ كلمات طويلة وجمل قصيرة. واليوم أخبرت أمُّه أباه أنه شتمها بلفظ (طاشْ طاشْ)، عندما طلب إليها أن تخرجه من قفص السرير ولم تفعل.

إنه يجيد هذا المستوى اللساني ويقول محاكياً لفظ (كُتُبْ) إما (كُتُتْ) وإما (تُتُتْ). وهو يلفظ الحرف الأول من كليهما بضمة عربية صحيحة بينما يلفظ الثاني من كلا اللفظين بضمة مفتوحة كالتي في قولك kot. وهو يطيل مُدة الضمة العربية ويقصر من مدة الضمة المفتوحة حتى يتضح لك أن لفظة (كُتُتْ) تخرج من لسانه بمقطعين: كُـ تُتْ، ولفظة (تُتُتْ) أيضاً مقطعان: تُـ تُتْ.

لماذا فاتته المحاكاة السليمة ترى؟

ما دام سمعه سليماً فقد سمع في لفظ (كُتُبْ): (كُـ) و (تُ) و (بْ). سمعها كما هي مرتبة في اللفظ، وأمكنه إدراك الوزن الذي يعني، فوق تسلسل مُدَد الحركات، وحدةَ هذه

الحركات منشورةً فيها تباعاً أنغامُ الحروف الصامتة والمصوتة. ولم يفت إدراكه انقسام الوزن أيضاً إلى مقطعين، كل في موضعه من السلسلة الحركية الصوتية.

لماذا إذاً هذا الفرق ما بين إدراكه واستجابته اللسانية الصحيحة إلاَّ في صوت (بْ) الذي أسلم موطنه لصوت (تْ)؟ ما الذي جعل لسانه يستجيب لغير ما سمع، لـ (تْ) وليس لـ (بْ)؟

كفاءة الطفل اللسانية مكنته وتمكنه من استعمال ألفاظ ومحاولة ضبط أصوات الحروف ومحاكاة أصوات طبيعية ولكن ذلك كله لم يَصِلْ به بعد جدياً إلى النطق بـ (كُتُبْ) كما نؤديها له. فهل يأمره دماغه أن يقول (كُتُتْ) وهو يسمع (كُتُبْ)؟ هل هو يسمع (كُتُتْ) ولا يسمع (كُتُبْ)؟ هل يسمع (كُتُبْ) ويأمره دماغه بلفظها فلا يطيعه لسانه فيعوض الباء بالتاء؟

لم يكن الطفل يمازح أباه بتغييره أصوات اللفظ لأنه وإن كان فرحاً راقصاً فإنه لم يثبت ولا مرة واحدة قدرته على نطق (كُتُبْ) بالباء، فإذاً كان فرحه متولداً عن إعجاب أبيه بتجاوز طفله حرمة المكتبة لا عن تبديل حرف بحرف من اللفظ المتداول.

وقد يمكن للطفل أن يسمع من قول الأهل (كُتُبْ) صوتاً يقول في سمعه (كُتُتْ) بعد أن يغلب صوتا الكاف والتاء المتجانسان صوت الباء فيجليانه سريعاً عن السمع، لكن تكرار الأب للفظ (كُتُبْ) وتنبيهه طفله إلى صوت الباء حسّسا الطفل بالباء، ومكنا في سمعه لفظ (كُتُبْ) فهو يسمع لفظة (كُتُبْ) ولا يستطيع إخراجها لفظاً موحداً إلا (كُتُتْ) أو (تُتُتْ).

هذا يفيد أن دماغه طلب إلى لسانه أن يؤدي حركة تقضي بعقد مخارج الباء بعد الكاف فالتاء، فقام لسانه بعقد مخارج التاء الساكنة بعد المحركة، فما هي علة هذه المخالفة؟ ما هو العامل الذي حال دون استجابة اللسان لأمر الدماغ؟

إنه معلوم لدينا أن الأب، حين قال لطفله (كُتُبْ)، بث في اتجاه سمعه طاقة موَّجت الهواء واتصلت بأعصاب السمع. ومن أفعال هذا التمويج في سمع الطفل فعلان، الأول صوت (كُتُبْ) والثاني اهتزاز أو اختلاج الأعصاب. الصوت حالة حسية يطلع عليها الفرد وحده ويدركها بسمعه. والاختلاج السمعي، المتولد لدى السامع بتأثير الطاقة التي بثها إلى سمعه ناطق خارجي، لا يدرك السامع منه شيئاً ما لم يكن على درجة فارقة من الحدة أو الضغط.

ولكن الاختلاج السمعي، الذي لا ندركه في أعصاب السمع ولافي أعصاب الدماغ الجامع لأعصاب الحواس، يترامى شيءٌ منه في جوارح مختلفة من الجسم من بينها جوارح جهاز النطق وعلى الأخص عضلة اللسان. ويمكن أن يكنى عن اختلاج الجهاز النطقي بعبارة اختلاج اللسان لأنه أشهر.

اختلاجات الأحشاء والأطراف والرأس المتولدة عن فعل الصوت ندرك بعضها. واختلاجات الجهاز النطقي ندرك بعضها؛ وندرك بالأولى اختلاجات اللسان. إن عضلات جهاز النطق تختلج إذاً لدى سماع صاحبها كلام غيره أو كلامه هو.

وكما يكون موج الطاقة المرسلة إلى أحد الأسماع جملة من الحركات المتنوعة المراحل تكون الأصواتُ الكائنةُ بها في السمع جملةً من الجروس المتنوعة، التي حُدَّ كل نوع منها بصوت أحد الحروف على اتفاق واختلاف بين شعوب الألسن. ويتبع جملة الجروس الصوتية جملةٌ من الاختلاجات في جهاز النطق، هي جملة الاختلاج اللساني. ونعرف وحداتها اختلاجة اختلاجة: هذه اختلاجة (لْ) وهذه اختلاجة (ذْ) وتلك اختلاجة (فْ) في الشفتين ورابعة اختلاجة (خْ) في الحلق عند اللهاة إلى آخره. هذه الاختلاجات اللسانية في بعض أعضاء مخارج الحروف نتعرف عليها، مفردة ومركبة، ما دون الحرف إلى الأحادي فالثنائي فالجملة الجامعة عدة ألفاظ.

تكون اختلاجة الحرف، إذاً، لا صوتهُ، نتيجةً لتطرف اختلاجات دقيقة تجاوزت السمع لتتقاطع في الفم عند منعقد المخارج الخاصة بهذا الحرف. فمخرج أي حرف هو، عندما ينعقد، نقطة التقاطع بين الاختلاجات السارية في هذه أو هذه من جوارح الجهاز النطقي بغية إنتاج الحرف صوتاً واختلاجاً، وإن كان العقل قائدَ الأوركستره.

فصوت الـ (بْ) أو (تْ) متصل بصورة مستمرة بأحوال النفس والأعضاء. واختلاج كل منهما، اللساني، يتصل كذلك بهذه الأحوال ويتأثر بها. لهذا يختلف صوت التاء ويختلف اختلاجها كل مرة سمعناها أو كلما نطقناها. فنحن نسبح في ظروف اجتماعية وطبيعية وذاتية نفساً وجسداً لا تستقر حتى حين تبدو مستقرة.

ومن هذا الموقع تتوفر الحروف اللسانية على كونية لا ندعي القدرة على تبين بداياتها ولا غاياتها لذلك كذب المنجمون.

فهل يعني هذا الحد الذي يقف عنده الطرْف عجزَهُ عن معرفة الأسرار التي تضمنها قول الطفل (كُتُتْ) بدلاً من (كُتُبْ)؟

إن جروس الـ (كُـ) والـ (تُ) متشابهة في الإدراك المبتدىء. لذلك مال لسان الطفل مرات عن (كُتُتْ) إلى (تُتُتْ)، كما أن جميع من نعرف من دارسي الصوت اللغوي يقرون بأن اللغات كلها تبادل في ألفاظها بين حرفيْ الكاف والتاء. وإدراك الصوت يؤثر في أمر الدماغ للسان بأن يختلج به. إذا كان أسهل على اللسان (ولاحِقاً على النفس) أن يختلج بـ (تُ) بدلاً من (كُ) فربما اختلس لحظة الالتباس التي وقع فيها الوعي ما بين (تُ) و (كُ) واشتغل أخف

الشغلين، أي اختلج بـ (تُ) لا بـ (كُ) التي قد تكون هي المسموعة على التباس.

والاختلاج اللساني يخلف وراءه وجيباً تابعاً له ومشابهاً. فلأنه حركة في جسم فإنه يستمر بعيد توقف محركات الجسم. فقد لفظ الطفل (كُـ) ثم لفظ (تُ) ثم ثلَّث بـ (تْ). كأن اختلاج لسانه بـ (تُ) جر تكراراً منسحباً لذاته هو (تْ) الختام والسكت، استسلس اختلاج التاء وصوتها فأسلس لها القياد. إن سَكْتَ الحرف الجاري، أي المتحرك، يسمعك صوتاً مثله، قطع (تُ) = تُتْ.

ولولا التنبيه المكرر إلى اختلاف الحروف المتشابهة ضمن جملة في حالي التصويت والاختلاج لاسترخت الألسن وازداد تكرار الحرف في اللفظ على حساب ما جاوره صوتاً واختلاجاً، كقوله: «من داعبٍ دَدِدِ».

بعد هذا يصير في الإمكان التعرف إلى الأسباب التي جعلت الأهل يعلمون أطفالهم أول الأمر ألفاظاً مثل (ماما) و (بابا) و (تاتا) و (نانا) و (دودو) و (سوسو) و (دِدْ) وقبل ذلك (غْ غْ) و (عْ عْ).

إن الطفل الذي يهتدي إلى إخراج حرف لا يشعر إلاّ وقد كرره. وكأن الأهل صادوا هذه الخاصة عنده فقاموا بإسماعه شيئاً تعلموه منه: إنهم لا يقولون له قلْ (با) ولا قلْ (ما). بل (بابا) و (ماما). ففي تكرار المقطع والنغمة يلبي الطفل حاجة الاختلاج وحاجة التنفس، فقوله (ماماه) زفرة كاملة. وإذا سجّع وأطال سمعته يغني: يا تاتاتا؛ يقف بها عندما ينفد هواء الزفرة.

وقد لا يختلف عن ذلك ترداد المغنين لبعض المقاطع. فأولاً يجري اللسان مجراه بداعي تكرر الاختلاج وثانياً يستمتع بالوزن الموسيقي وثالثاً بالأنغام، حتى يكون ريّ.

والوزن الاختلاجي يضغط جملة من الألفاظ في لفظ واحد يوافقه. فكل (بسم الله الرحمن الرحيم) تصير (بَسْمَلَهْ) لأن فيها (بِسْمِلْ). وهذا الوزن قوي لأنه مدعوم بوزن الرباعي. وأكثر المزيدات من قبل انفعل وافتعل واستفعل وفعلان تشكل وجبات لسانية شهية، صنعها اللسان لارتياحه إلى وصل الحركات المتقطعة. فبدلاً من قطع (است) عن (قام) وصل وقال: استقام. وهذه الـ (است) عربية وفارسية وفرنسية.

ونسترشد بموافقة الألفاظ للاختلاج كي نتساءل عن سبب قبول بعض اللغات نمواً في اللفظ حتى يتجاوز عشرين حرفاً وعدم قبول لغات أخرى لهذا، وما هي علاقة ذلك بمفردات الاختلاج ضمن نصّ من جملة ونصّ يبلغ قصيدة أو قصة أو خطاباً أو أي قطعة فنية؟

لعل اندماج الألفاظ في جمل مفيدة، تختلف من شخص إلى آخر، يتقيد بما بلغه

المتكلم من أطوار اختلاجية ليست عنده كما غيرها عند سواه. والاتفاق في جمل كلامية أو أبيات شعرية أو رعشة جفن أو وصلة رقص أو غير ذلك من الوحدات الدنيا إنما يدل على اتفاق بين شخص وآخر في بعض مواد البناء. أما المزاج فلا بدّ أن يختلف.

يختلف لأن الوجيب العضوي الدقيق الذي ينمو حتى يبلغ مستوى الاختلاج المحسوس يكون بتفاعل نفسي عضوي كثير التعقيد، ويكون أيضاً حاصل هذا التفاعل وتفاعل المحيط، وهيهات أن يحدس أحد بما يفكر به جليسه! فهو مبحر في موج خفي صامت، إذا اشتدّ ضج. ومعناه أن الاختلاج الكلامي نهايته الأصوات اللغوية. وعندما تبلغ النفس الصامتة مستوى النفس الناطقة تكون قد دخلت من معاناة الاختلاج إلى معاناة الصوت دون أن تخرج من الأولى.

فقد نمل الصوت ولا نمل اللحن وقد يحدث العكس. إذا مللنا النغم دون اللحن يهرب بنا الاختلاج إلى الخيال ونلفق له كلاماً حلمياً يتفق مع مجريات الحلم، وبذا يزول استثقال الصوت. فالعين أيضاً تكتب ولكن بالصور. رعشة العينين صور واختلاجة اللسان كلام. وكلتاهما تتصلان بالنفسي والخارجي وتجريان بين هذين المحيطين.

يسمع الأطفال من أهلهم ألفاظاً كثيرة مفردة وجمعاً. ولكنهم ينتجون الجمع على غير ما ثقفوه، يقول الأهل (كبير) و (كبار) فيقول الولد وهو يصنع جملته في طرف آخر: (كبيرون) بدلاً من (كبار) و (طنجرات) بدلاً من (طناجر) وهي القدور.

وتضحك ولا تتعجب لأنك تعلم أن الجمع بـ (ـِ ين) و (ا ت) جمع سالم من التكسير والتعدد؛ والجريان في مجراه أيسر على الطفل والولد فيسلكان المسلك الأسهل ويتجنبون الوعر. والجيوش الكبيرة لا تشذ عن هذا ولكن مسلكهم هذا ليس وليد تخطيط وتدبر واع لكنه غريزي. فالدماغ الذي أدرك بالسمع جموع التكسير وجمع السالم عَـمَّمَ السالم ووارى التكسير لأن النفس التي تحس بالجمع تجري مجراه الأسهل أولاً ثم تطمع بتحصيل الصعب. ذلك لأن الآلية التي تحكم العلاقة بين الدماغ وأدواته العضوية تسير في الخط الأقوم حتى إذا عطلت هذه الخطوط القويمة وصارت الدورة حول رأس الرجاء الصالح أسهل من عبور قناة السويس يذهب الجسد أو العضو ويمر من هناك، إلا أن يكون أولُ الفهمِ فهمَ الكلياتِ الكبرى.

وليس الصغار وحدهم يفعلون هذا. فبينما العربية الفصيحة تنوع بين سالم مرفوع وسالم منصوب ومجرور من المذكر: (و ن) و (ين)، وهي تفرق بين صفة المثنى المرفوعة وصفته المنصوبة والمجرورة: (ا نْ)، (ـَ يْن)، نجدُ العامية بجزء كبير منها توحد هذه الفروع الأربعة في صيغة (ـِ يْن): ماتوا الفلاحين، عنده ولدَيْن زغَيْرين.

ذلك كله يكون باستسلام النفوس للمجرى الذي تكون فيه الأعضاء أطوع. فما الفائدة من جواد كلما امتطيته حرن؟! فإما أن تراعي خاطره وتتفق معه وإما أن تبحث عن غيره لأنَّكَ لست له وليس لك. ولهذا نجد الأطفال الأسوياء تنمو ألسنتهم كلما نمت جسومهم ويخرجون من التعميم إلى التخصيص وكذلك يفعل أبناء العامة الذين لا تعود تتسع لعقولهم ونفوسهم عبارة محضنهم. فالفرق بين العامي والفصيح أن الفصيح له العامية والفصحى بينما يقتصر حظ العامي على العامية.

فهذا يقنع بجواد طاقته عشر شمعات وذاك يطمِّحه جواده بألّا يقنع «بما دون النجوم» لأن الجسد في النهاية قصيدة صاحبه. فما تظهره أصوات الولدان لا يخلو من دلالات بعيدة الأغوار.

من تباشير الكلام عند الوليد

سمعت من طفلنا علي محمود، ولم يبلغ الأسبوع، نغمة تشبه احتكاك صدفة بصدفة احتكاكاً لطيفاً. أدركت الصوت وأدركت الشعور الذي تلاه في الصدر وراء القص. ولا أدري ما إذا كان القلبُ مكانَ هذا الشعور أم غيره. لكنني كنت مقتنعاً بأن الصوت إحساس يشيع تأثيره في شبكة الأعصاب المتشعبة في بعض الأحشاء بلا تحديد. والآن أتساءل: من يدري أن الصوت هو الذي ولد الشعور القلبي المذكور؟ لِمَ لا يكون المولد هو ذلك الاختلاج الذي أصاب جهاز السمع من جراء الموجة الصوتية (موجات التذبذب الهوائي المولَّدة بتضارب الأجسام)؟

فالصوت أحسه وأعي إحساسي له، أما اختلاج دقائق جهاز السمع بفضل الموجة الصوتية التي تَلَقَّيْتُها فإني لا أحسه. ولذلك يغلب عندي الاعتقاد بأن الإحساس الذي كان في الحشا إنما هو حاصل تلك النغمة التي وعيت أحساسي بها، وليس وليد الاختلاج في جهاز السمع. على أنه قد يكون وليد الأمرين معاً.

ولم يخالجني شك في عفوية تلك النغمة الصدفية. فأنا مقتنع، عن غير علم، بأن الرضيع لا يأتي في أسبوعه الأول بأصوات ذات نغم محدد عن قصد. مع أنه قد يبدأ البكاء عن قصد في الأسبوع الأول. غير أني في اليوم الثالث لولادة علي محمود وقفت بجانب أُمه وهي في الفراش ولاحظت أنها حركت شفتيها لتقول شيئاً ثم تراجعت. فاستفهمت فقالت: اسأل أمي، أنا ما بدي إحكي. قالت أمها: بالفعل صحيح، قلت له: انْكِغْ غْ، إسـم الله. هو هالجيل ما ادري كيف، قلت له: انْكِغْ، على مرتين، فحـرك راسه عاليمين وعالشمال وقال: غْ غْ، طلعت معه يَمّ!

ظلت الكلمة في مسامعي، فانتبهت إلى بكائه وهو في اليوم الخامس. أحسست أن بكاءه نهر من كلامنا يجري مختلطاً؛ ألمح الكلمة في مجرى البكاء ولا أحققها، لكن الوزن وبعض الجروس وزن كلام وجروس كلام. أوَيأخذ مركز التصويت الكلامي عند الإنسان باكتساب الخبرة الكلامية من حيث أوزان الجمل والمفردات ودقائق الجروس والولد ما يزال جنيناً؟ وإلا فكيف يبكي ابن خمسة أيام وكأن بكاءه درج من الكلام الغامض؟ أيستقبل عقل الجنين كلام الأهل على صورة اختلاجات مقطعة تقطيع الجمل إلى ألفاظ ومفردات وحروف عن طريق انفعالات الأم التي تتحقق عندها كلاماً ذهنياً واختلاجاً لسانياً سواء جاءت الرسائل من الخارج أو تمخضت عنها الانفعالات الداخلية الخاصة؟ أم يستقبل عقل الجنين كلام الأهل على صورة اختلاجات وجروس دقيقة من خلال اضطراب جدران البطن الذي يحمله دون أن تشعر الحامل بشيء من هذا؟

لا نملك أية وسيلة تمكننا من الجواب، لا نفياً ولا إقراراً، على هذه التساؤلات. غير أن بعض الأحياء التي يكتمل نمو جنينها في البيضة خلال أسابيع، وهي مما يعمر قدر ما يعمر الإنسان، تدعونا إلى التساؤل عن مستويات النضج الجنيني والفروق ما بينها من جنين حيوانٍ إلى جنينٍ آخر، سواء ما يلد وما يفقس.

قام إحساس راهن مقام الدليل على خبرة مكتسبة تتضمن مثل هذا الإحساس الذي وَلَّد، كما تُولِّد هي، اللفظَ الدالَّ عليها واتخذه اسماً له كما تتخذه هي اسماً لها. ظهر ذلك بصورة عينية في ما فعله طفلنا محمد وهو ابن سنة إلا ثلاثة أسابيع. كان قاعداً قريباً من أمه ونحن جالسون في المطبخ. لاحظ ركبة أمه مكشوفة، فحبا سريعاً نحوها وهو يقول: «به» (الباء بفتحة ممالة).

سألتُ أمه: ماذا يعني؟

قالت: فكَّر الركبة البز (الثدي). وتبسمتْ له وأخذته وضمته.

قلت: صحيح؟!

قالت: اسأله عن البز.

سألته عن البز واشترك معي في سؤاله تلطفاً وتحببا بعض أخوته الكبار. مد محمد يده إلى صدر أمه وصار يبعد قبة قميصها محاولاً الوصول إلى قصده وهو يقول: به، به؛ بالصوت نفسه الذي دل به على الركبة.

إن رؤيته لركبة أمه أعقبت في خياله صورة لصدر أمه. وفعلت الصورة الخيالية في نفسه مثيل ما تفعله الصورة الحسية والصورة الخيالية لصدر الأم. ومما ظهر لنا من تلك العاقبة سعيُه إلى الركبة المماثل لسعيه إلى الثدي وقوله، في التعبير عنها، المماثل لقوله في التعبير عنه. وليس من شك في أن الدالَّ الذي دَل به على كلا الركبة والثدي أي «به» هو مقتطف من لفظ (بِزّ) الذي يدل به البيت على كل واحد من الثديين (البِزَّين).

إن اقتطاع الطفل لـ (به) من (بزّ) يدل على حدود النشاط العقلي اللساني عنده. فلا أحد يشك في أنه يسمع من الأهل لفظ (بِزّ) سمعاً سليماً. ولكنه لدى حاجته إلى التعبير عن مدلول (بِزّ) وجد نفسه عاجزاً عن تشغيل المخارج الفموية الواجب تشغيلها لتحقيق لفظ (بزّ) تحقيقاً تاماً. فأقام مصالحة بين عقله ولسانه وجرَّد لفظ (به) من (بزّ) وذلك في حدود ما قدرت عليه آلة النطق عنده. وصار قولهُ (به) مصطلحاً لفظياً، بينه وبين نفسه من جهة، وبين جماعته من جهة

ثانية، يدل به على ما تدل به الجماعة بكلمة (بز). لكن هذا الرمز المختصر يشير إلى أن العقل منذ بداية اكتساب الكلام يعمل وفقاً لقانون الدلالة بجزء من الوحدة الصوتية اللفظية على كل هذه الوحدة ومن ثم على مدلول تلك الوحدة بكامله.

ويظهر عمل العقل هذا في المجال الإدراكي البصري كما ظهر في المجال السمعي الكلامي. حيث أن البز في مألوف خبرة الطفل جزء من صدر الأم لا من ساقها. وله تكوين غير تكوين الركبة ووظائف غير وظائفها. ومع كل هذه الفروق التي خبر الطفل أكثرها تمكن عقله من إدراك بِزٍّ مجرَّداً من علاقاته المعهودة له كافة ضمن دائرة الصدر المتصلة بما يحيط بها من أعضاء. فقد كان شكل الركبة ولونها وحجمها المقارِبة لصفات تماثلها في صدر الأم كافية لأن تبني صورة للثدي مستقلة، وتستحق عنده اختلاجاً لسانياً لفظياً مطابقاً عن وعي للاختلاج اللساني اللفظي الواجب إثر إدراكه لجملة من الأحاسيس المتصلة والمتكاملة على طريق نشوء صورة حقيقية للثدي الحقيقي: البِزّ.

فقد شاد عقله بجملة محدودة من آثار الطاقات التي بعث بها المشهد إلى عينيه بناءً مكتملاً لـ «البز». فكانت جملة آثارها البصرية كالحروف التي تؤلف جزءاً من كلمة لتقول الشيء كله. كما قالت (بْه) الشيء كله وهي جزء من (بِزّ).

فقد مضت عملية التجريد العقلي عند الطفل في الحالين وفقاً لهذا المخطط التحليلي:

1 ـ حال التجريد اللفظي لـ (بْه) من (بِزّ):

(بـ + ـِ + زْ + زْ) ← (بـ + ـَ (فتحة ممالة) + ـهْ).

2 ـ حال التجريد البصري:

صدر الأم ← الثدي (البِزّ).

ومضت عملية الدلالة عنده في الحالين بعكس المجرى الأول، أي وفقاً لمخطط تركيبي ينضم فيه الجزء الدال إلى الوحدة المدلولية التي تشتمل في الأصل على مثله:

1 ـ حال التركيب اللفظي حيث (بْه) تُعْقِبُ لفظ (بِزّ) ولفظ (بِزّ) يُعْقِبُ صورة الثدي. وخبرات الطفل معه هكذا:

(بـ + ـَ + ـه) ← (بـ + ـِ + زْ + زْ) = (بِزّ) ← صورة الثدي والخبرات معه.

2 ـ حال التركيب البصري الخيالي حيث أعطت الصورة الحسية للركبة صورة البزّ التي أعطت أو أعقبت صورة الصدر والخبرات اللازمة عنها:

الصورة الحسية للركبة ← الصورة الخياليةللثدي ← الصورة الخيالية للصـدر + الخبرات النفسية المعاقبة.

هذا العقل الناشيء لا يختلف في عمله هذا من حيث القانون عن عمل العقول لدى البالغين إلا في تحجر العقول البالغة، عمومـاً، وانكماشها ضمن حدود التقليد الاجتماعي اللغوي والحسي الشاملَين. فالعقول البالغة لا تتفلت من لفظ (بِزّ) الاجتماعي وتنفرد في ابتداع أو ابتكار لفظ ينـوب عن (بِزّ) إلا في الحالات الشعرية والفنية والعبقرية. وهي نادراً ما تحرر النظر ليرى في صورة الركبة المثنية صورة النهد إلا إذا تحلى العقل بالنظر الغني.

ولهذه الحقيقة يشعر البالغون بالإعجاب حين يخرج الأطفال أو الفنانون من الأطر الصلبة للنظر العام إلى اللمح الشعري المعقول على ندرته. وهو ما امتُحنتُ به حيـن شاهدت في مكان عام للشرب صورة فوتوغرافية كبيرة بالأسود والأبيض لفتـاة سمراء واسعة العينين ممتلئة الوجه تجلس محنية الجذع منكبَّة على قبة غضة، تكاد تلامس بشفتها السفلى أعلى هذه القبة. ما هذا؟ نظر الأصحاب إلى الصورة وتأملوا. نهد! قال البعض وتنهد. وعلق آخر: حلو هذا التصور، لكن الفتاة تنحني لتلامس بشفتها منحنى ركبتها. إنها ركبة؛ الجذع يظلل الفخذ والساق تنحني تحت الفخذ وتظهر الركبة كأنها نهد. والمصور أبدع حين ترك بين الشفة وأعلى الركبة مسافة ينقطع الضوء عندها وتحل محله حَبَّةُ ظِل بدت كأنها الحلمة في قمة النهد!

لم يخسر الطفل شاعرية الملاحظة ولكن المصور الفنان تباهى بشاعرية الطفولة التي يشعر بمثلها أيضاً أولئك العلماء الفاتحون والروّاد.

1 ـ التمييز بين الصوت وقرائنه الاختلاجية

1 ـ يُقْسَمُ إدراكنا لأحوالنا النفسية إلى قسمين: إدراك مباشر وإدراك لاحق. فقد يقع المشهد في العين ولا نحصله إلا زائلاً؛ وكذلك الأمر في بعض تجاربنا مع الأصوات الحسية والروائح والمذاقات والملامس. لكن الأغلب في الأحاسيس أن ندركها ونحن نتلقى المؤثرات التي بها تتولد فينا.

ويشذ عن الوعي المباشر وعي الوعي. فإذا كان الوعي مشغولاً بشيء فإننا نجده لا يعي وعيه لهذا الشيء إلا بانشغاله بعمله المنصرم. وهذا يطرح مشكلة. كيف يمكن للوعي أن يعي عمله الزائل؟ ما دام انشغاله بالشيء قد ولّى فكيف له أن يدركه، وإدراكه يعني حضوره؟ فهل هو غائب حاضر في الآن ذاته؟

يُقَرِّبنا من الجواب على هذا السؤال إدراكنا للحُلُم ونحن ندخل اليقظة والحلم زائل. كيف ندرك الحلم ونحن نخرج منه، أي بعد ذهابه وانقضائه؟

إن وعينا لوعي مضى ووعينا لحلم مضى يشرحهما أن الذي كان من الوعي ومن الحلم ثم مضى قد مضى بالفعل، لكن أثره المختلج بمِثْله بقي يولِّد هذا المِثْل المستسرّ، هذا المِثْل الظل. وهذا الكائن النفسي الاختلاجي يطل بوجهه أثناء تراخيات النشاط الجديد القوي؛ وعي الوعي أو وعي الحلم، أو وعي كل ما يزول عن كونه الشاغل المباشر للوعي.

وهناك نوع آخر من المدارك التي تكون ويسهو عنها إدراكنا لأنها تمر في ظل شغل طاغٍ يستولي على الانتباه، وأخصّ منها بالذكر ما يكون مع الأصوات الحسية، اللغوية وغير اللغوية، من اختلاجات تنبثُّ في جسم السامع. ومن تلك الاختلاجات الملازمة لوجود الأصوات في المسامع اختلاجاتُ الأوتار الصوتية والحلق واللسان والشفتين والغارين والخياشيم ومغارز الأسنان والأسنان وسائر الأعضاء المكونة للرأس. ويلزم عن الاختلاج المتولد بالصوت اختلاجات في هواء الرئتين والفم وفي اليدين والأحشاء؛ حتى أنه قد نجد أثراً من الاختلاج عقب الصوت في أي مكان من الجسم، وفي الهواء المحيط بنا، والأجسام التي نحن على تماس معها. فإذا كنت متكئاً بكفيك على خشب دُكان وراءك، وتغنيت بأصوات مسموعة: آآآآ، آآآآ، فإنك تحس الرِّعشه في ساعديك وكفيك وتحس رجفة الخشب كأنه أوتار.

تلك الاختلاجات الكثيرة المنتشرة فينا ومن حولنا تكون متوارية خلف الأصوات التي نسمعها وننشغل بها الشغل كله أحياناً. أما متى حانت منا انتباهة إلى هذا الاختلاج المتولد أو ذاك، فإننا نحس لكل اختلاج إحساساً مغايراً لأحاسيسنا من الاختلاجات الأخرى. أحاسيسنا من اختلاجات الأحشاء تختلف عن أحاسيسنا التي تكون في الرُّكَب والفرج والجمجمة.

وإذا وقع الإدراك على بعض الاختلاجات الحلقية والفموية والأنفية التي تكون بتأثير صوت نسمعه، ووجدنا من أنفسنا قدرة على توليد أمثالها من جديد إرادياً وبقوة أكبر، فإننا لا نفاجأ بأن هذه الاختلاجات قد ولَّدت، بما لها من قوة اضطراب، أصواتاً نسمعها. وقد نجد أن الأصوات التي ولدتها الاختلاجات قد ماثلت الأصوات الأولى التي ولَّدت الاختلاجات. ومعنى ذلك أن ما كان من الأصوات بالاختلاج يعيد توليد الخبرة الصوتية التي مضت وكان هو بها.

ومتى تطوروعينا لهذه العملية التصويتية وأمكننا الاطلاع على أجزاء الحلق والفم والأنف التي تختلج وتولِّد الأصوات المماثلة للأصوات الأم، فإننا نمعن في تحريك هذه الأعضاء والتلاعب بهواء الأنفاس الجاري والساكن في جيوب الأنف والفم والرئتين، ليكون عندنا بهذه الحركات أمثال ما كان باستجاباتنا العفوية للأصوات المسموعة. وقد يوفق الإنسان فتستجيب تلك الجوارح لطلبه، ثم يحاول وينجح فيطمئن إلى اكتسابه مهارة لم تكن له. هذه المهارة تعتمد على القيام بحركات فموية تختلف أحاسيسنا بها عن إحساسنا بما كان عنها من أصوات. فتلك ملامس وهذه جروس.

2 ـ الإبدال الاختلاجي اللساني يولد الطاقة الإسماعية ويحدد الصوت

لكن العملية اللغوية ليست بهذه البساطة. فكثيراً ما نقصد إلى تحريك عضو أو مجموعة أعضاء في جهاز النطق، ليكون لنا من ذلك صوت نبغيه، فنشعر أن أعضاء أخرى تحركت أو أن الأعضاء ذاتها لم تحسن الاستجابة المرجوة. وقد يكون من نتائج ذلك ولادة صوت كالذي نبغيه، كما قد نعجز عن توليد الصوت ذاته لعجزنا عن عقد المخارج التي يكون بها أو لعدم اهتدائنا إلى التركيبة العضوية اللازمة لإحداثه أو لاستحالة التأدية على جهاز التصويت الفموي لدينا، إذ أن ما نسمعه أوسع بكثير مما نقدر على إعادة توليده باشتغال الجوارح النطقية.

وقد يكون الصوت الذي نسمعه ونريد توليده بألسنتنا ملحاً من حيث الأهمية والاضطرار إليه. فهل نستغني عنه؟ في مثل هذه الحال يركن الوعي إلى البديل الاختلاجي فالبديل الصوتي، لأن ملكة النطق يئست من قدرة الإرادة على تحريك الأعضاء التي اختلجت لسمع الصوت الحركة التي تعيد توليده. فالطفلة «بيان» (3 سنوات) تقول (ح) في كل (خ). فهي تقول (سحن) في (سخن) و(أحتي) في (أختي)... وأكثر الأولاد يقولون (سياله) في (سيارة).

ويظهر الإبدال كبيراً، ليس فقط في توليد ما يسمعه ناطق عن ناطق، بل في ما يسمع ناطق من أصوات خام. وقد تترجم مسموعات نطقية إلى مسموعات نطقية أخرى ليس لعجز في اللسان الحاكي عن إنتاج المثيل بل انصياعاً للسهولة وللميول الاجتماعية عن بعض أصوات إلى حروف تختلف صوتاً.

3 ـ اتحاد الصوت الحسي بماضي خبراته

ويدرك الذي يصيب في إعادة التوليد أنه أصاب كما يدرك الذي لم يصب أنه أخطأ ، لأن الصوت المُولَّد إذا كان هو ما نقصد إليه يدخل في الصوت الذهني المنتظِر كي يعيه ويُدخله في ذاته النامية، وإذا لم يكن هو إياه يقع في الإدراك موقعاً خاصاً ولا يتحد مع الذهني المرابط في الوعي، وعندها يكون وعي بالصوتين الذهني والحسي وباختلافهما. والخبرة الميتة لا صلة لمثلها بماض مذكور.

ذانكم حدثان من أحداث الوعي تصرف أحدهما في الأعصاب والنفس والأعضاء تَصَرُّفَ أخيه الذهني فجانسه واتحد معه، والثاني تصرف غير تصرف الأوَّلَيْن فكان له ظهور في الوعي غير ظهور الذهني الحاضر في الوعي، فلم يجانسه ولم يتحد معه.

أحداث الوعي تقبل كلها التصنيف في أجناس وأنواع ووحدات أخرى تقوم على ترابطات داخلية وخارجية منفردة. وتقبل أحداث الوعي الفرادة حتى يثنيها ويجمعها غيرها. والفرادة ضرورية لكل ما تميز من غيره سواء في ذلك الوحدات الجامعة والوحدات الدقيقة.

ومن طبيعة كل فرد من أفراد الجنس أن تأوي تجربتي الحسية الفردية معه إلى سابق تجاربي معه حين يكون له في نفسي من التصرف ما كان له في تجربة سابقة لم تمت. وكذلك هي طبائع الوحدات الجامعة. فنقول، تبعاً لذلك: هذا الصوت سمعته من فلان وفلان ومن قوم وقوم. إنما حكمت هذا الحكم لأني انفعلت بأفراد هذا الصوت الانفعال الذي لا أنفي أنه من جنس الانفعالات السابقة.

يتعرف الوعي على أحد أحداثه التي كانت فيه وكانت مداره مرة إثر مرة، ويكون ظاهراً للوعي في جملة مركبة من أحداث وعي أخرى. يتعرف الوعي على صوت في جملة من المدركات البصرية أو اللمسية أو السمعية أو الشمية والذوقية. وقد يتعرف عليه في وسط من المدارك الاختلاجية والشعورية. وتتبدل محننا من جملة مدارك إلى جملة، في حين يحافظ نفر من عناصرها على سابق المحن التي كانت لنا به. فإبريق الخمرة الذي استقى منه أبو نواس كان يدخل في تراكيب كثيرة وكل تركيب يفعل في الشاعر وصحبه غير فعل الآخر. وعندما قال:

كأنَّ إبريقَنا ظبيٌ على شَرَفٍ   قد مَدَّ منه لخوف القانص العُنُقا

عرف إبريقه في وضعه الجديد بين الأشياء. وكان هذا حدثَ وعي لم يكن من قبل. فقد

ولَّد الإبريق المدرَكُ هذه المرة جملة خيالية شعورية وعاها الشاعر ووعى أن الإبريق المحسوس قد خرج من جملة الأشياء الحسية التي هو فيها ودخل في الجملة التي ولدها.

4 ـ علاقة أحداث الوعي بعبارتها

والوعي متى ولدت بين يديه الرسالة لا يستطيع تجاهلها. فهو مجبر على معرفتها ولا يقدر على ردها. وهو عاجز كذلك عن وقف ترددها سواء أكانت مما تقبل عليه النفس أم مما تعافه، فذلك قائم ما دامت سبل الرسائل سالكة.

وكل حدث وعي لا يخرج معناه عما كان لنا معه من محن في أحوال التركيب والانفراد، في المستوى الحسي أو المستويات النفسية الأخرى، ما كان منها واعياً أو غير واعٍ ، ماكان في اليقظة أو النوم، وما كان في الانتباه أو الغفلة. فهذا هو تاريخه المترافد الوحداتً.

وجمل أحداث الوعي، كعناصرها الفردية، يمكن أن تولد مرة ولا تتكرر، كما يمكن أن تزدوج وتتعدد. ويتعرف الوعي على إحدى الجمل التي مرت به عندما تقع تحت نظره في أطر تضم بناءً واسعاً شاهقاً من الوحدات المركبة والبسيطة. فالأبراج تغير منازلها ويظل ممكناً التعرف على واحدها بفضل وصله حاضر فعله في نفوسنا بسابق فعله. هذا التوليد المعرفي كذلك لا نملك له رداً. والحقيقة لدينا هي في هذا التسليم المطمئن بأن القائم في وعينا قائم فيه بالفعل، وأنه قد سبق له أن قام فيه في إطار آخر من خبرات الوعي.

وتشتمل أحداث الوعي على تركيبات من المدركات النفسية، وإذا كان لها أسماء وتعابير لغوية فإن هذه العناصر اللغوية داخلة في تكوين مانعي. وغالباً ما تبرز أحداث الوعي عند بروز أسمائها، كما يغلب أن تتولد أسماؤها والعبارات اللغوية الدالة عليها عند تجليها هي فأنت تري البالغ لغوياً زهرة فيقول في سره أو بلسانه الناطق: وردة حمراء. وتتوالد أمثال مِحَنِه مع أمثال هذه الزهرة، ويتوالد الكلام الموافق لتفاصيل تلك التجارب وعامها. وقد يحدث أن يتلكأ التعبير اللساني عن وقوع الحدث النفسي في الوعي. ويرجع هذا التلكؤ إلى أسباب كثيرة منها قلة اشتغال اللسان والسمع بهذا التعبير، ومنها الرغبة في جهل ما نعرفه كي نقتله، ألا ترى كيف يتجاهل الراغب في إيذائك معرفتك ومعرفة اسمك؟

وإذا لم يتلكأ التعبير اللغوي، أو كان بعد تلكؤ، فإن كونه يتجلى للوعي في إحساسه صوتاً أو في إحساسه اختلاجاً. والصوت اللغوي هو ما نتداول التفاهم به، والاختلاج هو الكلام الصامت الذي يحدث وأنت تقرأ بعينيك أو تراه دائراً في وعيك يقول أفكارك وفمك مغلق الشفتين والأسنان على الأسنان.

وما لم تتولد أحدث الوعي وتتأجج المشاعر لا يكن كلام. فالوعي شرط للكلام غير كاف. فقد يغيب الوعي ويظل الكلام لأن التفكير بكلام جهاز شغال يقف على نشاطه الوعي

أحياناً وأحياناً يشتغل بالاستقلال عن الوعي، فالوعي هو الاطلاع على مجريات النفس وهو في الآن ذاته حدث نفسي يولد كلاماً. وأن أشاء قولاً فإني لا أقوله حتى يتولد موجبه. وموجبه يحدث عفواً، وقد يحدث بإرادتي. ويحدث بإرادتي حين أحيل النظر إلى الذاكرة كي تولد الحدث النفسي الموجب للقول، أو حين أحيله إلى الأحاسيس والمجريات النفسية الراهنة باعتبارها ولّادة للكلام. يسعني أن أقول لك: هذه السُرُجُ الثلاثة أضاءت طول الليل. فتجيبني متعجباً: وما نَعِسَتْ؟! حين ولَّد سهرُ السرجِ الليلَ بطوله في خيالك لمحةً لمن يسهر الليل من الناس حسبت السهر للسرج وطلبت لها أو سألت لها ما تسأله للناس: ما نَعِستْ؟!

تأليف الكلام مرهون بالتأليف الذي تجري عليه أحداث النفس والوعي. ويحدث عكس ذلك في الاتخاذ بالكلام المقروء والمسموع. هنا تتألف مجريات الوعي والنفس وفقاً لتأليف الرسالة الخطية أو الشفوية التي أمضي في إقبالي عليها. وما يَنظُر إلى المستقبل مما تولده فيّ الرسائل ليس سوى أحداث نفسية تكون الآن وتمضي، لكن عقلي يرتبها بعد ما هو كائن، ويعد ماضٍ رُتب ليكون بعد ماض. فالمستقبل شيء من الخيال مبني على أننا كنا بعد أن كنا، هو تصور نهجه بَعْديٌّ لا قبليّ، وُجْهته طلوعُ الشس بعد طلوع، لا غروبها بعد غروب.

تلك فكرة، وهي وجه من وجوه أحداث الوعي التي انتظمتْها. ويمكن التعرف عليها في مكتوبة غير هذه، شرط توليد أختها في النفس لمثل ما ولدته هي، فالمحن الواحدة مأواها من الوعي واحد.

5 ـ الاختلاج اللساني يولد الطاقة الإسماعية ويحدد الصوت

وليس من فرق بين ما يكون في الظاهر وما يكون في النفس والوعي. فالحسي نفسي، كما النفسي نفسي. ورؤوس المحن التي ألقاها في سري هي كرؤوس المحن الصوتية التي تكون في سمعي. غير أن ما يكون في سمعي يكون في سري وفي سر من سمع مثلي. ولهذا يبدو الحسي أيسر على الفهم المشترك من النفسي الذي لا يحس به غير صاحبه والمتفرسون. فأنا أتعرف على مكونات مجراي النفسي مثلما يتعرف الناس جميعاً على صوت الميم في الكلام الذي يسمعون، وعلى صورة النون في الكلام الذي يقرأون. هناك فرق بين إحساس وإحساس بشيء واحد، ولكن وحدة الإحساسين ظلت قائمة. متى تزول وحدة الإحساسين بالشيء الواحد؟ تزول حين تكف الطاقة الصادرة عن المحسوس عن توليد الحالة النفسية إياها مرتين. فأنت تشعر عندئذٍ بشعور مغاير لشعور مغايرة تنفي عنهما الوحدة. ويكون ذلك لاختلاف ما يصلك من الطاقة أو لاختلاف مزاجك الذي يستوعب الإحساس على حال غير ما

يستوعبه على حال أخرى.

الطاقة التي يولدها فم المتكلم تصل سمعك بدرجات مختلفة. لذا يختلف الصوت الذي يتولد في سمعك إثر نطق المتكلم بحرف يكرره. تختلف صفات الصوت الذي سمعته مرة إثر مرة من حيث الرقّة والخشونة، والعلو والهدوء، والبطء والسرعة (المدة). . . . وتختلف من حيث التهزيز أيضاً. وهذه الصفات نتعرف عليها في السمع على أنها أصوات مختلفة. والاهتزاز الذي نحسه في الصوت ليس في إدراكنا شيئاً غير الصوت، ليس اهتزازَ أعصاب، ولا اهتزازاً في عظيمات الأذن الداخلية أو في السائل المشتملة عليه. لكننا حين نتغنى ونسمع من أنفسنا أصواتاً مهززة ندرك مع التهزيز الصوتي الذي ندركه في السمع تهزيزاً آخر ندركه في الحنجرة أو في مخارج الحروف.

هذا التهزز الذي يكون في المخارج نحسه اضطراباً عضوياً يقوى أحياناً حتى يساوي اصطداماً بين جارحتين من جوارح الفم، ويستدق أحياناً أخرى ويستسر حتى أننا نحار: أكان اختلاج اللفظ هذا في اللسان أم في الذهن؟

6 ـ النظام اللغوي الصوتي ونظام الاختلاج اللساني

وما دمنا نولد بحركات أفواهنا من الأصوات مثل ما تولده في أسماعنا حركات أفواه الآخرين، وما دمنا نرى بأعيننا ونلمس بأيدينا أن بعض حركات الأفواه الأخرى تماثل البعض من حركات أفواهنا ـ وتعطي هذه ما تعطي تلك من أصوات ـ فإننا مضطرون للسؤال: هل الأصوات التي تكون في مسامعنا تُحدث كلما كانت منتظمة تموجاً اختلاجياً منتظماً في ألسنتنا وحناجرنا وحلوقنا وأسناننا وغيرها من جوارح جهاز النطق؟

إن الحكاة الذين يجيدون حكاية أصوات الحيوانات، حتى يعجز السامع بلا نظر عن التمييز بين هؤلاء وأولئك، لا يعرفون ما تقول تلك الحيوانات ولا هم يقصدون ما تقصد. وهم يعتمدون نظاماً من الحركة الفموية شبه ثابت، ويتوصلون بالطاقة الصادرة عن ذلك النظام إلى توليد أمثال ما سمعوا من أصوات دون أن يمدوا بأنظارهم إلى حلوق الحيوانات المحكية، ودون دراسة قد لا تصل إلى فائدة. فقد سمعوا الحيوانات ورأوها تحرك أفواهها وسمعوا تكرراً لهذا الصوت كلما تكررت تلك الحركات. وهذا هو الشيء نفسه الذي يحدث لأطفالنا وهم يرون أفواهنا تتحرك، ويحسون لهذه الحركات أصواتاً في مسامعهم. وهم كأولئك الحكاة لا يدركون من الأصوات أول الأمر معنى محدداً، ومع ذلك ينشطون في توليد أصوات بأفواههم كأصوات الأهل.

وإن نحن أسندنا جزءاً من القدرة على التقليد والمحاكاة الحركية إلى المشاهدة واللمس وغيرهما فإننا نضطر إلى السؤال حول التقليد استناداً إلى النظر كسؤالنا حول الصوت: هل يُحدث النظر إلى المشهد المتحرك اختلاجاً في أمكنة محددة من جسمنا يجري وفقاً لموج الحركة في الجسم المرئي حتى يتمكن المشاهد من توليد حركة مماثلة لحركته؟

إذا أديرت تضاريس صلبة على تضاريس، كما هي الحال في إدارة الطواحين اليدوية، فإن تصادم النوافر الحجرية يولد دوياً في السمع يتجاوب له صدى اختلاجي في أسناننا وأضراسنا. وإذا حف شيء بشيء أحسسنا مثل اختلاج الحاء في حلوقنا، كما أن الأصوات المخشخشة والرانة تهز منا الشجر والحنجرة والنغانغ هزاً نحس وراءه أمثال الشين والخاء والكاف والنون الصوامت في المخارج التي تنعقد وتهتز لتولد أصوات تلك الحروف. تلك الآثار المتولدة في الأفواه إثر الأصوات ليست إلا اختلاجاً يكون عنه في حال تقويته أصوات لها في حكم السمع صفات صوتية كثيرة متفقة مع الصوت الذي حدث في السمع بحركات طبيعية. لها جروس وترتيب وجهر وهمس واهتزاز كالتي أدركناها في الأصوات الطبيعية. وإذا كان النقل بالفم عن فم، وكان الصوت مما ترى حركته في مقدم الفم كالباء والفاء والـ V والميم والثاء والذال والظاء، فإن التسديد يكون أدق.

هذا كله يفيد أن الأصوات التي تتكون في مسامعنا يتكون معها في جهاز نطقنا اختلاج موصول بالإدراك السمعي. وبعضه يمكن أن يعيد توليد أمثالٍ للصوت الذي كان حين كان، وبعضه سلبي يشبه الوجيب المستسر داخل عضو لا يصادم غيره فينقضي ولا يكون عنه صوت بل صدى لا يدركه غير صاحبه، وبعض من الاختلاج يولد من الأصوات، حال اعتماد ذلك بالتقوية، ما لا يجانس الأصوات الأم التي كان حين كانت.

7 - تحوُّل الإنسان عن لغة الحكاية التي يلتفت فيها إلى الحسي ومصدره الخارجي إلى لغة اجتماعية نفسية يلتفت فيها إلى ذاته الفردية والاجتماعية

النوع الأول من الاختلاج هو السيد في اللغات والكلام لأنه يولد أمثال ما يسمع صاحبه ويوفر استقراراً صوتياً للكلام يمكن أن يدوم آلاف السنين. تسمع ب ل د، ويختلج جهاز نطقك اختلاجاً يقف بإدراكك على ب ل د، وتقصد إلى توليد الأصوات من جديد فتدير من الآلة ما كان منها قد دار وقت سماعك الصوت. أليس عجيباً أن تدير لسانك كي يشتغل سمعك؟ ولكي يشتغل بمثل ما اشتغل به أولاً من الصوت؟

لا نعرف متى وعى الإنسان ربط العقل للصوت في الاختلاج اللساني الفموي وفي حركة

الهواء التنفسي. لكن العقل الذي أدرك من نفسه القدرة على توليد مثل ما يسمع بتشغيل آلة النطق لم يقع في حيرة عندما وجد نفسه أمام النوع الثالث من الاختلاج اللساني الذي يكون مع الصوت المسموع، حيث يكون اختلاج يولِّد غير أمثال ما يسمع من الأصوات.

فما يكون عن صوت أو معه، والصوتُ من التجربة الاجتماعية المشتركة، يسعه متى كان أن يولد ذكرى الصوت في أذهان الجماعة سواء تجانسا أم لا. فإذا كنت تسمع ق ق ق والجارحة المختلجة بـ (ق) لا تنهض لإعادة توليد هذا الصوت فإنك تجد أن جارحة أخرى تتأهب وتنهض ولكن بـ أأأ بدلاً من ق ق ق. قد يحزن المرء المستعيض عن هذا بذاك بعض الحزن ولكنه يجد أن الفهم المشترك قد لبته أأأفينصاع، ويقول (آ ءَ تْ) الدجاجة بدلاً من (قاقت) ويقول لابنه: «تأكل أاءه» أي بيضة؟ انتقل الفكر عبر الوزن المشترك من جملة صوتية إلى اعتماد أخرى.

وعلى غرار هذا تقطع الكلمة صلتها الموقظة بمصدرها الصوتي وتدخل البنيةَ النفسية وتُركَّب فيها لتكون الدال عليها. فما دامت هذه البنية في التجربة المشتركة أليفة هذه الكلمة والكلمةُ أليفتَها فإنهما تكونان الواحدة بكون الثانية. وهكذا تحولت اللغة عن كونها إنسانية طبيعية إلى كونها إنسانية إنسانية.

ولا يكون العقل قد خسر حين وقع بصوت على اختلاج عاجز عن توليد أمثاله بل رأيناه قد أفاد من هذا إفادة كبيرة وأقام بناءً لغوياً صوتياً عماده عدة عشرات من الجروس؛ وفصل هذا البناء عن الأصوات الأم كما هو مفصول عن عالم المدركات الأخرى، ودلَّ به عليها كما دلّ به على الدنيا وعلى ذاته؛ وجعل بذلك من صاحبه إنساناً.

غير أن هذا النظام اللغوي العالمي العملاق ما كان ليعمر إلى الغد لولا اعتماده على أصوات تولد اختلاجات كفيلة بتوليد أمثالها. وهو المبدأ عينه الذي كان يستخدمه ليجيد محاكاة أصوات الطرائد.

ولا تختلف محاكاة أصوات الطرائد من حيث كثرتها وصعوبة أدائها عن محاكاة أصوات الانفعالات والأصوات الطبيعية التي لا يستغني الإنسان في المجتمع عن التطرق إليها، والمحاكاة تنجح حيناً وتخيب في بعض الأحيان. واللجوء إلى المحاكاة، كلما لزمنا التعبير عن مصوت أو لزمتنا الحيلة للقبض عليه، يشبه استعمال الآلة لغرض واحد أو لقلة نزرة من الأغراض ونفيها بعد ذلك. وهذا لا يماشي التكوين الطبيعي للجسم والنفس. فاليد واللسان والعين وكل عضو فينا به نقوم، وهو هو، بوظائف لا نقف على إحصاء لها. وكذلك هي القوى النفسية. ونحن كذلك لأننا قبلنا أن نقف بقوة في وجه ما لا نريد وأن نسرع في استخدام آلَتِناكل استخدام ممكن ليكون لنا ما نريد. فتطورت الآلة بتطور الفعل والإرادة.

8 ـ من تحريك الحيوان باللغة إلى تحريك الفرد والمجتمع

يريد الواحد من الناس أن يستجيب له الإنسان والحيوان والشيء، يريد أن يكون له ما يشاء في الأرض والسماء. ولكن كيف؟ باليد واللسان. اللسان يقرب ما هو خارج متناول اليد حتى يكون في متناولها. ولكي يكون اللسان أهلاً لهذه المهمة، والعقل بعد قليل، لجأ الإنسان إلى المحاكاة ظناً منه أنه بهذه الحيلة تقع جميع الطرائد في فخه. نستدرجها بصوت تألفه أو ننفرها بصوتٍ ما يهولها أو نخرجها من مظانها بمثل هذا أو ذاك؛ فنقبض عليها أو نوقعها في الشباك والكمائن أو نطلق عليها الحجر والسهم أو نرسل في إثرها الكلاب.

ومحاكاة الأصوات التي لا حصر لها كشفت للإنسان أنها مهمة فوق طاقته. ولكنها كشفت له أيضاً أن ما خاب منها في الصيد لم يكن خائباً في دلالته لدى أبناء الجماعة على قصدِ مَنِ استعملها. فقد نغري الديك بالصياح بقولنا: كوكُ ـ كو كوه، ولا يستجيب، فيفهم سامعونا. وتصير الحكاية ذات فائدة في الخطاب المشترك بين أفراد الجماعة لا بيننا وبين الديكة. ويصير قولي لك، والديكُ هارب من جهتك: الديك! أجدى في القبض على الديك من محاكاتي صوته، وكذلك في صيد المها: ماه ماه← مهاة!

خيبة المحاكاة في الوصول بالصياد إلى مطامع غير محدودة كشفت له خيبة الصيد الإفرادي وصلاح الصيد الجماعي. المحاكاة لغة بين الفرد من جهة، وطريدته من جهة أخرى، وبينه وبين الأفراد الآخرين، أبناء جماعته. وهو في المحاكاة من أجل التفاهم، لا من أجل القنص، غير مضطر إلى الدقائق التي تجعل الصوت حيوانياً وطبيعياً. فلست مضطراً كلما شئت أن تذكر الرعد بين أقرانك إلى محاكاة صوت الرعد بحيث يكون كأنه هو، بل يكفي أن تقول: /هدد/ أو /دِ دْ/ أو /عَدَ دْ/ حتى يذكر سامعك أنك تشير بجزء من الصوت إلى الصوت كله. فالفكر مبني هذا البناء؛ يرى الجزء ويحكم أنه كل، ويلمس من تجربته طرفاً، حَرْفاً، فتتولد التجربة كلها تقريباً بهذا الحرف. وقد يكون /دِ دْ/ من صوت الأضراس أو الحديد، ولكن المقام يحدد المقال ووجهة السهم.

تمسَّكَ الإنسان بالجانب الإنساني من المحاكاة؛ واستحالت الصورة الصوتية، الغنية بالأنغام والجروس المتمازجة والقليلة التتالي، كلمةً من نغم أو نغمين وثلاثة بارزة ومتتالية وفقاً لوزن يجمع العديد من المفردات.

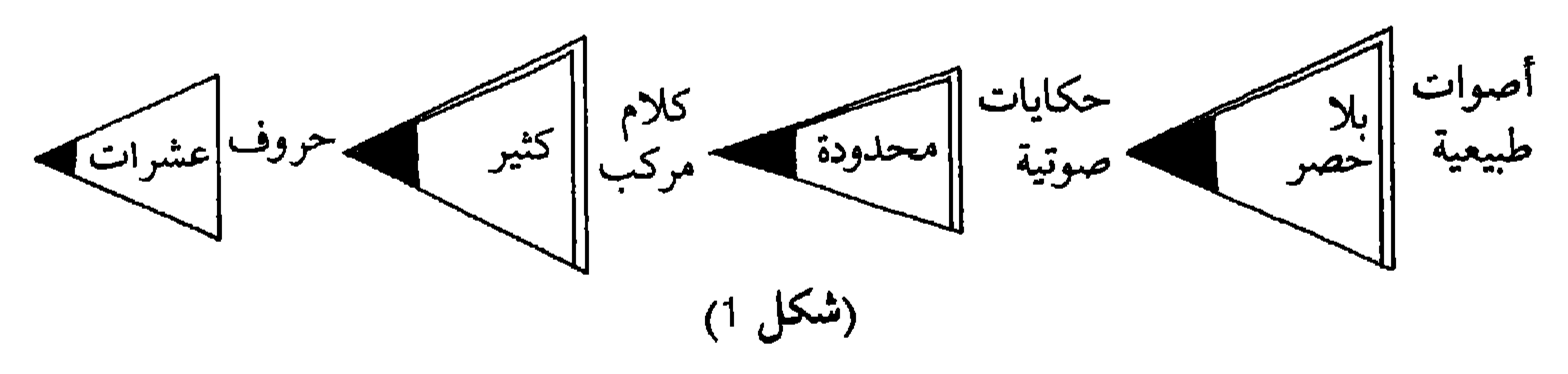
فيكون الإنسان قد مشى من طمع في تدجين الأصوات المهمة كافة إلى الحصول على محاكيات محدودة ومحصورة النفع. لكن الاختلاف في تأدية الحكاية ما بين شخص وآخر وجماعة وأخرى وظرف وآخر جعلت الحكاية القائمة لتوليد صوت طبيعي أو حيواني واحد

مصدراً لأصوات إنسانية متعددة في موضوع واحد؛ فكانت المحاكاة بذلك أماً خَلَّفت في الأمة الواحدة العديد من الألفاظ، والعديد من الألفاظ في كل أمة وقعت لها التجربة المماثلة.

كان الكلام وليد الحكايات الصوتية، ولكن المخارج الصوتية الكلامية في جهازنا النطقي انحصرت استجاباتها في نحو من خمسين اختلاجة صوتلغوية، هي مولدات الحروف في كل لسان. كان ذلك لأن الإنسان قصر الحكاية على صوت الإنسان وحده تقريباً.

والتمازج دائم بين اختلاجات الحروف وبين أصوات الحروف وبين اختلاجات الكلام وأصواته وما بين ذلك وبين ما تبقى من حكايات تقوم ضرورة وتساعد في تحريك التقليد الصوتي القوي المحافظة في الجروس أو الوزن أو الخامة أو الألفاظ أو الدلالة.

وقد يبسِّط الرسم هذه الرحلة الطويلة في حياة اللغة الصوتية:



(شكل 1)

مال الإنسان عن الحكاية إلى الكلمة يعني أنه مال عن الوسيلة الفردية إلى الجماعية، عن العمل الفردي في تأمين ضرورات الحياة إلى العمل الاجتماعي الجماعي والزوجي. والتخلي عن وسيلة أو عن عمل فعال إلى عمل أفعل يدل دلالة قاطعة على نمو عقلي متطور وعلى تحول الوعي نحو الذات الإنسانية؛ ذلك أن اللسان لم يعد رافعة لتحريك الجسم المنوي تحريكه فقط، بل صار مع الكلمة الإنسانية رافعة الروافع. صار يكفي أن تصرخ المرأة: «شباب غِلمان»! حتى يكون الشباب والغلمان قد رفعوا عنها الضيم الذي شكت منه. فهذا أجدى بما لا يقاس من توسلها بأصوات رقيقة أو أصوات مرعبة لردع الخطر الغالب. هذا بالإضافة إلى وجود مخاطر طبيعية لا يجدينا شيئاً تصليت المدافع الصوتية عليها.

لقد فهم الإنسان منذ أول اللسان أنه بالعمل الجماعي يحيا الإنسان. ولكن قومية الحياة الاجتماعية أوجبت قومية اللغة، ودلت على أن التعاونية الإنسانية محدودة بحدود هذه اللغة القومية. فاللغة التي أدعو بها قومي إلى الصيد المشترك أو التخلص من الماء والنار تخلصاً جماعياً هي عينها التي يدعو بها البعض بعضهم الآخر لصد هجوم قومي آخر أو للهجوم على خيرات جماعة أخرى. والبعض فقط يفهمون أن الإنسان واحد وحياته لا تكون بلعق دمه بل ببسط الشبكة الإنسانية في الكون الواسع.

فاستعمال اللغة سلاحاً عدائياً بين المجتمعات مجرور على الإنسان من زمن استعمالها سلاحاً فردياً وجماعياً في صيد الحيوان.

9 ـ التحول عن الحكاية إلى العبارة أوجب الدقة في إدراك الاختلاج اللساني

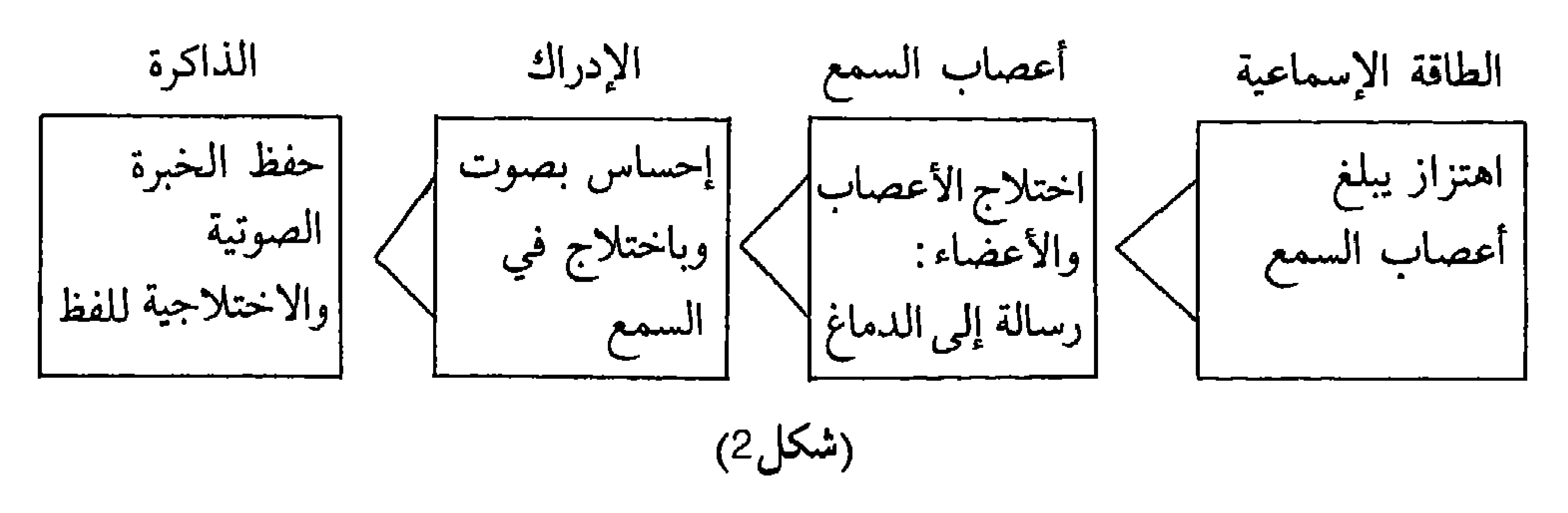
يظهر للإنسان كما ظهر له من قبل أنه صار في حياته معتمداً بالدرجة الأولى على جماعيته لا على فرديته. ولكنه لم يدرك أن أنسنته الصوت الطبيعيَّ والحيواني بمحاكاته لهما قد جرته إلى التعاون أكثر وإلى الانتقال من طور في التواصل الصوتي إلى طور أعلى. ولا أنه كان في طور المحاكاة يشغِّل طاقته الذهنية وجوارح فمه وأنفه كلها ليؤلف صوتاً ليس من طبيعة نطقه توليـــده. كما أنه لم يعِ أن عقله، بتحويله أصوات التفاهم كلها إلى أصوات إنسانية هي من طبيعة أنفاسه وحركات حلقه ورئتيه وفمه (ضرورات فيزيولوجية)، قد صار يدرك بسرعة كبيرة، وبدقة، أي أن الجزئي الدقيق من الجريس الصوتي ينوب عن الكلمة في توليد اختلاجها الذهني واللساني السالفين. وقد وقفنا على قسَمٍ غريب، قد يكون من عمل الصوفيين، يقول: «وكسرِ الـ هِـ»، فقد تجاوز العقل دلالة كسر الهاء على قولهم «واللهِ» و «باللهِ» و «تاللهِ» إلى أن جعل هذه الكسرة من حرف الاسم موضوع قسَمٍ ينوب عن الأقسام المغلظة. وإذا انتبه الواحد منا إلى استعمال اللغة يجد كثيراً من الألفاظ، بل والجمل، يختزل إلى حروف. فقد تدعو بـ (تَـ) بدلاً من (تعال) و (رُ) بدلاً من (رُح) و (سْ) بدلاً من (اسكت).

مثل هذا موجود في فصيح الكلام شعره ونثره، وفي ألسنة الأمم الأخرى وأقله بعض الضمائر. وهو ما جعل البعض يقولون بأن حروف الكلمات كانت ألفاظاً تامة فاعتصرت مجموعات منها بحكم الجوار وضغطت فكونت كل مجموعة لفظة. وأن الألفاظ الآن عبارة عن جمل مختزلة، ميكروجمل.

وحقيقة ما في الأمر أن المحاكاة حملت معها التخصيص الصوتي: لكل تصويت غرض معين ودلالة معينة. والتخصيص في التصويت، بانتقاله في الحكايـة التي تميز مصوِّتاً عن مصـوت إلى الكلام المتداول والمتوارث بالتعلم، قد جعل المهارة في توليد الكلام شائعة؛ إن أقلّ الناس علماً، بالمعنى المدرسي، هم أكثرنا وأسرعنا كلاماً شائعاً، وقد لا يلحق ذهن المتعلم بكلماتِ الجارة المتحدثة إلى أمه حديثها العادي. لكن تلك النغمات المتسارعة المقطعة تقطيعاً يعرفها المتكلم والسامع. فما إن يُلامس موجها جهاز السمع حتى يدركها ذهن السامع ويختلج لسانه الاختلاج الجدير بإعادة توليدها حين يقوى. ومن القراء من يقرأ في ساعة قدراً من الكلام لا يقرأه غيره في ساعات؛ فالعين كالأذن تمد العقل برسائلها وهذا مضطر للاطلاع على العَرْض الزائل بسرعة وإلا فاته القطار. كذلك تصير اختلاجة الشفتين الميمية

المفردة كفيلة بإحياء التجربة السابقة مع سمع الميم ونطقه وسائر ما كان للحرف فينا من أبعاد كما ظهر في كسر الـ هـ.

هذه الدقّة من الإدراك تطلعنا على الصورة الاختلاجية للفظ في اللسان بلا صوت، وعلى صورته الاختلاجية الذهنية المتولدة من فعلين مختلفين ومجريين حسيين مختلفين. الصورة الاختلاجية الذهنية للفظ يمكن أن تكون أثراً من آثار الطاقة الإسماعية التي جرت في أعصاب السمع مجرى خاصاً والتقطه الذهن مع الصوت. ويمكن توضيح ذلك بهذا الرسم:



(شكل2)

والمجرى الآخر لصورة اللفظ الاختلاجية هو الإحساس بحركات المخارج حين تنعقد أو تنفك لِلَفْظ حرفٍ أو كلمة سواء لفظ أو ظل طي النية. عند عقد النية على لفظ اللفظ تكون صورته الاختلاجية في اللسان تبعاً لكونها في الذهن. ولكن اختلاجة اللسان باللفظ الصامت أو المصوت يلتقطها الحسّ المختص بإحساس هزات البدن السطحية والباطنية. وعلى غرار ما كان عن طريق الأذن، يكون عن طريق اللسان إدراك لاختلاجة اللفظ في اللسان وإدراك للصوت في السمع. ويكون في الذاكرة حفظ لصورتيْ التجربة المزدوجة.

وهكذا يتحد اختلاجان للفظ في الذهن والذاكرة؛ الأول جاء من اختلاج الأذنين الظاهر في الوزن، والثاني من اختلاج مخارج الحروف، كما تتحد له مع ذلك الأصواتُ المتولدة عن الطاقة التي أصدرها جهاز نطق السامع، والأصوات التي ولدتها أجهزة نطق الآخرين.

والواقع أننا لا نضبط إدراكنا يطلع على اختلاجات لفظية سمعية ونحن نصغي إلى المتكلمين أو الآلات اللافظة. فقد استبقنا الأمور لكن اختلاجة اللسان في أثناء النطق واقعة في الإدراك كلما تحول الانتباه إلى معاقد الحروف بسبب من تلعثمٍ أو غيره من لذات أو معيقات وفي الإجمال يظل اختلاج النطق هو أيضاً مطوياً في الصوت الذي نسمعه بفضله، أي في أثناء التكلم المصوت؛ فأنت إنما تتكلم وتدير آلة النطق لديك، أعضاءك المشاركة في إنتاج الكلام، وتسمع صوتك ولا تعير انتباهك لتقارع المخارج الفموية الشديدة والرخوة ولا للاهتزاز

المائج فيها وفي ما جاورها وفي الأعصاب المرسِلة بتأثراتها إلى الدماغ. كل عقلك في الصوت وفي بعض ما يعقبه من تولدات نفسية كالصور والمشاعر والأفكار الكلامية الصامتة. أما الاختلاجات النطقية الدقيقة فنادراً ما نستنطقها ونستلغي حِسَّها (نطلع عليه اطلاعنا على اللغة). فالعقول السائدة في الحياة وفي الأدب عقول تقرأ في الغالب المكبَّرات. عند رابليه ينقب المحارب أسنانه من بعد وليمة إثر معركة ملحمية فيخرج من بين أضراسه بعض الجنود أحياء وقد يقومون من فورهم إلى السلاح. ويؤذن المؤذنون «الله أكبر» اعتباراً لقيمة الكبر في مقابل دنو الأصغر والأدق. وعندما تسمع كلمة وتستمرئها يأخذك صوتها ولا تفكر في أن ارتياحك إليها قد بسط لها جهاز النطق لتختلج فيه بلا مزاحمة مرة ومرات في حين يكون مقتك وسخطك لكلام ممقوت مسخوط كناية عن إقفال مداخل تلك الأحواض الفموية في وجه ما تسمع كي لا تختلج بمثله لكأن (مقت) و(سخط) من أصوات التمخط الأنفي ومن أصوات الحلق لتعزيل مجاري النفس. فذاك كلام نمهد له الألسنة لأن لنا في اختلاجها به لذائذ.

ومن ذلك بعض مقاطع الأغنيات الجميلة التي تعبر إلى ألسنتنا مع تحرك لساننا بأقل وأدق عناصرها. ، فقد تقف على لسانك يختلج ويردد قولها: «يا اللي رضاك أوهام» ويكون المدخل دقيقاً دقة ارتعاش الشفة السفلى بنغمة شاردة من ميم التقطتها أذنك (أو عينك) من على شفة، فولَّدتْ أو رَجَّعت الجملة بكاملها. ويكون هذا التوليد شبيهاً بولادة جديدة للحلم، أي بتذكر الحلم، لا بتكرره، عن طريق طاقة مذكِّرة بجزء من بنيان الحلم. ثم يولد الجزء ركناً وركناً من هنا أو من هناك حتى تكتمل الصورة. تلكم دقائق يجب رصدها وسبرها والوصول إلى قوانين فيها.

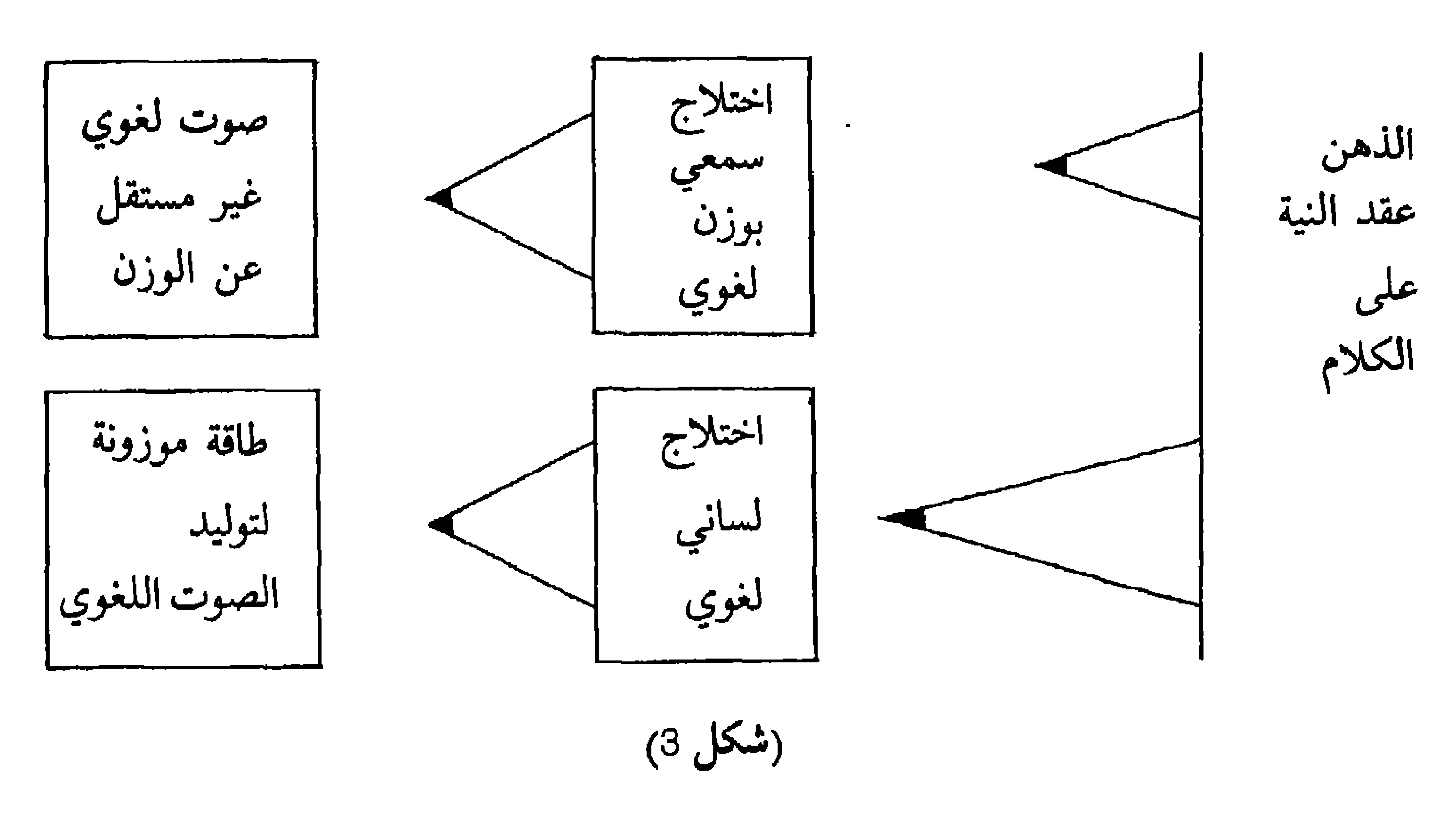
10 ـ العقل يقرن الجملة الصوتية بجملة اختلاجها السمعي وبجملة اختلاجها اللساني

إننا نسمع الكلام الذي نقوله والذي يقوله غيرنا موزون الألفاظ والجمل، وأقول أيضاً موزونَ النغمات المنفردة. وندرك ذلك الوزن ولا نعي أنه هو عينه المجرى الاختلاجي السمعي في مقابل المجرى الاختلاجي النطقي. فعند سمعي القول المصوت يكون عندي الصوت بأنغامه وجروسه المختلفة في الذوات والصفات والترتيب والتقطيع، ويكون عندي الوزن الصوتي أو الاختلاج السمعي الذي لا أدركه مستقلاً عن مجرى الصوت؛ وإذا كنت أنا المتكلم يكون عندي أولاً سلسلة من اضطراب المخارج؛ لكل فرد من ضرباتها إحساس خاص، ولكل مقطع من مقاطعها إحساس منفرد، ولكل جملة استقلال في إدراكنا لها.

فهل يقرن العقل بين الجملة الصوتية والجملة الاختلاجية السمعية والجملة الاختلاجية النطقية؟ وماذا يتوجَّب على ذلك؟

في الحلم يمكن أن يتكلم النائم كلاماً يسمعه من كانوا في جواره، ويمكن أن يتذكر أنه جرى في منامه كلام بأصوات واضحة دون أن تلتقط المسجلة الراصدة أي صوت. وقد ينقل الحالم وقت تذكر الحلم نصاً شعرياً أو نثرياً ويبين فيه لحن القول الذي كان له في أثناء الحلم. وربما ذكر الكثيرون منا تجارب لهم مماثلة. ويكون للحالم إدراك محدد لمعنى القول، كما يكون المعنى في اليقظة، عند كل مرة بلون. كل هذا بلا صوت حسي، ولكن هل هو بلا اختلاج لساني صامت؟

فهذا مثل من أمثلة اتحاد الاختلاج النفسي ـ السمعي بالصوت الحسي والاختلاج اللساني. وإذا تمكن الكلام الذهني الذي صار صوتاً يسمعه الحالم وحده من تحريك الآلة الناطقة لدى الحالم تحريكا مجدياً، أي ناطقاً ومصوتاً، بحيث يسمع هو ونسمع نحن، أو جهازنا المسجِّل، النص المختلج في لسان الحالم جزئياً أو كلياً، فإنما يكون الاختلاج الذهني قد صار ثلاثة أشياء: اختلاجاً لسانياً، وصوتاً، واختلاجاً سمعياً، يكون عندئذٍ عَقْدُ النية على الكلام أهلاً للتفرع في ثلاثة مدارك تظهر في الرسم التالي:



(شكل 3)

11 ـ قدرة الناطق والسامع على توليد الاختلاج اللساني والصوت اللغوي المشتركين تثبت وحدة المعرفة الإنسانية عن يقين

الاختلاج اللساني الذي يراه الحالم ناطقاً ومصوتاً ويكون في الظاهر مصوتاً أو مكتوم الصوت إنما يشبه الاختلاج اللساني في اليقظة حيث يكون نطقٌ بكلام مصوت أو بكلام مكتوم الصوت.

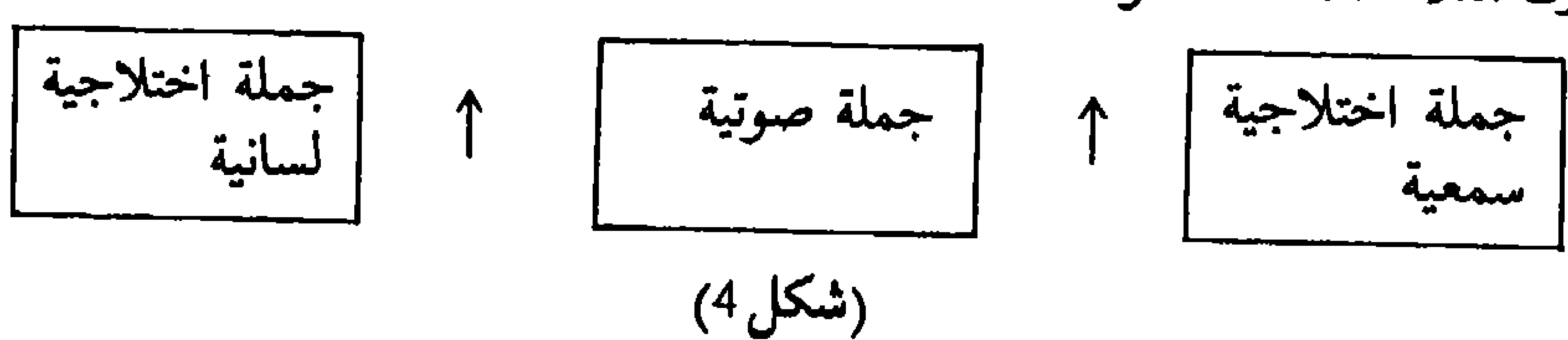
والعقل لا يفرق بين اختلاج لساني ناطق بصوت واختلاج لساني ناطق مع كتمان الصوت. فأنت تكتب الجملة التي تكتبها محركاً آلة النطق تحريكاً مصوتاً أو تحريكاً مكتوم الصوت. فالجملة في إدراكك هي هي إنما يغيب اختلاجها اللساني حين يدغم في التصويت بها.

أمّا على المستوى السمعي فإننا أسرى الصوت الجاري في السمع وأسرى الوزن الذي يتقسم ليحد وحدات الجملة الصوتية في حدين: حد الحروف وحد الكلمات. فلكل حرف وزن، ووزنه حركته ومدته. ولكل كِلْمة وزنها، ووزنها يتألف من وحدة أوزان حروفها. ووزن الجملة يساوي وحدة الوزن المؤلفة من أوزان كلمات الجملة زائداً طوارىء التأليف.

ومامن شك في أن إحساسنا الخفي بالاختلاج السمعي، أي حركات الموجة الصوتية للجملة، إنما يختلف عن إحساسنا بالاختلاج اللساني بها. غير أن الموجة الصوتية التي تكون في أسماعنا بأثر من جملة اختلاج لسانٍ ناطق تبدو لمداركنا موقعة الوحدات والتقاسيم على أوتارنا الصوتية وألسنتنا ومخارج الحروف التي تؤلف تلك الجملة. تتنزل الأجزاء الصوتية للجملة المسموعة منازلها اللسانية لدى السامع. وتتخذ في اللسان وحدة الوزن التي كانت لها في لسان قائلها، كما اتخذت في سمع سامعها وحدة الوزن والجروس التي كانت لها في سمع الناطق بها.

لنبسِّطْ الأمورَ ولنقل: إن الاختلاج اللساني يولِّد اختلاجاً معادلاً له، هو الاختلاج السمعي. وإن الاختلاج السمعي يولِّد اختلاجاً معادلاً له هو الاختلاج اللساني. ولنقل أيضاً إن الجملة الاختلاجية السمعية تمثل العيار الذي توزن به الجملة الاختلاجية اللسانية، كما أن الجملة الاختلاجية اللسانية تمثل العيار الذي توزن به الجملة الاختلاجية السمعية الناطقة في هذا الميزان النطقي السمعي اللساني.

وبناءً على هذه المحصلات يكون لدينا رسم عام يبيِّن التعادل بين ثلاثة مدارك. ونرمز للتعادل بلسان الميزان أو سهم الميزان المنتصب هكذا: ↑، ونسميه «تزن» والرسم العام للمدارك الثلاثة المتعادلة هو:

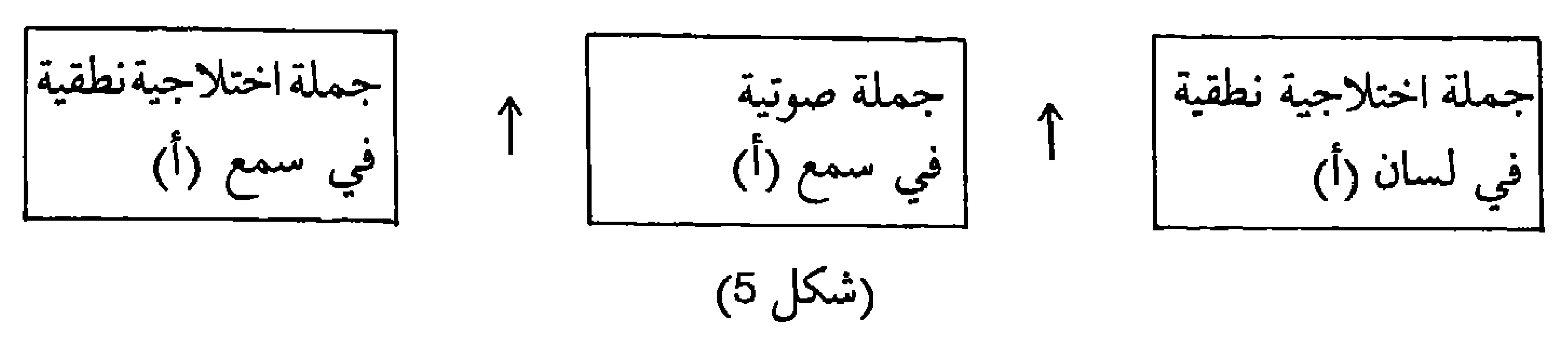


(شكل 4)

ويتفرع من هذا التعادل الثلاثي العام تعادلان:

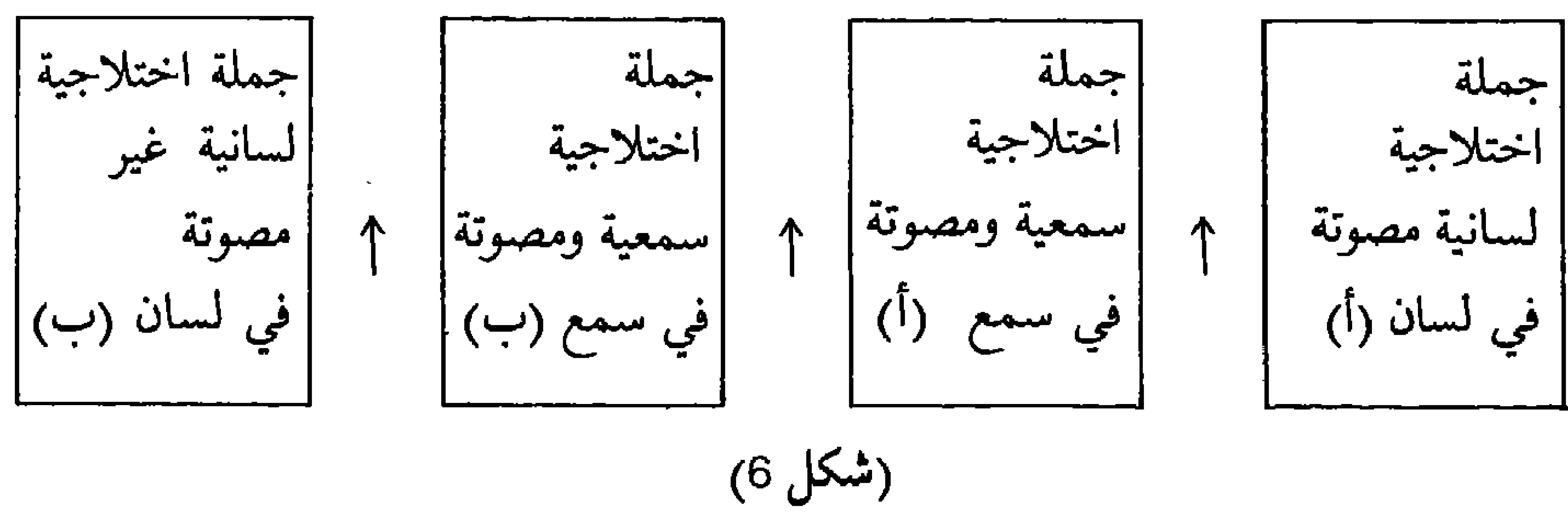
الأول: يبين وحدة المدارك الثلاثة لدى ناطق يسمع نطقه

ورسمه وفقاً لما يكون عليه وعينا له هو التالي:



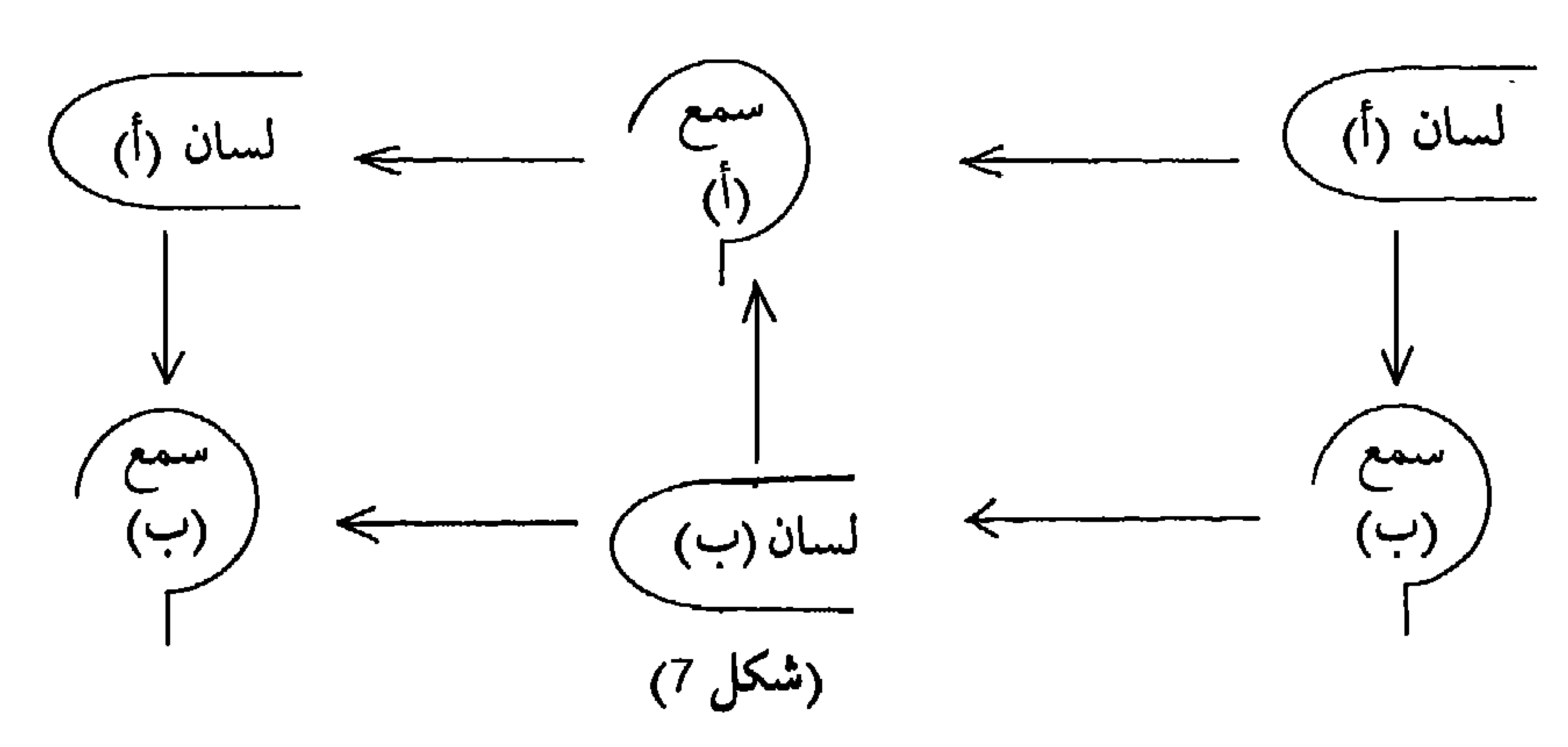
(شكل 5)

الثاني: يبين وحدة المدارك بين ناطق ينطق ويسمع صوت نطقه، وسامع يسمع كلام الأول ويعي ما يسمعه. وفيما يلي رسم العملية وفقاً لتسلسلها في الواقع:



(شكل 6)

ويمكن اختصار (شكل 6) في صورة بيانية تربط بين لسانين وأذنين لشخص ينطق وآخر يسمع وإعطاؤها الشكل التالي والسهم يفيد الاتجاه والتعادل:



(شكل 7)

استنتاج:

نستنتج أن اختلاج لسان (أ) بجملة لغوية مصوتة قد ولّد الاختلاج والصوت اللغويين في سمع (أ) وولد هذان شقيقين لهما، صوتاً واختلاجاً، في سمع (ب). والصوت والاختلاج المتولدان في سمع (ب) ولّدا بدورهما في لسان (ب) اختلاجاً لسانياً مطابقاً للاختلاج الأم

الذي دار أولاً في لسان (أ) ولكن دون صوت أو بصوت يمكن أن يكون إرادياً ويمكن أن يكون لا إرادياً ولكنه متطابق في السمعين. ورفع الاختلاج المتولد في لسان (ب) إلى مستوى التصويت يكشف عن إقرار (أ) بأن منطوق (ب) ولد عنده مثيلاً لما ولده منطوقه هو من أصوات في سمعه. ويمكن لـ (أ) و (ب) أن يعينا الفروق بين الصوتين المتطابقين. ذلك أن حدود الإدراك متناهية، ويمكن أن تلتبس عليه أصوات حدثت في سمع صاحبه وهي مختلفة المصادر. يحكى أن زيداً من الناس قد عرف بغياب صاحب البيت عن بيته فجاء ليلاً وطرق الباب بمثل ما يطرقه صاحبه ونادى المرأة بمثل ما يناديها زوجها من أصوات، فقامت نصف عارية وفتحت له الباب وفوجئت فاتقته باليدين وتجمعت على عوراتها.

فالاختلاج اللساني اللغوي، المُوَلِّد للصوت في سمع الناطق به ولمثله في سمع الآخرين، والمولِّد بالتالي لاختلاج لساني منسوخ عنه في ألسن الآخرين، يشكل رقصة جوارح مشتركة بين الناطق والسامع بعدما شكل رقصة معهودة بين الشخص وبين ذاته. وفي كلا الحالين كان الاختلاج اللساني رمزياً دالاً، يتصل من جهة بالكلام باعتباره خبرات صوتية واختلاجية في السمع والذهن على السواء، ويتصل بالخبرات الأخرى التي تتصل بها العبارات الكلامية والاختلاجات العضوية المنسجمة معه في الوزن، ومعنَى «يتصل بالخبرات» هو أنه يولِّدها متجددة.

وبهذه الخواص يكون الاختلاج اللساني أداة فعل في الذات الواحدة وأداة تفاهم بين الشخص وذاته راهناً وماضياً، كما هو أداة فعل في الآخرين وأداةُ تفاهم معهم بقدر ما يولد فيهم من ماضي خبراتهم التي تضمه إلى أسس بنيانها الذي يهتز كله كلما اهتز واحد من تلك الأسس؛ إنها وحدة المعرفة!

ويتوصل الإنسان إلى الاختلاج اللساني المشترك والمعقَّد يكون قد انصاع الفرد في المجتمع للرقص مع الآخرين على وتر واحد يهزهم هزاً مشتركاً كلما نبض بكلمة أو بجملة من كلامهم المشترك بمثل ما ترقص وتهتز حبات القمح في غربال تارة إلى اليمين وتارة إلى الشمال. لذا يمكن البحث عن أثر اللغة المشتركة ليس في تشكل أفكار وأحاسيس مشتركة فحسب، بل في تشكلات عضوية دقيقة مشتركة. أليس من أثر في أجسادنا للاختلاج النفسي والجسدي المتواصل عبر القرون؟ إن نشوء لفظ (الله) في أسماع أهل اللغة تنداح له أنفسهم وبالتالي أعضاؤهم أو كلاهما معاً اندياحاً لا يوافقه أبداً اختلاجها لألفاظ dieu أو god أو (إيل) أو غيرها. فلذا يعدّ من السخف ترجمة هذه الأسماء باسم الله، كما يعد من السخف ترجمة اسم إله يوناني أو مصري أو كنعاني إلى اسم (الله). المحطات التاريخية لتطور لفظ تقوم فيه بالمعرفة التي يجاهد في سبيلها الباحثون.

12 ـ خبرة الصوت تتصل بخبرة الاختلاج عقلياً أم آلياً؟ وكيف تحل مشكلة الحكاية لكل من الصوت الطبيعي واللغوي

لقد ظهر إلى الآن التركيز على كون السمع المشترك وليد اختلاج لساني مشترك كما ظهر أن السمع المشترك يعود فيولد اختلاجاً لسانياً مشتركاً. فالسامع يحكي بلسانه ما سمع من لسان الآخر؛ ويمكن للمتكلم أن يحكي أيضاً بلسانه ما سمع من لسانه هو. كأن في العملية اللغوية ضمن الفرد وبينه وبين الجماعة توليدَ حكايات اختلاجية وصوتية متبادلة وبالتداول.

إن التوصل بالاختلاج اللساني الصامت إلى التعرف على الكلام المسموع المصوت في الحلم واليقظة لدليل على أن عقدة عصبية معينة تفتح الطريق في نهاية الاختلاج اللساني على العصب السمعي. كما أن التوصل عن طريق السمع إلى اختلاج لساني قابل لأن يولد في السمع مثل ما كان فيه، أي قبل ما كان به هذا الاختلاج لدليل أيضاً على أن عقدة عصبية ما تقع في نهاية السمع وتفتح الطريق على العصب اللساني. ولعل واضع اللغة كان مدركاً لهذه العقد الجامعة لمختلف المصادر الحسية أو الجامعة نشاطات متعددةً لمصدر حسي واحد حين سمى الخبرة العقلية المتعددة المشارب باسم الاعتقاد. فهل تقع العقدة العصبية الجامعة طرفيْ العملية الكلامية، السمع واللسان، في أحد المراكز الدماغية المختصة بالكلام، أي المختصة بتحليل المفهوم إلى عناصره الأساسية ليكون، مثلاً، مفهومُ الكلمة عند التبصر فيه مبدياً لمكوِّنه الاختلاجي اللساني في اللسان وآلة النطق ولمكونه السمعي في الاختلاج السمعي وفي نوى الأصوات؟

إننا نادراً ما نذوق الحروف اللغوية أونتعرف على طعمها على الرغم من وجود حساسية الفروق في اللسان وعلى الرغم من تعرض اللسان للتضارب اللغوي الذي لا يخلو من فعل في ذوقه مماثل لبعض أفعال الأطعمة. فالعقل لم يعقد مفهوماً مشتركاً من تضارب اللسان في إخراج الحروف، ومن التأثير الصدامي والكيماوي للأطعمة في اللسان. وعدم حصول هذه العملية، عدم بناء المفهوم الذوقي اللغوي، لأكبر دليل على أن اللغة كانت اجتماعية، وعلى أن مفهومها المركب من خبرات سمعية فموية أنفية رئوية إنما كان بتطور العقل المترتب على تبادل الخبرات واختلاف توظيفها في مسار الحياة الاجتماعية. وهناك شاهد آخر على أن المركز الدماغي اللغوي أو العقل اللغوي هو الذي ينتج عند اختلاج اللسان حركة سمعية، أو ينتج عند اختلاج السمع اختلاجاً لسانياً، ذلك الشاهد هو استحالة فعل الكلام الراهن دون قيام خبراتنا السالفة به التي لا تقوم لولا فعل الذاكرة أي لولا استجابتها. العقل يجمع الخبرة الراهنة بفعل أختها الراحلة.

هل نكون الآن قد أثبتنا حلاً معقولاً للحكاية الصوتية التي ينكرها الكثيرون من علماء اللغة؟ هل نقول بأن الإنسان حكى ويحكي أصوات الحيوانات وألفاظ الأجانب وألفاظ مجتمعه؟

العقل يؤكد سمعنا لجروس طبيعية وحيوانية مماثلة لجروس الأصوات اللسانية. يؤكد الجاحظ أن الهررة تموء بأصوات مقطعة وذات جروس كمثلِ بعضِ ما تعرف في ألسنتنا. فصوت الهررة (امْياوْ) يولد في أسماعنا رزمة صوتية تنغم بجروس كالـ (مْ) والـ (نْ) والـ (آو). وهي الأصوات التي تحكيها بـ (مْيَاوْ) أو (ناو). وهي التي مشت في الألسن حتى صارت عندنا (مواء) وعند غيرنا (miaulement). ولكن الأنغام التي في أصوات الحيوانات ليست مصقولة أو فصيحة فصاحة ما ولدته حكاية أصواتـها من جروس هي أقرب إلى جروس الحروف اللغوية. وذلك لأنه لآلة النطق الحيواني مطارق غير التي لآلتنا. ومن الطبيعي جداً أن تنتج المطارق المختلفة والتجاويف المرنّة المختلفة لدى الحيوانات حركات أي طاقات إسماعية مختلفة عن الطاقات التي ينتجها تضارب جوارح النطق والغرف الرنانة التي في حلوقنا وأنوفنا وأفواهنا. ولكل موجة إسماعية خاصة صوتها الخاص في أسماعنا. فإذا وافقت الموجة الموجة، وافق الصوت الصوت كما يتوافق صوت (م) بلساننا وبألسنة الأمم. وكلما تباعدت الموجة من الطاقة الإسماعية عن أُختها كان التباعد بين ما تولدان في أسماعنا من أصوات بيناً حتى يكون انفصال أو تضمن. وبهذا نجزم بأن العقل يحكم بأن هذه النغمة الطبيعية تتضمن نغمات من نغمات أصوات الحروف.

طلبت إحدى المعلمات في اجتماع لأكثر من ألف طالبة أن يرمين أنملة السبابة في الكف اليسرى ويتابعن العملية بهدوء. ففعلن وسمعن صوتاً أضحكهن وصفقن. ثم طلبت المعلمة إليهن أن يكررن العملية ولكن بسرعة أكبر أملت قوة أزيد. فسمعن صوتاً آخر وضحكـنَ وصفقن ولكن بحماس أكثر. لقد كان وقع الأنملة على الكف كفيلاً بتوليد صوت يشبه صوت التاء التي تكون في وقع نقطة الماء على اليابسة. وكان وقع الأنامل مثل شتاء أي مطرٍ لطيف. وعند الإسراع في الحركة نزل المطر بقوة: آلاف الـ (تْ) (تْ) كانت تتوالى. ولكنها (تاء) أقل فصاحة من تاء حرفنا لأن المطارق غير، والطاقات الصادرة عن التصادم غير. إلا أن السر هو في كون الطاقة التي تركها وقع الأنملة على الكف إنما كانت تماثل الطاقة التي يتركها وقع نقطة الماء وإخراج الـ (تْ) اللسانية. وسواء خدع العقل أم رأى بوعي فإن المصادر الثلاثة للأصوات الثلاثة لم تمنع توحدها في نغمة (تْ).

إن أياً منّا لم يدخل إلى فم غيره ويرى ويلمس نطقةُ لحرف الـ (تَ) فهل تعني قدرة

الولد منا على القول (ت) كما يقول أهله أن الصوت الذي كان في سمعه قد حمل لسانه إلى اللثة الداخلية العليا وضربها به ليتكون في الأذن صوتُ التاء مجدَّداً؟

قبل خبر المعلمة لم يكن في وسعنا إنتاجُ صوت (ت) بواسطة طاقة إسماعية يدوية. أي أننا لا نحرك عفوياً أنملة السبابة التي نسبّ بها ونندم بعضها لنضرب بها راحة الكف كي نسمع صوت (ت). أما بعد هذا الخبر فيمكن لأي كان أن يكرر التجربة ويسمع الشتاء الكاذب متى استجابت الأعضاء للحركة المولِّدة للصوت. فقد وقعت صدفةً حركة في عـين المعلمة، أي في ذهنها عن طريق العين، ووافق وقوعها في الذهن وقوع حدث آخر فيه هو الصوت، فجمع العقل الصوت أي المحصلة السمعية بالحركة البصرية. وعنده المكنة من تكرار الحركة اليدوية المشهدية فاكتشف أن هذا الصوت إنما يكون بهذه الحركة. أما الطاقة فمن اكتشاف العصر.

أبهذه الطريقة تحدث حكاية الطفل لصوت الأهل اللغوي؟

إن الطفل الذي يسمع الكلام من أهله يسمع بعقل فعّال. ثم إنه يسمع ويرى ما يبدو من آلة النطق وحركاتها لدى محدثه. كما أن الذين يكلمون الطفل إنما يرددون على مسامعه وأمام عينيه بعض الأصوات والألفاظ التي تظهر حركات إخراجها للعيان. فـ (بابا) و (ماما) شفويان مع حلقية الـ (ا)، وفتح الفم مع التصويت يولد (ا)؛ ثم يولد إطباقُ الفم، مهما كان صامتاً، نغمةً من (بْ) ترن لها نغمة ميمية بتراجع الهواء الفموي، مع غلق الفم، إلى الخياشيم. ويكرر الطفل تحريك الفكين تحريكاً محاكياً صامتاً ويحاول الوصول إلى الصوت بجهد، ويغضب ثم يزفر بقوة فتقوى الزفرة وتدفع سدَّ الشفتين فينفجر ويكون لانفجاره صوت (با).

فمتى اكتشف الطفل بعقله وبالتجربة والخطأ أيّ الجوارح عليه أن يحرك وكيف عليه تحريكها وأن ذلك ممكن فإنه يعمد إرادياً إلى الإتيان بحركة مولدة لطاقة مولدة لصوت محدد. وكلما كررنا الحركة بالآلة عينها نحصل عموماً على الصوت عينه. حتى اهتدينا إلى أن الآلات المختلفة يمكن لها، بحركات خاصة بكل منها، يمكن أن تولد أصواتاً متماثلة.

13 ـ العقل يواصل بري الاختلاج اللساني الذاتيّ الإدراك وصولاً إلى حقل الصوت اللغوي الاجتماعيّ الإدراك.

هذا النوع من محاكاة الطفل لأصوات الأهل يحدث قبيل إتمامه السنة الأولى. فهو ينم عن إدراك متطور وقدرة على تحريك الأعضاء إرادياً لا يكونان له بعيد الولادة. فبعيد الولادة تسمع الأم من طفلها نغمة (غْ) وتفرح له بها وترددها على سمعه. فلا يبطىء الوليد كثيراً عن

ترجيع هذه النغمة والغرغرة بها أو التغني بها. كيف حدث له التوصل إلى إعادة توليد الـ (غْ) توليداً إرادياً أي واعياً؟ هل يكون تصويته بـ (غْ) أو تصويت أمه بها قد هز عنده مخرج الغين أي الأوتار الصوتية وأقصى الحنك وما يدانيه من أقصى اللسان، وَوَضَعَ تلك الأعضاء الوضع المناسب للزمر المولِّدِ تتالياً لنغيمات غينية هي ما يؤلف صوت غْ؟

هل الصوت الذي هو صوت وندركه في المسامع هو الذي ولَّد تحرك أعضاء النطق بالحركات المناسبة لتوليد الطاقة الإسماعية الكفيلة بتوليد نظيره؟ أم أن الحركة الآلية التي دارت في الأذن وهزت جهاز السمع سلسلة اهتزازات أدت إلى تولد الجملة الصوتية هي التي ولّدت اندفاع البعض من أعضاء النطق كي تنعقد وتولد حركات النطق بالحرف؟ أم أن هذين العاملين معاً، الصوتَ والحركةَ السمعية التي ولدته، هما اللذان تعاونا على عقد المخارج للنطق بنغمة الغين؟ وإذا كان المولِّدَ لنطق الرضيع بـ (غْ) هذا العاملُ أو ذاك أو كلاهما فإنه يظل مطلوباً منا أن نعرف دور العقل في العملية. هل أدْرك العقل اختلاجَ السمعِ والصوتَ المترتبَ عليه ثم قضى أن تتحرك مخارج الغين للنطق به؟ وهل قضى العقل قضاءه هذا من غير أن تكون هناك صلة مباشرة بين الصوت وحركة أعضاء السمع من جهة وبين حركة المخارج المنعقدة للنطق بالحرف من جهة ثانية؟ أم أن هناك صلة بين اختلاج السمع واختلاج النطق ولكن عبر العقل، والعقل قادر بالتالي على قطع هذه الصلة أو إجرائها؟

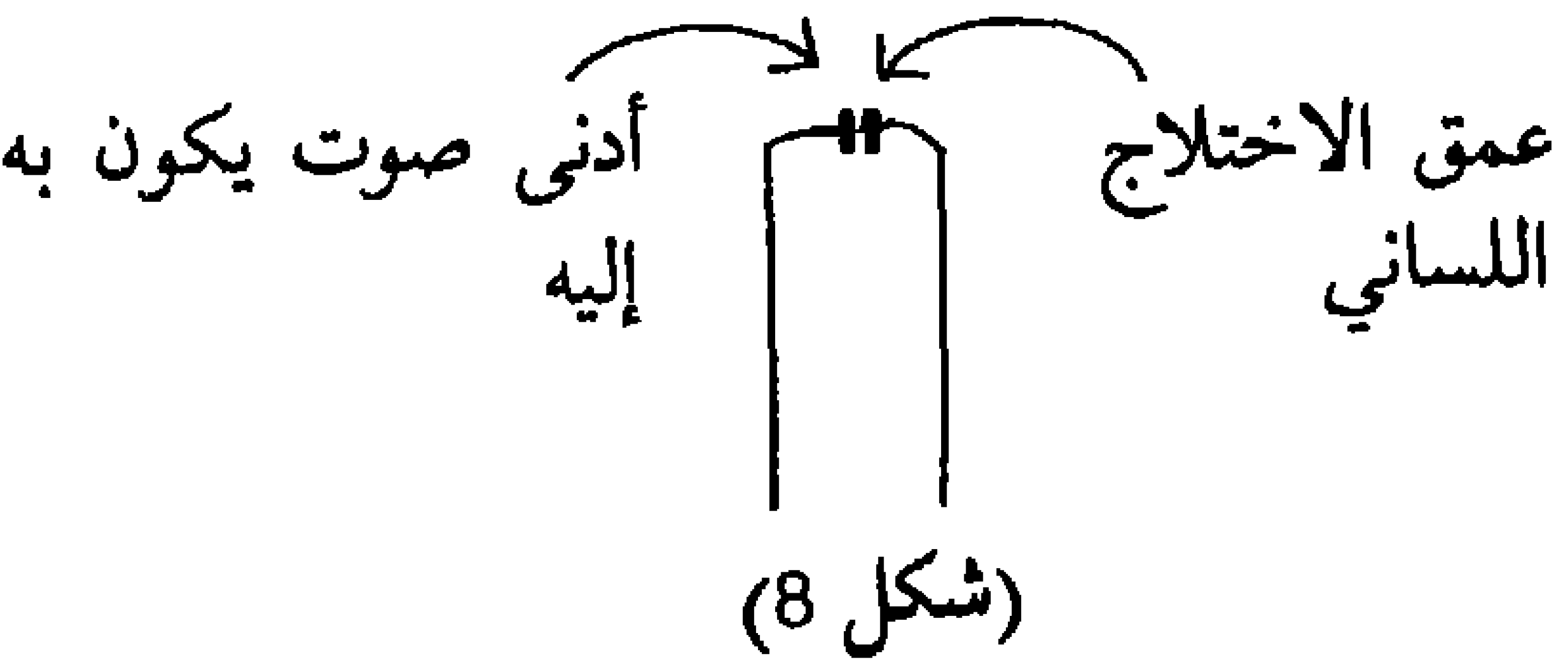
يثبت الواقع أنه لا يقوم نطق بحرف ما لم يقع أصلاً سمعٌ بهذا الحرف مهما كان العقل قوياً. فالأطرش منذ الولادة لا يستوي له نطق ولا كلام. ومفاد هذا هو أن التحسس البصريّ وغيرَه لا يجدي في الوصول إلى جعل أعضاء النطق تختلج اختلاجاً تركيبياً يولد حرفاً رأينا شخصاً يلفظه دون أن تصل الرسالة إلى سمعنا. وفي حال العمى مع سواء السمع عند الولادة يستوي النطق والكلام. الطريق إلى سواء النطق إذاً هو السمع السوي. والصوت الذي يكون بحركة في جهاز السمع هو من غير طبيعة تلك الحركة ومن غير طبيعة الحركة النطقية التي تؤدي إلى توليد الصوت المثيل في السمع. بقي احتمالان:

الأول هو أن تولد الحركة السمعية التي ولدت الصوت حركة متشعبة في أعضاء النطق كفيلة بتوليد صوت نظير أو صوتٍ يقارب الصوت الأول دون أن تعبر (الحركة السمعية) قفل العقل ومفتاحه.

والاحتمال الثاني هو أن يمرّ الاختلاج السمعي في العقل ثم يواصل سريانه بإذن منه إلى مخارج الحرف فيحركها لتتولد طاقة إسماعية تكفل توليد اختلاج سمعي مماثل للذي ولّد حركات المخارج. ونعرف ذلك من تماثل الصوتين ومن تماثل التخطيطين السمعيين: الذي كان به اختلاج المخارج، والذي كان باختلاج المخارج.

ولكنا لا نريد أن نغش أنفسنا ونستسلم للوهم. إن مجموعة الجوارح والأعضاء المكونة لجهاز السمع هي غير تلك المكونة لجهاز النطق. ولا يمكن أن تكون الحركة المحركة لمجموعة الجهاز السمعي خارجةً من هذا الجهاز كما كانت وهي تصادمه. ولا يمكن لحركة المجموعة السمعية أن تحرك مخارج حرف في جهاز النطق وتكون هذه الحركة مطابقة لتلك.
لا يكون إذاً توليد صوت بالنطق مماثل للذي سمعناه حركةً آلية محضة لا بدّ للعقل من أن يكون قد جمع بين حساسين عندما أدرك نغمة الإنغاء. أدرك حركات المخارج الحلقية المرددة للنغمة وأدرك النغمة، أدرك أن الصوت هو بفضل تلك الحركات.
وعقل الطفل لا يعي حركات الأذن ولا يقدر على تحريك المسامع بإرادته. وكذلك نحن. لذا اقتصر عمل عقل الطفل على تحريك مخارج الغين ليكون له نغم صوتي أغن. فقد اكتشف منذ نعومة أظفاره أن هذه الحركة بهذه الأعضاء تولد هذا النغم. ثم جاء الدارسون واكتشفوا أن حركة الأعضاء هذه قد ولّدت طاقة في الهواء الموصل إلى السمع وفي الأعضاء المتصلة بالسمع، وأن هذه الطاقة هي التي حركت السمع حركات بعينها حتى كان للإدراك هذا الصوت. ولا بدَّ لشيوع الحركة في الأذن من نتائج اختلاجية في جهاز النطق.

قام العمل الطبيعي للعقل على إدراك صوتي وعلى الأمر بحركة عضوية في جهاز النطق لا تكون مجدية صوتياً بذاتها، لكنها تكون مجدية حكماً لدى فاعلها حين يكون سمعه سليماً، ذلك أن أبواب السمع مشرعة لاستقبال أمواج الطاقات الصادرة عفواً أو قصداً عن جهاز النطق.
فحين تكون مخارج الغين في عطلة وتقع الغين في السمع يسعى العقل ليدرك مصدرها الخارجي في الوقت الذي يلتفت فيه إلى المخارج، إلى مصدرها المعهود. عندها تختلج مخارج الغين أو قد تظهر في أحد أركان المخرج اختلاجة من قبل اختلاجات كانت تظهر وقت لفظ الغين أو الغنة الغينية. ويستمد المخرج شيئاً من الإحساس بديمومة الصوت فيبدو للعقل أن آخر اختلاج المخارج مغموس بأدنى وأدق ما يكون به من صوت. والرسم التالي يبين مثل ذلك:



(شكل 8)

وربما عاد البال من المبالاة بالصوت إلى المبالاة بالاختلاج اللساني مطعماً بمعالم الصوت المفارق، فتتلبس المعالمُ الصوتية التي في البال الاختلاجَ اللساني الذي صار في البال بعد الصوت. لأن ديمومة الصوت في البال لا تنقضي قبل وقوع البال على موضوعه الجديد.

ولهذا نجدهم اعتقدوا بحائط ناطق أو بشجرة ناطقة أوبتمثال ناطق أو بجـنين ناطق. إن العزم المقبل على الاختلاج اللساني الصامت من شحنة طارئة ليفجر صمت هذا الاختلاج ويفضحه محولاً إيّاه من اختلاج عضوي مستسر إلى كلام ناطق. فقد تضاعفت الطاقة المحركة للمخارج بكلام صامت وصارت بفعل ما انضاف إليها قادرة على تجاوز حدود الكلام الصامت إلى الكلام المنفعل في مجال قد لا يناسبه الانفعال. فلو قرصني أحدهم وأنا ألقي محاضرة في جو رسمي عند قولي السابق: «قد لا يناسبه الانفعال» فإن لفظي لهذه الجملة مشحوناً بلحن الردع والاستنكار لما تعرضت له من معابثة في غير محلها ليثير ضحك المستمعين ويخرجهم إلى حين من متابعة موضوع إلى موضوع.

إذاً اختلج مخرج الغين اختلاجة الغين بسمعي لصوت الغين عن طريق الاتحاد الضروري بين الصوت الذي سمعت وبين مولده أي مدار الحركة النطقية الغينية في مخرج الغين. فهل ذكرني الصوت بالحركة التي كانت تولده فمرت الذكرى إلى حيز تحقق أصلها بعد أن قامت في الذاكرة بصورة ذهنية لامكنة للإدراك من الاطلاع عليها قبل هذا التحيز؟ فكل ما نتذكَره لا ندرك ذكراه إلا في حيز أصله مع إمكان التباس موضع الحلمي بموضع الواقعي، وموضع هذا بموضع ذاك.

وكما يولد صوت اللفظ اختلاجه اللساني الذي يتمه لكونهما في الأصل وحدة إدراك، فإن مدلول الصوت اللفظي يولد هذا الاختلاج أيضاً. ويولِّدُالاختلاجُ اللساني من مدلولات ومفاهيم ومعانٍ ما يولده الصوت اللفظي الكائن في السمع بلا نطق صاحبه به. غير أن تلك المولِّدات المترتبة على قيام الاختلاج اللساني لا تخرج من إدراك صاحبه إلى سواه، وبهذا تكون مرحلة الاختلاج اللساني اللغوي هي المرحلة الذاتية من الكلام، يكملها الصوت وينقل مولداتها كما يبلِّغ الخط هذه المولدات إلى الآخرين.

ومتى اختطت المحاكاة الصوتية مجراها في اللسان كان لزاماً على اللسان الاختلاجُ المولِّد للصوت الذي سمعه صاحبه به أو اختلاج مماثل طرح منه الصوت. والعقل يواصل البري في الاختلاج ليصقل الصوت الذي يكون به.

14 ـ من خصائص النظام اللغوي الاختلاجي الفاعلة في اللغة وفي الحركة النفسية

لا بدّ إذاً للصوت الحسي من وجود طاقة إسماعية (حيادية لأنها ما بين المصدر والأذن كائن طبيعي سائب في الأشياء) تدرك الأذنَ وتهزها. ويتولد الصوت عن اهتزاز الأذن. ويتولد مع الصوت امتدادان نفسيان: الأول تظهر فيه خبرات السامع مع الصوت الذي سمعه للتو.

والثاني تظهر فيه جملة الاختلاج اللساني الذي بمثله كانت الطاقة التي ولدت الصوت. ومع الاختلاج اللساني يتولد امتداد نفسي يجمع ما كان لصاحبه من خبرات خاصة بهذا الاختلاج إضافة إلى الخبرات المشتركة بين وحدة الاختلاج وصوتها، كما يتولد معه اختلاج سمعي قلما يدركه صاحبه فصوتٌ لازم عنه. ولكل من الاختلاج السمعي وصوته امتدادات ومفاعيل.

وإذا كان مقنعاً القول بأن الناطق بالكلام يؤدي لنفسه ولسامعه عينَ الصوت تقريباً فإنه يكون من اللازم التسليم بأن اختلاج الأذن عند واحد واثنين وجماعة هو عينه تقريباًلدى طرق الآذان بطاقة واحدة. فما للخطيب والمذياع من طاقة إنما يُؤدي في أسماع السامعين صوتاً واحداً يختلف من كرسي إلى آخر. والصوت يؤدي بدوره إلى اختلاج لساني لا شك في أنه واحد لدى العديد من السامعين.

بناءً على هذا يتضح أن الصوت الكلامي واختلاجه اللساني عامّان ومشتركان بين أبناء الجماعة الذين توصلوا بصنع فصاحة الأصوات اللغوية إلى توحد سمعي ونطقي مصوّت واختلاجي صامت.

ومن بين الامتدادات ما يكون عاماً ومنها ما هو خاص فهناك أحاسيس مشتركة أو عامة وهناك أعمال مشتركة وعامة. فأن تنظر إلى جماعة وهي تنظر إليك لدليل على خبرة بصرية فريدة عندك وخبرة مشتركة من مشاهديك وأن تحمل الصخرة أنت وآخر بالتوازن لدليل على أنكما عانيتما ثقلاً واحداً مع ملامس خاصة بكل منكما.

خبرات الوليد الإنغائية العفوية الأولى تتصل بخبراته الإنغائية القصدية اللاحقة حتى تكون نغمة (غْ) بمثابة الكلمة الأولى التي يعبر بها لذاته ولأمه عن سروره بنغمها، ثم يوظفها في اكتساب جمهور من المعجبين، في الوقت الذي يؤدي بها وظيفة عضوية هي فتح طريق الأنفاس في لزاجة اللعاب واللبن. وبعد ذلك يجد هذه النغمة في حروف الغين التي تتردد في الكلام، حتى يكون تعلم القراءة والكتابة ويتعرف على صورتها الخطية بين جمل الحروف الخطية والالكترونية التي تؤلف المفردات أو مفردة في الأبجدية.

يشكل الحرف إذاً وحدة خبرات أو عقدة خبرات عديدة أبرزها صوتها واختلاجتها اللسانية. وبما أن الاختلاجة اللسانية تكون بالصوت ويكون بها، وتكون بين الشخص وبين ذاته بلا صوت مع إيقاظ ذكرى صوتها، فإنها تتفوق على الصوت من حيث أهميتها الفعلية في وحدة الحرف. ولكن الصوت يتفوق على الاختلاج اللساني في مجال العلاقات الاجتماعية والحيوانية دون أن يغضّ ذلك من أهيمتها في التعبير الذاتي. وما دام للاختلاج اللساني اللغوي وجوده المستقل والواعي في إطار ذات الفرد وفي ذات الآخرين فإنه يشكل بلا ريب نظاماً لغوياً فردياً

وجماعياً مستسراً. وإنه ليمكن الكلام عن الوحدات التكوينية الدنيا والمتوسطة والواسعة لهذا النظام، يمكن الكلام عن الفونيم والمونيم والمورفيـم وعن الجملة المركبة والنص الذي يقصر أو يطول ليغطي وحدة عملٍ نفسي تمتد من لفظ شعوري كاختلاج (مْ) لـلإقرار وطلب الاسترسال إلى الجملة الإنشائية والخبرية فإلى المشكلة الفردية والاجتماعية وحلولها الوهمية والمعقولة.

إن التأليف الاختلاجي لغة تحت اللغة، لها من القوانين التي تخصّها دون اللغة الصوتية ولها قوانين مشتركة بينهما. من ذلك أن الكلام الاختلاجي يُدغَم وعيُنا له في وعينا الصوتَ إبان النطق بكلام مصوت. ومن ذلك خرقهُ لنهر الكلام المصوت والخروج من الفترات التي تتخلل استمرار وعينا لهذا الكلام. ومن ذلك عطفه اختلاجة الحرف المصوت الذهنية إلى اختلاجة لسانية توافقها. كعـطفه اختلاجة فاء نوي قولها إلى اختلاجة ثاء لسانية لما بين الاختلاجتين الفائية والثائية من توافق في صفة الهمس والحفافية. وهذا الاشتراك الاختلاجي يشكل ثغرة كبيرة ينفذ منها الإبدال الصوتي. ومن قوانين الاختلاج أنه حلقة وسطى بين الحسي والشعوري مما يؤهله ليكون هو الجسر بين اليقظة والحلم حيث ينحل بسهولة في خبراتنا الطويلة معه.

15 ـ الاختلاج اللساني يفتح باباً على كيفية المعرفة

هل تحرّك هذه المباحث قطار المعرفة بنا شعرة إلى الأمام؟

إن وعينا للزوم الصوت عن الاختلاج اللساني ثم لزوم الاختلاج اللساني عن الصوت والصوت اللغوي بصورة أدق ليرشدنا إلى أن التجربة الحسية اللاحقة التي كان مثلُها أحدَ مكونات تجربة سابقة إنما تُولِّد متمماً لها من وجيب الخبرة السابقة. الحسي يوجب حسياً آخر كان قد اقترن بمثله سواء كنا على وعي بذاك المِثل أم كان من المعقولات السرية، حيث يقرن العقل مانعيه من أحاسيسنا ببعض ما يترتب عليها دون تمكننا من الاطلاع على عملية التوحيد هذه. واتحاد الماضي من الخبرات بالراهن منها مع وعينا لوجود هذا الماضي في إطار من الخبرات الماضية وفي إطار الخبرة الراهنة في آنٍ لهو هو الذي ندعوه الفهم. فأنْ تقول إنَّ (غْ) صوت حلقي ومن إنغاء الرضع، وهو جرس أحد الحروف العربية، إنما تبين عن شيء من خبرتك التي كانت لك مع هذا العمل. وأن يمتد إحساسك بصوت (غْ) أو باختلاجه اللساني هذه الامتدادات يفيدنا أن الإحساس العادي الذي لا يستولد سوابق تصرفه في النفس لهو الدال على ذاته بذاته ولا معنى له خارج ذاته، كالطلسم لدى من لم يختبر طلسماً. غير أن الإحساس يستولد أحاسيس ومشاعر ويبدو فعله في إطار جملة من الأحداث النفسية الطارئة به والكائنة

بكونه فيغدو الواحد مستحيل الوجود في العقل والشعور والخيال بمعزل عن نتائج الإحساس به وإدراكه. فالقوة النفسية الواحدة عندما تشتغل أو تنشغل توجب الشغل في أخواتها فيصير الأقل الأقل جملة يناظر مكوِّنُها الشعوري مكونَّها العقلي ومكونها الخيالي ومكونها الحسي. فيُعرف بعضها في ضوء بعضها الآخر كما عَرَف الرضيع أن اختلاجة حلقية بعينها تغرد وتناجي بنغم لاذّ، ويولد أحد أركانها سائر بنيانها.

هذه كانت صورة دقيقة من عملية الكلام التي تكون كل مرة حسية أي فردية. ثم يتدارك إحساسنا بها الزوالَ عن طريق اكتساب أعصاب الذاكرة الخبرة بها أيِ القدرة على توليدها مجدداً وتشغيل الأعصاب والأعضاء تكراراً بها، كما يتدارك عقلنا الجهلَ بها عن طريق رؤيتها في بنيتها المتجددة في الوعي. نتذكرها بمذكِّر، وتذكُّرنا لها يعني ظهورها للعقل مع ما كان بكونها من أخيلة ،ومشاعر وأحكام ونشاط. فهي بذلك كالحرف في الكلمة، يتميز، من سائر الحروف ويتميز بوجوده في الكلمة من أمثاله في الكلمات الأخرى، ويتميز بوجود الكلمة في الجملة بوجوده الجملوي كما يتميز في النص بوجوده النصي. تظل المحددات تتكاثر حتى يضحي عَلَماً وهو اسم جنس؛ فتقول: هذه الميم لا تلك. وبهذا يصبح الزمن عنصر تفريق لميم من ميم في الحس والنفس لوقوع حدث الثانية على حدث الأولى، ودخول الأولى على الثانية محمولة على طرف البال؛ إذ أن ديمومة ما فاته البالُ في البال تطول حتى ينزل في الموضوع الجديد للبال ويؤلف معه وحدة أولها خارجٌ من الماضي ووسطها أو متنها يمضي إلى آخرها وهو مستقبَلُها. هذه الأزمنة الثلاثة أعرفها في أدق المعروفات وأراها لأن المعرفة تقع في الوعي بديمومة تبدأ وتستمر وتنتهي. يقع ذلك على كل ما هو نفسي من الحسي إلى الحلمي. فلو كبَّرنا موضع إدراكنا أو طولناه ملايين المرات لاحتاج إدراكه تكبيراً للمدة كما يحتاج تطويل الحروف في السمع أو العين إلى إدراك أطول مدة.

الزمن هو حاصل تعاقب المدارك وتفاوت عدد اللحظات التي تنصرف من وحدة الإدراك ما بين موضوع وموضوع. اللحظة هي الحد الأدنى من الإدراك البصري نستعير لفظها لا مدلولها للتعبير عن وحدة الإدراك الأضأل. واللحظة بهذا المعنى تضؤل أضأل وحدات الأحاسيس والمشاعر والأخيلة والتعقل بما في ذلك دقائق النوايا. وبذلك يمكن التحدث عن لحظة لغوية صوتية ولحظة لغوية اختلاجية. فالصوت يضؤل حتى اللحظة ويظل معلوم الهوية. والاختلاجة اللغوية تضؤل حتى اللحظة وتظل معلومة الهوية. فأي لحظة لغوية صوتية تخفي لحظة لغوية اختلاجية. والذين نسمع منهم الكلمة محذوفة الآخر أو محذوفة الجزء، أيِّ جزء، إنما ركَّبوا كلمتهم بجزء صوتي وجزء اختلاجي معلوم لديهم وما دعاه اللسانيون العرب باسم الرَّوم إنما هو اختلاجة الحركة الأخيرة من الكلمة مع ظهور أثر لهذا الاختلاج في ظاهر الفم وهيئة وجه

المتكلم. وقد يكون الروم بمثابة اللحظة الاختلاجية اللغوية مجردةً من الصوت. ألا ترى شفتيْ المتكلم، وهما تلفظان «جاء الولد»، تختلجان بالضمة إثر الدال ولا تنبسان بها؟ ولكن السمع الذي أخذ بالصوت واقتصر على محاكاته لم يدرك صاحبُه الروم، رومَ الضمة، ولم يولد في ذهنه ذكرى ضم تقتضيه الفاعلية ويمنعه الوقف وبالتالي لم تختلج شفتاهُ قائلاً: «جاء الولد» اختلاجاً يومىء إلى الضم، والمتكلمون بتسكين أواخر الكلم لا تعرف شفاههم الروم لأن ضمائرهم لا تعرف أصوات الكلم الأخيرة وهي أصوات لا تكون إلا بالاختلاج اللساني الذي كان يولدها.

اللحظة الاختلاجية اللسانية يمكن تسميتها الفونيم الاختلاجي اللغوي. وتحصل على أمثالها بانتواء النطق بأي حرف مجرد نية. وندرك فيها حاصلاً من الأحاسيس الدقيقة بالتقاء جسيمات جهاز النطق وحركة الرئتين والصدر والهواء التنفسي وينجم عن الضغط الهوائي في منعقدات المخارج وتوازن أوضاع المخارج مع كل حرف اختلاجي ضغط في الحلق يصيب أصول الأذنين ممّا يجعل للحظة الاختلاجية اللسانية رديفاً من الحركة في أعضاء السمع. ناهيك عن الصوت الذي يُوْلد إثر تجاوز الطاقة الاختلاجية حداً تقيسه الفيزياء الصوتية، وناهيك عن دقائق النشاطات النفسية التي يستسر وعينا لها. هذي الوحدة النفسية الغنية بعناصرها وعلاقات عناصرها وتراتبها هي الوحدة اللسانية البسيطة. وينوب مناب بنيتها أمام الإدراك ركنُها الاختلاجي في الكلام الصامت وركنها الصوتي في الكلام المصوت، وتعرف بذاتها الصوتية وبذاتها الاختلاجية كما تعرف بالمقارنة العقلية المكنونة بينها وبين الحروف الأخرى جرساً واختلاجاً: هذه (ت) وليس (ك). فإذا ما قال القائل (ت) وسمع السامع (ك) فإنما يحدث ذلك لأن الطاقة التي ولدها لفظ (ت) تماثل من قريب الطاقة التي يولدها لفظ (ك) بحيث يؤدي تأثر الطاقة بطوارىء من قنوات الإيصال إلى تغير لفعلها في السمع يجر هذا الإحساسَ البديل. أما إذا سمع السامع (ك) من قائل (ك) ولَفَظَ (ت) فإنما يكون إدراك (ك) قد ولد إدراكَ (ت) إدراكاً ظاهراً أو خفياً وأدى استعداد اللسان للاختلاج بـ (ت) إلى تحركه بـ (ت) التي ردِفت في الذهن صوت (ك) وهو المدرك الأصيل. واستعداد اللسان يجر تحولاً ما بين صوت وصوت، وتأثيرُ قنوات الإيصال يجر مثل هذا الإبدال. ومن دون اعتبار الدور الذي يلعبه الاختلاج اللساني في الإبدال يظل الدارس بعيداً عن وعي حقائق في الإبدال خَطِرة.

إننا على ثقة من أن الأصوات في الأسماع السوية المتماثلة في العمل والعضوية تكون على ما تكون عليه بفضل طاقات يؤدي التغير فيها إلى تغير في الأصوات، كما يختلف الصوت من سمع لسمع مغاير. والأصوات التي تكون في الأحلام لا تكون دون طاقة إلا أن هذه الطاقة التي قد تكون كناية عن ضغوطات عضوية على المسامع بفضل أحوال نفسية تحتاج إلى رصد واستبيان لا نعرف أحداً قام بهما.

كيفما دارت الحال بالمعارف نراها تحافظ على مبدأ واحد هو استطراد التأثيرات النفسية وتآلف أفرادها في وحدات يجمع بينها التواكب أو التوافق في الإدراك أو التناسب مع الأمزجة ومعاقد الأحوال والغرائز. وأفضل منبىء عن وحداتها الصغيرة والكبيرة، البسيطة والمعقدة، هو الاختلاج اللساني الذي يدركه الشخص من نفسه وحده، ثم الكلامُ المتداول المرسل بلا تبديل أو المشاعر والأخيلة التي نعيها، ما كان منها من الذاكرة أو مستجداً بتطور الأحوال النفسية. وكثيراً ما يشبَّهُ مدار الانفعالات بالنهر أو بالشريط السينمائي وليس ذلك إلا لشعور المشبهين بأن المعروف من مجريات النفس لا يكون إلا متحركاً سواء بتغيير مواضع النظر إليه أو بمروره وتبدله أمام عين العقل الذي يستكشف وجود الخفي في ظل الظاهر من خلال حلول صفات من ذلك الخفي في ملامح هذا الظاهر. فالخفي المتعلق بالظاهر يسبقه برقه المتجلي فَيَرْكَبُ العقل أشعته إليه ويعتقله بخيوط نوره. المتحرك في النفس يُعـلم ووشائجه بالمخفيات هي قنوات العقل إلى معرفته.. كالآية التي يَسُر على النبي ولادة بعضها وعسر بعض فاستوفاها مسلم كان يحضر ولادتها فصدق النبي لما جاء به المسلم فانفجأ هذا وأنكر أن يكون ممن يوحى إليهم وشك وهرب. لكنه حين بادر إلى النطق بتتمة الآية كان الظاهر منها يقول الخفي، ولم يكن بد من اختلاج النفس فاللسان بذلك الخفي. وقد كان يمكن لرجل آخر أن يعلم بقية الآية ويزداد إيماناً. فالمعرفة كانت لأنها وجبت، رأسها الموجب بتمامها، ككل رأس يوجب بتمام الجسد ولا يكذب إن لم يكن مقطوعاً. وكثيراً ما يستبق السامعُ لسان المتكلم لأن ذهنه كان أسرع في تأليف الجملة من لسان المتكلم، ولمثل هذا يمكنك أن تدرج في لسانك جملة خطرت لك ثم تستدرك فتقطع الجملة لأنك أدركت فيها عيباً بعد أن ألفتها فاستعجلتَ وأوقفت الجملة قبل ظهور العيب. فقد قام الفكر بأكثر من عملية قبل أن يقوم اللسان بعملية واحدة. وتبين لنا أنه استشف عيباً كان خفياً من خلال كلام يتقدم في خط عصبي تنتشر فروعه في محيطه ليبلغ رسالة تتكامل بوضوح في أجواء نفسية ظليلة ولكنها مناسبة. يتعاون الواضح والغامض منها مشكلاً ومولداً سلسلة من الروافع المتصلة التي تحرك جسد الفرد وجسد الجماعة في اتجاه الرغائب والمنافع وضد المكاره.

وقد لا يكون عبثاً بل إنه لمن الضروري قيام اللغة في الفم والأنف، في مدخليِّ الحياة اللذين يختلج عمقهما الحلقي مع اختلاج النظر والسمع. وللمنظر المستحب يفيض اللعاب، وللصوت المستلذ يرضع الوليد وليس في فمه حلمة، وللصوت تختل الأوتار الصوتية المتصلة بأصول الأذنين. ويقوم من كل الخبرات الأنف ـ فموية والسمعية البصرية نظام لغوي اختلاجي أنف ـ فموي ملازم لنظام لغوي صوتي، ما من شك في أن لهما دوراً كبيراً في تشكيل الجسد الإنساني وفي تشكيل دماغه التشكيل الذي لا يكف لحظة عن تطوير الطاقات الجسدية والفكرية واستثارة الحياة. اللغة رياضة اجتماعية فردية تطول الأبدان والأنفس.

يُقبل الشخص أحياناً على طعام أو شراب حارٍّ أو جِرِّيف فيكتوي لسانه وجوانب حلقه فيتحرك لسانه ويتردد بين الشجْر والأسنان والشفتين. وحركة اللسان هذه تستعجل جلب الهواء من خارج الفم. وتأتي هذه الحركة بصورة عفوية. وإذا التفت إلى وظيفتها تجد أنها ترمي بصورة غريزية إلى تبريد الحروق.

ويتولد عن هذه الحركات أصوات غير مجهورة. ويظهر من بين هذه الجروس جرس اللام وجرس الهاء وجرس الباء، مع جرس يختلط فيه شيء من جريسات القاف والجيم المتأتية عن حركات الحلق وانحصار الهواء بين اللسان والشجر. وقد يُلحظ الضم في مجرى الصوت الهوائي الذي تسبح فيه هذه الجروس.

وقد يقوم اعتراض على ما سمي اللام والباء غير المجهورتين. لكن الجهر تعطل بتعطل الأوتار الصوتية عن الاهتزاز إفساحاً في المجال للهواء المستجلب باللسان كي تشهق به الرئتان أو تعودان فتزفرانه هائياً. ويتحرك اللسان قارعاً مخرج اللام ومتردداً على الشفتين تختلج لامٌ مهموسة في موضع النطق باللام وباءٌ مهموسة في الشفتين. ويتبين الإدراكُ هذين الحرفين لأن اختلاج مخارجهما بهما أوصل إلى تحريك الذهن بهما، فظهرا بشيء من حركة الأعضاء وبشيء من حركة الذهن وبالتئام ما بين العضوي والذهني منهما. أما الهاء فجرس من جروس الشهيق، غالباً ما يتصل بالذهن مولداً إدراك حرف الهاء.

وكثيراً ما يتردد اللسان بين مخرج اللام والشفتين عبر الأسنان تأثراً بما يُشْتَهى من حساء أو طعام أو معشوق. وتسمى هذه الحركة (لَبْلَبَةْ). ويعبر أهلنا عن فعل أحد الأشخاص لها بقولهم: لَبْلَبَ بلسانه. ويرون في ذيل الجدي تردداً وفي أَلية الحَمَلِ الرضيع مثله وهما يطلبان الرضاع، فيقولون: لبلب الجدي بذيله، لبلب الحمل بطرفه. والكلب الذي يبصبص بذنبه يقال فيه: لبلب بذيله.

ويمكن أن تكون الجروس المنبعثة من تردد اللسان طلباً لتبريد حروق الفم أصلاً لحكايات مختلفة تطورت إلى ألفاظ مثل: (لهج)، (لهف)، (لهوج)، (لهله)، (لوه)، (لهو)، (لهب)، (لج، لوج).

ولا تخرج مدلولات كثيرة من مدلولاتها عما يقع عليه العقل والإدراك من أحاسيس ومشاعر وأدوات عضوية تشترك في ما ينتاب الفم من تأثرات وحركات تصحب وتعقب تناول المأكل الساخن أو المشرب، وهي الحركات التي ولدت تلك الأصوات التي ابتنيت منها الألفاظ المذكورة. فـ «لاج الشيءَ لَوْجاً: أداره في فيه». «واللَّهَجُ بالشيء: الوَلُوع به». «واللهجة: طرف اللسان». «واللهجة: اللسان، وقد تُحرّك». «والفصيل يَلْهَجُ أمه إذا تناول ضَرْعَها يمتصه». «وأنشد الكلابي:

خَيْرُ الشِّواءِ الطَّيِّبُ المُلَهْوَجْ، قَدْ هَمَّ بالنُّضْجِ، ولَمّا يَنْضَجْ»

«ولَهْوَجَ اللحمَ: لم يُنعِمْ شَيَّه». «واللَّهَجَة: جَرْس الكلام». «واللُّجْلاجُ الذي يجول لسانُه في شِدْقه». «واللجلجة: ثِقَلُ اللسان ونقص الكلام».

و «لاهَ السرابُ لَوْهاً ولَوَهاناً وتَلَوَّهَ: اضطـرب وبَرَق». و «اللَّهلهةُ: الرجوعُ عن الشيء». «وتلهلة السرابُ: اضطرَبَ». «وبلد لَهْلَهٌ ولُهْلُهٌ: واسع مستوٍ يضطرب فيه السراب». و «لاهَ الله الخَلْقَ يَلُوهُهُمْ خَلَقَهُم».

«واللَّهَبُ: لَهَبُ النار، وهو لسانُها». و «اللَّهَبان: شدة الحر». «وألْهَبَ البرقُ إلْهاباً؛ وإلهابُه: تدارُكه حتى لا يكون بين البَرْقتين فُرْجة». «وهو يَتَلَهَّبُ جوعاً، كقولك يَتحرَّق ويتضرم». «وقد ألْهَبَ الفرسُ: اضطرَمَ جريُه». «واللِّهْبُ: الفُرْجة والهواء بين جبلين». «والتَهَبَ عليه: غَضِبَ وتَحَرَّق». «وقيل: كُنِيَ أبو لهب لِجَمَاله». (هذا كله من لسان العرب).

ل، هـ، ب/ف، ج/ق، وُ/و.

من هذه الجروس التي نحس بأمثالها إثر دوران اللسان في الفم لتبريد حروقه تألفت المفردات المشروحة أعلاه. ومجمل مدلولاتهـا بيِّنٌ في مدار الكفاح اللساني لحرق مفاجىء يصيب الفم.

اللسان وشَيُّ اللحم وجَـرْس الكلام وجولان اللسـان في الشدق ونقص الكـلام والاضطراب وشدة الحر وتدارك الحركات والتضرم من الجوع أو العطش والفُـرْجة، ملحوظة كلها في ما ندركه من آلة الفم وحركاتها عند هبوب اللسان لإطفاء حريق الفم وفي ما ندركه من أحاسيسنا المختلفة كالحرارة والجروس ونقص الكلام.

غير أننا لاحظنا بين معاني هذه المفردات ما يناقض الفكرة العامة. فأي علاقة نجد بين الوَلُوع بالشيء (اللهَج به) وبين حرق الفم والكفاح لتبريد الحرق؟ وأي علاقة نجد بين ذلك وبين امتصاص الفصيل لضرع أمه؟

سبقت الإشارة إلى (اللَّبْلَبَةِ) باللسان والذنب وعلاقة ذلك بالرضاع. والواقع أن اللسان الذي يتردد على موضع اللام ومخرجه طيلة سن الرضاع تحركه المشتهيات حركة يتردد معها، قبل أن تصبح تلك المشتهيات في الفم، بين مخرج اللام والشفتين تردداً أقلَّ حدة من مثله في احتراق الفم. ونحس الهاء أضعف في الشهوة منها في إطفاء الحروق، إلا إذا بلغت الحاجة مبلغاً. ونحس أن الهواء الجاري مع حركة اللسان إنما يجري من مجرى الفتح لا الضم كما كانت الحال في اللهوجة. إلاّ أن الاختلاف هذا لم يمنعهم من بناء وحدة لفظية مشتركة بين مُدْرَك بانَ في حرقة الفم وآخر بانَ في حرقة الشهوة، إن أنفسنا تشرك الحريقين في اختلاجة المفاجأة.

والمعنى الذي ابتلوه في اللذة محمود، في حين رذلوا وكرهوا حرقة الجسد. فالاحتراق الجسدي بالنار لعنة، أما الاحتراق بنار الحب، الوَلع والعشق، فمفخرة ومحسدة.

لكن الاشتراك اللفظي بين المعاني شيء مستكره، مع أنه من مقتضيات الجمالية في مثل التورية وغيرها. وكرههم له يرجع إلى ترجيح البيان على الغموض وإلى تغليب الوظيفة الدلالية للغة على وظائفها الأخرى. فالالتباس في اللسان نسبته تعادل المزح إذا ما قرن بالجد.

ولهذا اشتقوا من الجروس المشتركة بين ما يصدر عن اللسان من أصوات في إطفاء حريق، الفم وما يصدر عنه في استدرار اللذة الفموية الرضاعية ألفاظاً خاصة بكل حقل. ففي مقابل (لج) و(لهج) و(لهله) و(لهب) اشتقوا (لب) و(لبأ) و(لبو) و(وله) و(لهو) و(love) و(labia) أم (lèvre) و(lip). وربما كانت (ل ـَ ب) أصلاً لـ (ل ع ب). وصيغة التثنية في (لَبَّيْ) من «لَبَّيْكَ» و«لَبَّيْ يَدَيْك» تغري بالاعتقاد في أن اللَّبَّيْنِ اسم للشفتين في الأصل وذلك متى قرنت أصوات اللفظ بدلالاته على الكلام والعقل واللبن والتردد والمواجهة؛ وقال الخليل إنه «مأخوذ من قولهم: أُمٌّ لَبَّةٌ أي مُحِبَّةٌ عاطفة».

وتظل تبحث بلا مرشد حتى نهاية (لبب) من اللسان فتعثر هناك على كنز، . حيث تقرأ: «واللَّبْلَبَةُ: لَحْسُ الشاة ولَدَها، وقيل؛ هو أن تُخْرِج الشاة لسانها كأنها تَلْحَسُ وَلَدَها، ويكون منها صوت، كأنها تقول: لَبْ لَبْ». «ولَبْلَبَ التيسُ عند السِّفاد: نَبَّ، وقد يقال ذلك للظبي». «وفي حديث ابن عمرو: أنه أتى الطائف، فإذا هو يرى التيوس تَلِبُّ، أو تَنِبُّ على الغنم؛ قال [ابن سيده] هو حكاية صوت التيوس عند السِّفاد».

ونجد في هذا مصدرين آخرين من الأصوات للفظ (لب). أصوات لسان الشاة وهو يتردد في لحسها ولدها. وأصوات لسان التيس في فيه وبين شفتيه وهو يطلب أنثاه للضراب.

ولهذا نجد أن اللام والباء ولوازمهما المصوتة الضرورية والمتغيرة تجمع بين دلالاتها اللسانَ والشفتين وأصواتهما التحببية واللحس والتردد والشبق الجنسي. ويكفي أن تتعقد المسألة غاية التعقد حين يعرض مدلول اللفظ إلى أن يقال: «لُبُّ كلِّ شيءٍ: نَفْسُهُ وحقيقته».

كم من الأعصاب والعضلات الفموية والشفوية والبصرية والسمعية والحسية الأخرى ينشط للعمل ويعمل في كل لحسة أو في كل لَبَّة؟ إن الأركان في كل وحدة نفسية من هذه الوحدات الواعية أو ما خفي منها على الوعي، كالإحساس الصوتي واللساني والشفوي والعاطفي والخيالي والعقلي، تَقْبَلُ التحرك لعامل أو لآخر. ومتى تحرك الركن أمكن تحرك الكل الذي يشده إلى بنيانه.

فقد كان المثير لهذا البحث كله ذكرى اضطراب اللسان بين الشَّجْرِ والشفتين إثر كيٍّ يصيب الفم عند تناول طعامٍ شديد الحرارة. وقرأنا أن «اللَّهْلَهَة: الرجوع عن الشيء». وبما أن النفي رجوع عن الشيء المنفي، أي رجوع عن وجوبه، فقد يكون من المحقق أن (لا) النافية إنما ابتُني لفظها من أصوات اضطراب اللسان حال تبريده حروق الفم. وتطورت دلالتها من حركة لسانية وظيفتها لفظ المادة الحارة من الفم وإطفاء الإحساس بالحرق، إلى الاعتراض العاطفي على كل مكروه: نفيه، إلى الاعتراض العقلي على كذب الخبر أوبغرض تكذيبه (راجع مناجم النفي في الكتاب السابق).

ويزيد من ثقتنا أن (لا) هي من لامٍ وهاءٍ ذلك الاضطراب اللساني وجودُ إشارتين للنفي تقوم إحداهما على تردد المشيرة يميناً وشمالاً، وتقوم الثانية على تردد حركة الرأس يميناً وشمالاً. والأساس في الإشارتين هو إشارةُ الرأس لأن تبريد الحلق بلبلبة اللسان يصحبه حركة من الرأس، يميناً شمالاً، تختلف سرعة ترددها من حرق إلى حرق، وهي أبطأ من رجفة الرأس عند القشعريرة ولكنها أطول مُدّة. ويمكن أن تتقاطع مع هزة الرأس تحبباً حتى يقربهما السياق.

وليس من شك في أنه يلزم الجسمَ من الحركة، إثر هزة الرأس المصاحبة لاضطراب اللسان في تبريد الحروق، ما يصل إلى اليدين ويوافق حركة اللسان والرأس. هذا عامل من عوامل اعتماد النفي بإشارة من المشيرة والعامل الثاني هو تحريك اليد في الهواء يمنة ويسرة إثر قرط مؤلم يصيبها؛ والغاية من وظيفة الحركة هي أيضاً تبريد نار الألم سواء في الهواء أو بتحريك الدم ليسرع إلى موضع الأذى. وقد لا يكون معنى النفي واضحاً في احتدام المعالجة، ومع ذلك فقد يقع هذا المعنى في الإدراك أو في العقل العاقل في الظلام. وقد يكون لحركة اليد أيضاً، وهي تمحو الخطوط والآثار التي لا يريدها صاحبها، أثر في بناء إشارة النفي التي تُعْلَمُ بترداد حركة المشيرة يميناً شمالاً في اتجاه صاعد.

وما إن يقع في النفس ما تراه كاذباً أو مُحْرِجاً حتى يصدر الحكم العقلي بالنفي؛ ويندرج

الحكم في اللسان وسائر أعضاء النطق على صورة اختلاجات كلامية قد يمنعها من الظهور انشغال الفم بما يعيقه عن الكلام أو قرار إرادي. وعند تعطل النفي كلامياً، وأحياناً مع الكلام، تتحرك السبابة لتعلن النفي وقد يتحرك الرأس أيضاً. ولكن لا بدّ من عمل أدق لاستجلاء الفروق بين النفي بالإصبع والنفي بالرأس ومتى يُقَدَّمُ واحدٌ على الآخر. فالاختلاج الموحَّد قاسم مشترك بين اللفظة والإشارة. فهذا منجم ثالث للنفي فاعلمه.

إلا أن إشارتي النفي باليد والرأس تعدان من الاختلاجات الدالة دلالة لغوية. وهي اختلاجات ظاهرة في الأعضاء وندركها بالعين المجردة. ويقابلها اختلاجات عفوية ظاهرة وأخرى باطنية يحاول المجتمع استقراءها وإدراجها ضمن نظام الإشارة الدالة. فيقولون في اختلاجة عين اليمين: «عَيْن اليمين هَمّ مقيم»، وفي اختلاجة عين الشمال: «عين الشمال جمع شْمال» (= جمع شمل). ويقولون في خفقة القلب أو نقزته: «قلبك دليلك».

ولم تصبح هذه الاختلاجات علامات لغوية لأنها، وإن اتفقت مع العلامات اللغوية اللسانية في الولادة الاختلاجية العفوية. لا يمكن استيلادها ولا منع حدوثها بقدرة الإرادة ولغرض الدلالة على شيء معلوم. ويحاول المجتمع كذلك توظيف بعض الأصوات العفوية للدلالة على ما تدل عليه الألفاظ. فإذا كنت تدلي بخبر وعطس أحد الحاضرين ممن يسمعون وممن لا يسمعون أو لا يعون كالأطفال يقول المخبر: «هَهْ بشهادة هالطفل»، «بشهادة ابن حلال»، أو «بشهادة». أما إذا عطس الراوي نفسه فيضحك ويضحكون. وعندما تطن أذن أحدهم ويعلن عن ذلك فإنهم يستدلون من هذا الطنين على أن «بعض الناس جايين عَ سِيْرتك»، أي أن ناساً غائبين عن المجلس يذكرونه الآن في حديثهم. ولا يستظهرون بهذا القيل السائر حول العطس وطنين الأذن لأن جدواه الدلالية لم تكن محددة.

هذا الاستدلال هو جزء من محاولات استدلال عامة تجري في سائر المجتمعات وتتناول الظواهر الجسدية الحركية كالاختلاجات، والظواهر الجسدية الثابتة كالحسنات وخطوط الكفين. وتشتط المحاولات في اجتهادها حتى الطموح إلى استقراء الغيب وحركات الأفلاك والأبراج والنجوم وآثارها في الأمزجة والأخلاق من خلال حركات الجسد وصفاته الثابتة والمتحولة (أنظر كتاب «الفِراسة لفخر الدين الرازي).

قد يكون وراء البعض من الحركات اللاإرادية أحوال نفسية وعضوية موجبة ويمكن علمها. فهذا يجعل من تلك الحركات علامات دالة على الباطن النفسي ويقربها بالتالي من الاختلاج اللساني الذي يُقْرِىءُ صاحِبَهُ مدارَ نفسه في حال الصمت كأنه إبرة مغناطيس النفس أعدت لتكتب في ذاتها شريطاً أو تقريراً عما يخالج النفس من آثار النفس والجسد. ويكون هذا

الشريط الاختلاجي اللساني جارياً أمام الوعي مقروءاً بكل دقة، يظهر فيه الناقص والزائد والمكرر. تظهر فيه لغة الشخص في نسختها الأصلية التي تصدر عن نفسه عفواً ولا تخرج من لسانه وأنفاسه إلى غيره. فمن خلال استعراضه الصامت لها يَطَّلع على ما ينفعه التصويت به وعلى ما يضره. وقد يشاء أن يطلق للنفس حرية الكتابة الصوتية المباشرة من خلال اختلاجات اللسان المباشرة. ذلك هو النطق المتجاوز آلات الرقابة الذاتية. ويمكن الاعتقاد بأن الكلام الصامت يشكل حيلة بارعة يحتاط بها الفرد لنفسه دون تمكين المجتمع من كشف أسراره الجارية أمام عينيه وحده كالجداول الجوفية.

وتجسس المجتمع على باطنية الفرد يظل ناشطاً ويبتكر الآلات والحيل والوسائل التي تمكن من كشف أعماق النفس ومدار الفكر في اليقظة والنوم، ويظل الفرد في المقابل يحاول تغطية ذاته بشتى الحيل. وآخر حيله تتجه نحو إخضاع الشغل الفكري للإرادة، يفكر إذا شاء أن يفكر ويوقف دماغه عن التفكير إذا شاء إيقافه؛ فلا يصل المستنطق منه إلى جواب عن السؤال المكرر: بِمَ تفكر هذه اللحظة، لأنه قد عطل التفكير.

هل تبقى في الوعي على حقائقها؟

كان الحدث جملة من الاختلاجات اللفظية في المستوى السمعي واللساني والذهني. فقد سمعت صوتاً لسقوط نقطتي ماء من حنفية الأزان في قدر من الأليمينيوم؛ وفي لحظة سقوطهما المتوالي مرت في الذهن جملة اختلاجات لفظية مؤلفة من قولنا العامي «سِتّوتْلاتِيْن» [أ= علامة ترخيم للألف].

ووعى العقل أن صوت سقوط النقطة الأولى قد ولَّد في الذهن تاء مشددةً مفتوحةً كقولنا: (ـتَّـ)، أي وحدة لفظية من تاء ساكنة فتاءٍ مفتوحة. وتلتْ سقطةُ النقطةِ الثانيةِ سقطةَ النقطة الأولى، ونقر صوتُها الأعصابَ حيث نقرها صوتُ النقطة الأولى فكانت التاءُ الثالثة في الإدراك. هذا التوالي التائي ولَّد في الذهن جملةَ اللفظِ الذهني أي «سِتّوتْلاتِيْنْ» وهي تشتمل على أربع تاءات.

والـ (سِ) من «سِتّوتْلاتِيْنْ» كانت في الاختلاج اللفظي الذهني وبالتأكيد بعد التاء المشددة التي تكونت في الذهن إثر سقوط النقطة الأولى؛ إلا أن هذه الـ (سِ) ظهرت للوعي بين الاختلاجات الذهنية السريعة لـ«ستوتلاتين» على أنها الاختلاج الحرفي الأول في السلسلة. وكاد ظهورها أُولى يمحو وعي أوَّلية التاء المشددة التي كانت أولى وحِسِّية قبل تكون «سِتّوتْلاتِيْنْ» ثم كانت، وبسرعة تفوق الوعي العادي، ثاني اختلاج في «ستوتلاتين». فنقدر أنها كانت أول مرة صوتاً حسياً لا انتماء له؛ ثم ولَّدت مُنْتماها وهو التاء الذهنية المشددة، وَلَّدَتْه كحركة ذهنية عصبية يعيها الوعي على حقيقتها ويعي هويتها المألوفة لديه وهي التاء؛ ثم أسهمت في توليد اختلاج ذهني لفظي من عادته أن تكون به وليس من عادتها أن يكون هو بها، أي (سِتًّ) التي جرَّت ولادةَ)اختلاجٍ لفظي ذهني مكمِّل لها هو «وِتْلاتِيْنْ».

فالمراحل التي مرّت هي إذاً:

1 ـ ـتَّـ: صوت حسي في الوعي.

2 ـ ـتَّـ: الحرف الثالث في الألفباء العربية ساكناً فمفتوحاً.

3 ـ ـتَّـ ← سِتَّـ: سِ تْـ تَـ أي ثلاثة أحرف تؤلف لفظاً هو (سِتَّ).

4ـ سِتَّـ ← وِتْـلاتِيْن؛ جزء التـركيب اللفظي (سِتَّ) جَـرَّ ولادة الجـزء الثـاني المكمـل لـه ضمن

شروط نفسية وعضوية وثقافية محددة.

وباختصار كانت السلسلة هكذا:

ـتَّ	←	ـتَّ (= تْ + تَ)	←	ستَّ	←	سِتُّوتْلاتِيْنْ
صـوت غير منتم لغوياً		اختلاج ذهني مؤلف من وحدة لغوية هي التاء المشددة بالفتح		لفظ مفرد اختلج في الذهن		تركيب لفظي اختلج في الذهن

لا يلم الوعي بهذه المراحل إلا لمحاً. فالمتكونات النفسية المتحركة يزيل اللاحقُ منها السابق. ومفاصل الزوال والتكون للدقائق الملموحة هي أيضاً أحداث نفسية عسير علينا تبين ما يغمض منها. فأنت تسمع صوتاً وعيناك تريان نقطة ماء تسقط في قدر معدنية وتدرك أن تركيباً لفظياً مؤلفاً من (سِتًّ وِتْلاتين) قد دار في ذهنك. فإذا لاحظت أن (سِ) من (سِتًّ) قد كانت في الوعي قبل أيٍّ من حروف المتسلسلة (سِتُّوِتلاتين) وتذكرت جيداً، وبفضل سقوط النقطة المائية الثانية في القدر، أن جروس سقطة النقطة الأولى لم تكن تشتمل على جرس الـ (سِ) فإنك تكون مدعواً إلى النظر في أزمان حدوث هذه الجروس. سقطة النقطة بَنَت (ـتَّ)، فهذا إدراك ما يزال يعاودك. ولكنك أدركت أيضاً أن (ـتًّ) ظهرت في موضعها من (سِتُّوِتلاتين) والـ (سِ) قبلها. فكيف؟

يبدو أننا لا نتمتع دائماً بوعي المواد الأولية النفسية التي ما إن تكون حتى تكون في غيرها الذي يكون بها، فلا ندركها بذواتها لسرعة انضمام وجودها إلى وجود ينتظر وجودها حتى يظهر مشتملاً عليها، وأحياناً يظهر ولا تبين هي فيه، فلا نعي موج اختلاج الجسم السمعي ولا نعي موج اختلاج الأعصاب الدماغية مع أنها تبني أمواج الكلام الذهني والمسموع.

لقد هجم وجود (سِتًّ وتلاتين) على وجود (ـتَّ) التي كانت بسقطة النقطة وابتلعه، وبدا عياناً أن السين في الوعي المشرف على مدار الذهن كائنة وحاضرة قبل (ـتًّ) التي ظهرت لهذا الوعي كائنةً وحاضرةً في ترتيب زمني ومشهدي يلي ترتيب(سِ). وهذا يفيد أن العصب اللغوي الدماغي قد اختلج ثانية ليؤخر ما كان أولاً ويقدم ما كان ثانياً أو لاحقاً كي يبني وحدته الاختلاجية المألوفة لديه، وينخدع الوعي فيرى أن (سِ) كانت قبل (ـتَّ). وتنجلي هذه الخدعة على حقيقتها حين ندرك أن (ـتَّ) كانت قبلِ (سِ) من (ستوِتْلاتين) ولكنها زالت كوجود أول وعادت وظهرت كاختلاج ثانٍ في المتوالية (سِتوتلاتين). وكان ظهور (ـتَّ) في (سِتُّوتلاتين)

على الحقيقة بعد (سِ)؛ كان ظهورها المنتمي بعد ظهورها اللامنتمي.

إن ظهور العناصر الاختلاجية التي تشترك لاحقاً في تكوين وحدة لغوية مركبة يظهر للوعي الأول لمحاً على أنه وحدات منفردة ومبعثرة لا تدخل في تركيب لفظي ذهني. ثم يختلج العصب الدماغي بها اختلاجه المعروف بالعقل أنه اختلاج الحروف في المستوى الذهني. تتولد الحروف المنسجمة في فعلها مع العناصر الخام بسرعة قصوى ويوافق توالدها بالعناصر الخام ترتيبَ هذه العناصر. فصوت خام نحسه (ـتَّـ) يولِّد حرفاً ذهنياً مؤلفاً من تاء ساكنة فتاء مفتوحة ولكنه لم يصل بعد إلى اتخاذ موقع في جملة اختلاج لفظية سرعان ما تكون به وبغيره من العوامل المؤثرة في الدماغ والنفس. تكون الحروف الذهنية مبعثرة وما إن تكون حتى تتحرَّكَ الأعصاب المتأثرة بها تحركاً مؤلفاً من سلسلة من الاختلاجات المقطعة تقطيع الحروف الذهنية ومتصلة اتصال هذه الحروف في الكلمات الذهنية، فتتكامل المقاطع لتؤلف وحدات كلامية ذهنية اختلاجية، قد لا ندرك أنها اختلاج أعصاب بل اختلاج كلام. وتظهر الوحدات الدقيقة، الحروف الذهنية وحركاتها، ضمن الكلمات الذهنية المركبة ولكن في تسلسل غير الذي رأيناها تظهر وفقاً له وهي مستقلة. فنعلم أن وجودها ضمن الكلمات الذهنية كان ثانية وأن وجودها الأول قد زال دون أن يزول وجيب الأعصاب بمثلها وجيباً يستسنح الفرص بين حركات الأعصاب ومشاغل النفس كي يتردد.

لماذا تتكوَّن وحدة كلامية ذهنية لا سواها بعناصر اختلاجية ذهنية أو صوتية خام؟ فلأن هذه العناصر، في ظرف عضوي نفسي معين، قد أُوِّلَتْ تأويلَ حروف لغوية بعينها، إما لفعلها في الدماغ فِعْلَ تلك الحروف، وإما لعلاقة بين الفعلين تقويها الأحوالُ النفسيةُ حتى تستوي تلك العناصر حروفاً. ولماذا تولِّد تلك الحروفُ التي تكوَّنت أحدَ التكوُّنين هذه الوحدة الكلامية الذهنية دون سواها؟ فذلك يتعلق بالاستعداد العصبي الدماغي في حينه وبالمشاغل النفسية وبالاستعداد القائم لدى أعضاء جهاز النطق من الرئتين حتى الأنف والشفتين. فإذا كانت أعضاء جهاز النطق بعيدة كل البعد عن أن تتجاوب مع اختلاج لفظي ذهني معين فإن وضعها هذا قد يحول دون اشتغال الذهن بهذا اللفظ. يؤكد ذلك قدرتنا على لجم الذهن عن الاشتغال بكلام فور إمساكنا باللسان وأدوات النطق ومنعها إرادياً من أن تختلج اختلاجها اللفظي.

ولا يشذ عن قواعد تكون الجمل بعناصر مبعثرة ما يؤلفه التلاميذ الصغار من ألفاظ لدى رؤيتهم حروفاً مبعثرة أو ما يؤلفونه من جمل لدى رؤيتهم ألفاظاً مبعثرة. غير أن الذهن العام قد يصعب عليه أن يركب المتوالية (سِتُّوثْلاثِين) إذا ما رأى صاحبُه عناصرها مبعثرة كما يلي: ـِ، ـِ، يْ، س، ن، ت، ت، ت، ت، ا، ل، ـَ، ـِ(= كسرة، كسرة، ياء ساكنة، سين بلا حركة، نون بلا حركة، تاء بلا حركة عدد أربعة، ألف ممالة، لام بلا حركة، فتحة، فكسرة)، إلا إذا وفرت له

استعدادت نفسية وعضوية مؤاتية. فإذا كان باله مشغولاً بفحص للدم أو للبول يرى عند نفسه الحاجة إليه. وإذا كانت تجول في خاطره أرقام نتائج الفحص مطبوعةً في ورقة المختبر التي تعين السويَّ وغير السوي وكان ممن يجهلون نسب الوحدات في تركيب السائلين الصحية والمرضية، وإذا كان يعرف أرقام الروليت المنتهية بالرقم (36)، وإذا كان ملماً بشيء من تاريخ الثورة الفلسطينية ضد الإنكليز: ثورة الـ 36 من هذا القرن، إذا كان الشخص حافلاً بهذه الاستعدادات المطوية فإنه يمكنه أن يركِّب من تلك العناصر وحدة القول العامي «سِتَّوتْلاتِيْنْ» كما هي في لسانه لا كما هي في اللسان الفصيح الذي يعرب جزءيه (ست وثلاثين).

فإذا ما رأى رائي هذه العناصر القولَ (سِتَّوِتْلاتين) يدور في ذهنه فإنه قد ينسى كيفية مدار التركباللفظي وكيفية صيرورته في الدماغ. ينسى التفاف العناصر وتوحدها في مقاطع وأيها جر أيها حتى تمت الوحدة اللفظية الكبرى أي «ستوتلاتين». وقد يتوهم أن أوائل العناصر الخام كانت المنطلق في تكوين اللفظ. وعندها تظهر في الوعي عناصر من اللفظ على أنها أسبق في الحدوث من غيرها، في حين تكون عناصر أخرى هي المؤسِّسة. فالـ (ـتّـ) يليها (ـتْـ)، صوتا نقطتي الماء، اختلج معهما عصب الدماغ بنبرين مركزيين الأول هو (ـتـ) المشددة من (ست) والثاني هو (ـتـ) من (تْلاتين). فنهضـــا باللفظين معاً.

هذا يؤدي بالوعي إلى تبديل أزمان المكوِّنات، فيعد السابقَ لاحقاً واللاحق سابقاً. ومما يجعله يغلط في أزمان حدوث أحداثه اللفظية الجزئية هو ارتماء العنصر اللاحق في الوجود في أحضان العنصر السابق الذي يَبْرُز أجلى منه. فأسماء العائلات تبتلع أسماء الأفراد المنتمين إليها. وقد تطرق سمعَكَ طاقةٌ كانت بلفظ أحدهم (تْ) فيتوفر وعيُـكَ على سماع صوت (سْتْ). والذي يكون هو أن صوت (تْ) في ذهنك ملتبس بصوت (س) وموصول به. فـ (سْ) تُوْلد في ذهنك بعد ولادة (تْ) ولكن وعيك يجزم أحياناً بأنك سمعت (سْ) قبل (تْ)، مع أن (تْ) وَلَدت في دمـاغك (سْ) ثم تولد هي ثانية عندما انضمت إلى (سْ) من آخرها وكونت معها (سْتْ) في دماغك ففي وعيك. فقد ارتمت (تْ) في (سْتْ) وبانت التاء لاحقة في الحدوث وبانت (سْ) سابقة في الحدوث. أما كسرها فعائد في أغلب الظن إلى موافقة نشوئها لنسمةٍ زفيريةٍ منطلقةٍ من منصة الكسرة في الحنجرة.

قالت نقطة الماء الأولى الساقطة في القدر: (ـتّـ) وقالت الثانية (ـتْـ) ونشأ في الدماغ أو الذهن القول (سِتّوتلاتين) وارتسمت الأزمان، أزمان حروف الـ (سِتّوتلاتين) منقضية تباعاً وفقاً لانقضاء حروف هذا القول. فقد تكون الـ (سِ) متولدة عن صفير سيني تنفسي لم يظهر للوعي الإحساسُ به. وقد تكون ذهنية أي مما يلد في الذهن بتوفر الدماغ على اختلاجة (ـتـ). فكثيراً

ما يراهن سامعان على قول سمعاه. أحدهما يقول: قيل كذا، والثاني يقول: قيل كذا. والسبب أن أحدهما أو كليهما قد توفر وعيه على أصوات حسية التحمت بها أصوات نفسية بلا وعي منه. فهو صادق في خبره ضمن حدود وعيه. ووعيه يرتب أزمان حدوث وحداتِ اللفظ تبعاً لمندَرَجها وتسلسلها في اللفظ الذي وقع عليه وعيه، غيرَ دارٍ أن الاختلاجة بأحد الحروف تكون، دون وعيه، حسية مجردة من علائق وعواشق اختلاجية لفظية قد حدثت بها ثم تكون مع تلك العواشق سابقة أو مسبوقة ووعيه يرى ويشهد. عند مثل هذا يلتبس على الواعي زمنُ نشوءِ الحروف. وقد يكون بأحد الأحداث النفسية حدثٌ نفسي باهر. فيستولي الباهر على الوعي قبل أن يصل إلى الوعي شيء من مُوَلِّدِه. فما دام الحدث في الوعي ينشأ منصرفاً إلى تكوين وحدة جديدة ينضم إليها فإنه سوف يظهر مولوداً أو حادثاً يتلو في زمن حدوثه زمن تلك الوحدة. سوف يبدو للوعي كائناً بعد تلك الوحدة أو البنية التي ما إن كان حتى رأيناه ينضوي بين عناصرها. علماً بأن تلك الوحدة أو البنية التي انتحى حدثُ الوعي الطارىءُ هذا إحدى نواحيها إنما برزت في الوعي بفضل وجوده الحقيقي كحركة في الأعصاب أي هي برزت في الوعي في زمن يلي الزمن الذي تكوَّن هو فيه. فهو من الماضي وهي الحاضر في الحقيقة؛ وبالرغم من ذلك بدا للوعي العكس. فيكون العقل قد تمثل قِدَمها بعد حدوثها نتيجة لكونها قد كانت، عندما كانت آخر مرة، كائناً قد كان وكان وكان قبل ذلك. وبكونها قد كانت آخر مرة بملامحِ شخصِها التي رآها الوعي لها لدى ظهورها مراراً في السابق فإن ظهورها الأخير لم يصمد بذاته أمام الوعي بل انصهر في شخصها ذي الملامح القديمة. بانت في الوعي قديمة لهذه العلة ولعلة أخرى هي خاصية الحدث الذي كانت به وكان هو ماضياً منذ نشأته لينضم إليها. فلأنه هو ابنُ مَرَّته التي لا سالف لها تعيَّن لوعي العقل بلا شخص له ماضٍ. فهو جديد كل الجدة والبنية التي ولدها في الوعي وانضم إليها قديمة؛ قِدَمُها طمس جدتها، وجدته لم يطمسها قِدم. فظل هو يبدو جديدَ الوعي أي ما استجد في الوعي، بينما بدت هي من قديم الوعي. فاستوى هو الوَعْيَ الحاضرَ واستوت هي وعياً أسبق. والمسألة كلها كامنة في أن عقولنا إلى الآن لا تستطيع أن تعزل اختلاج أعصابنا الجديد عن مثله القديم؛ بل إن اختلاج أعصابنا الجديد القديم يفيد بجدته ما يفيده حدوث الرمز ويفيد بقدمه مرموز الرمز. والرمز الذي يحدث الآن يحدث قديماً ومرموزه الذي يحدث به يحدث قديماً كذلك أو يحدث متجدداً أي طالعاً في منبت لم ينبت فيه من قبل. الرمز ومرموزه جديدان قديمان يغلب عليهما قِدَمُهما. أما ما ينشأ جديداً ويولِّد أحدَهما أو كليهما لينضم إليه فيتجلى من حاضر الوعي منصرفاً إلى منتمى هو من ماضي الوعي بالرغم من كون هذا المنتمى المنطوي كاستعداد في الأعصاب قابلاً للتحقق بفضل المولى المستجد.

إن الـ (ـتَّـ) والـ (ـتْـ) اللتين كانتا بأول نقطة ماء تسقط في القدر وبالنقطة الثانية كانتا

المولَدين المستجدين اللذين كانا منطلقين ليتولد عن انطلاقيهما اللفظُ الذهني (سِتّوِتْلاتين) الذي بدا وكأنه كان قبلهما وفي انتظارهما ليأويا إليه. والواقع هو خلاف ذلك في الحقيقة.

هذه الحقيقة الخاصة بوقوع العقل أسير معقوله تظهر في أحداث أوضح. فقد كنت يوماً في المطبخ القريب من باب المدخل وسمعت دقاً على الباب، باب المدخل، ورأيتني أسمعه متصوراً أني في أبعد غرفة في البيت عن هذا الباب. لم يكن ممكناً أن يصح المعقول لدى العقل إلا بتصور الذات تعقل من أبعد غرفة. فأماكن وجود الشخص الذي يعقل مرتبطة ذهنياً بمعقوله. إذا كانت الأبعاد ما بين العاقل ومصدر الطاقة المولدة للمعقول متناسبة عَقلْنا المعقول في المكان المقدر مع عَقْلنا مكان شخصنا على حقيقته الحسية. وإلا فيجب أن يتغير المعقول أو الوعي الذي يحمل العاقل عن مكانه وأحواله، هذا أو هذا، وفقاً لطغيان وعي الشخص لذاته، إبّان وعيه لما يعي أو وفقاً لطغيان وعي الوعي لما يعي على الوعي المكنون لكافة المرء الواعي.

فالمسألة الدقيقة الحساسة في هذا المجال هي: إذا كان عصب الدماغ المختص بالاختلاج اللفظي قد اختلج تباعاً هذه الاختلاجات: ن ع ل، إثر تلقي السامع من الناطق قوله: نعل، فكيف وعى السامع أن ما ألقي في سمعه هو «لعن»؟

نتذكر في المناسبة كيف نسمع أحياناً كلمة ألقيت في سمعنا بعد وقت من بلوغها آذاننا. يكون ذلك عندما يكون وعينا مشغولاً بغير ما وفد إلى أسماعنا من كلام. وأحياناً يُصَوَّبُ إلى آذاننا كلام ولا نسمعه لانشغال بالنا أو وعينا بشاغل مُلْهٍ. فعندما نسمع كلاماً انقضى وقته وانقضى اضطراب الهواء به نحكم بأن أعصابنا السمعية إنما كانت ما تزال تختلج به. فندرك هذا الاختلاج العصبي الموصول بذكرى أصوات الكلام الذي تأدى إلينا ونحن منشغلون عنه. وإدراكنا لاختلاج الكلام في أعصابنا الدماغية هو إدراك كلام.

غير أن اختلاج الأعصاب اختلاجاً كلامياً متكرراً لا يعني حكماً بأن الاختلاج الأخير مطابق للاختلاجات التي سبقته. وهذا التباين الحاصل ما بين اختلاج عصبي واختلاج يتلوه مما يكون بالطاقة ذاتها يفسر بعض الفرق بين كلام يلقى في مسامعنا وبين كلام وعيناه عندما اشتغلت أسماعنا بالكلام الذي ألقي فيها.

فنعلم عندئذٍ أننا كلما سمعنا كلاماً ألقي في آذاننا إنما نسمع موجاً من الاختلاج الكلامي أو تياراً من هذا الاختلاج الذي هو تيار اختلاج أعصاب السامع الموافق لتيار اختلاج نطق الناطق أو المختلف عنه. فإذا اتفق الاختلاجان اتفق الكلامان الملقى والمحصل. وإذا لم يوافق اختلاجُ سمع السامع اختلاجَ نطقِ الناطق الذي وافاه بالكلام فإنه لا يقوم اتفاق بين ما

يقال وما يسمع من هذا المقول إلا بعوامل أخرى تجعل الاتفاق حاصلاً عن طريق الخطأ، كمن أَمَرَ جندياً بإطلاق النار وأطلق الجنديُّ النارَ مع صدور الأمر ولكن بعامل آخر هو غير هذا الأمر.

وليس أن يقال لنا شيء ونسمعَ غيره كأن يقال لنا شيء ونخطىء النطق به رغم سلامة وعينا لما سمعنا. فالخطأ في تأدية اللسان أحياناً لما يَسْمَعُ السامعُ قد يرجع إلى عصيان اللسان وعدم اختلاجه وفقاً لموجة اختلاج الدماغ بالمسموع، وقد يرجع ذلك إلى عراقيل نفسية وعضوية أخرى.

التصحيف واللفف

بعد ظهر الخميس (1991/3/21) كنت أفكر بالعودة إلى «دار الحمراء» لمقابلة صاحبها بغية نشر مدونات منتخبة من طرائف جادت بها ألسنة الأطفال. ومر في خاطري ما قاله صاحبنا ح. ن. وهو أن عمال الدار «مشغولون بالصف».

مرت الخاطرة وانتقل منها الفكر إلى التساؤل عن الطابق الذي فيه الدار مع تخيل طوابق البناء. ووعيت كل الوعي أن لساني مضى متسائلاً بهذه الكلمات الصامتة: «الطابق الخامس؟»، «الرابع؟»، «........». وعيني الداخلية على ذهني لَمَحَتِ الصاد ناصعة تمضي بين حروف فكرة حسين: «مشغولون بالصَّفّ». وتحولتْ عيني عن مضي فكرة حسين لترعى اللسان المستعد للاختلاج بما دار في الذهن من كلام حول الطابق الذي فيه الدار. وما إن تحرك اللسان اختلاجاً، والعين متحولة إليه، حتى اختلج في الذهن الذي فارقتْه العين المراقبةُ لفظُ «الصَفْحَة». مكان لفظ «الطابق» من الجزء الثالث من التساؤل الذهني. فبدلاً من أن يكون الاختلاج الكلامي في الذهن «الطابق الثالث» صار أو جرى هكذا: «الصفحة الثالـ» لـم يكتمل لفظ «الثالث». فقبل أن يكمل الذهن هذا اللفظ وقع الوعي على التصحيف، ضبطه وضبط كيف كان.

فقد حملت العين الخارجة من قول حسين «مشغولون بالصف» الصادَ أي (الصَّـ) ملتحمةً بالـ (فْ)، وتولدت في الحال تكملةٌ ذهنية للمقطع (الصَّفْ) هي (حَه). تمت أمام عين الوعي وحدةٌ لفظيةٌ اختلاجيةٌ ذهنيةٌ هي (الصَّفْحَة).

فكيف قامت في الذهن كلمة (الصفحة) مكان كلمة (الصف) المناسبة بل الواردة في مجرى كلمة حسين الدائرة في الذهن أي: «مشغولون بالصف»؟

وقع في ضوء الوعي استعراضُ الخيال لغرف الدار ومماشيها المزدحمة بالكتب والأوراق من الأرض إلى السقف، ووقع في ضوء الوعي استعراضُ الخيال لطوابق البناء استعراضاً تكشَّفَ عن مثل استعراضك خيالياً لصفحات الكتب والعينُ المبالية بذلك راجعةٌ من تصور الغرف والكتب على زوال. وقع في ضوء الوعي كل ذلك بالإضافة إلى زوال جملة حسين: «مشغولون بالصف». صورة لفظ (الصف) الغاربة عن البال تلتها صورة طبقات الدار تندرج طبقةً إثر طبقة في البال. وما إن هَلَّت لفظة (الصف) من الذهن إلى اللسان وجهاز النطق ليختلجا بها حتى كانت صورة الطبقات المتوالية تمر في الذهن مُرورَ صفحاتِ كتابٍ نستعرضها. باشر اللسان الاختلاج بلفظ (الصف) تبعاً لمرور هذا اللفظ في الذهن زائلاً. وحلّ

في الذهن مرورُ طبقاتِ الدار، وبرز في مرور طبقات الدار لمحاً مرورُ صفحاتِ كتابٍ نستعرضها تباعاً، وذلك إبان الانتقال من الجزء الثاني من التساؤل عن الطبقة التي فيها دار النشر، أي إبَّان انتقال عين الوعي من القول الذهني المتسائل: «الطابق الرابع؟» إلى إدراك الجزء الثالث من التساؤل أي: «الطابق الثالث؟».

لم يتلُ اندراجَ لفظِ (الصف) اختلاجاً في اللسان القولُ المتسائل: «الطابق الثالث؟»؛ لأن الذي اختلج في الذهن مع بداية اختلاج لفظ (الصف) في اللسان هو لمحُ تصفحِ كتاب النابعُ في الذهن من استعراض الطوابق أو تصفح الطوابق. فنزل إلى اللسان المختلج بلفظ (الصف) اختلاجٌ طالعٌ من معنى تصفح الكتاب؛ فانسكب الاختلاج الطارىء في الاختلاج الجاري في اللسان، وهذا مُمَهِّدٌ لذاك، فاستوى اختلاج اللسان على هذه الصورة: «الصفحة الثالـ...». وقبل أن يكمل اللسان الاختلاج بلفظ (الثالثة) توقف لأن العقل انشغل في الحال بالإلمام بمجرى هذا التصحيف وصارت فصول الحدث التصحيفي هذا تتراءى للوعي.

فعين الرأي التي تطلع على مجرى النفس تعلن عما ترى أو تذيع رؤياها باللسان كلاماً اختلاجياً صامتاً أو ناطقاً. فإذا انتقلتْ عن رؤية موضوع وقد جرى لفظه في اللسان إلى موضوع فإنه يحدث أن تكتمل وحدة اختلاج اللسان اللفظية بانسكاب اختلاج لفظي مناسب لموضوع طرأ على الوعي في اختلاج لفظي مناسب لموضوع آخر كان جارياً في ضوء الوعي ونراه في الشكل التالي:

1	← عين الرأي على فريق الدار وهم مشغولون بالصف	← تتحول عين الرأي إلى استعراض الطوابق لترى في أيها الدار فيتولد لمحُ تصفح كتاب	ترى عين الرأي أو الوعي تكوناً لفظياً يقوم في اللسان على غير العادة وهو ما كان بنشوء صورة تصفح كتاب من صورة استعراض طوابق البناء، أي نهوض لفظ (الصفحة) بمصادرة لفظ (الصف). أجريَ في اللسان اختلاجُ لفظ (الصف) فإذ به يخدعنا: يباشر الاختلاج بلفظ (الصف) وينتهي مختلجاً بلفظ (الصفحة).
2	↓	↓	
	يسيل في اللسان الاختلاج اللفظي: «مشغولون بالصف» ولكن في أي طبقة؟	فيتركب في اللسان الاختلاج اللفظي: «الصف ـ ـحه الثالـ» ←	

الوعي واحد يطلع على كلمة حسين الدائرة في الذهن: مشغولون بالصف. ويطلع على مرور الطبقات في الخيال ليعرف أين تقع دار النشر. ويطلع على مجرى الكلام الذهني ونزوله إلى اللسان وعلى اختلاجه في اللسان. ثم يطلع على المشكلة اللفظية التي نشأت في اللسان. وهذه المشكلة هي التفاف معنى التصفح الملموح في مرور الطوابق تباعاً في الخيال على اختلاج لفظ «الصف» في اللسان، مما أدى باللسان إلى الاختلاج بلفظ «الصفحة». وهذا اللفظ اللقيط أو اللفَفِيُّ ليس هو رسالة الذهن الذي دار فيه لفظ «الصف»، وليس هو لفظ «الطابق» الذي دار في الذهن مع التساؤل عن موقع الدار، وليس هو لفظ «التصفح» الذي لمح معناه في استعراض طبقات البناء الذي تقع فيه الدار. إنه انزلاق لساني حدث مع التفاف معنى التصفح الطارىء في الوعي على اختلاج لفظ «الصف» الجاري في اللسان مشمولاً بطرف من الوعي.

نكون بهذا قد تبينا كيفية نشوء خلل في النطق. وهذا الخلل يحدث بصورة عابرة لكل ناطق. إلا أنه قد يتكرر لدى بعض الناطقين في كل جملة. وعندئذٍ يصبح عاهة معيبة تشوه كلام صاحبه وتشد انتباه سامعيه إليها عن المعاني التي يقصد إليها. وهذه العاهة هي اللَّفَف إذ نقرأ تعريفاً للفف عند أبي العباس المبرد في كتابه علل اللسان حيث يقول: «واللَّفَف إدخالُ حَرْفٍ في حَرْف» (الكامل في اللغة والأدب، الباب 42). ويقول الجاحظ: «قال أبو عبيدة: إذا أدخل الرجل بعض كلامه في بعض فهو ألَفُّ، وقيل بلسانه لَفَف. وأنشدني لأبي الزحف الراجز [قوله]:

كأن فيه لَفَفاً إذا نَطَق   من طول تحبيسٍ وَهَمٍّ وأَرَق»

(البيان والتبيين، فصل عيوب النطق).

لم يلتفت الجاحظ إلا إلى سبب واحد من هذه الأسباب الثلاثة التي ذكرها الشاعر. فقد علق بقوله: «كأنه لما جلس وحده ولم يكن له من يكلمه، وطال عليه ذلك، أصابه لَفَفٌ في لسانه».

كيف يعالج اللفف؟

ما من شك في أن العلاج يتبع التشخيص. وقد يتفق أَلِفّاء في السبب الكامن وراء اللفف في ألسنتهم. غير أنه قد ينفرد ألَفّ بسبب علته من دون الألفاء.

إلا أنه ينبغي بصورة عامة تخليص فكر الألَفِّ من الارتباك والاضطراب وذلك بتعويده إدامة النظر في موضوع حتى يستنفد مأربه منه ولا يلتفت في أثناء ذلك إلى الملامح الجانبية وإذ

ذاك يتجاوز بعقله ووعيه الملامح الجانبية قبل أن يطفح ذهنه منها بالكلام الذي ما إن يكون في الذهن حتى يسري إلى اللسان ليختلج به. عندها يخلو الذهن واللسان للكلام الجاري عن فصول النظر في الموضوع الواحد. وإراحة النفس من الهم والأرق تكون بطرق ووسائل منها ما هو معروف كأن تزال أسبابهما أو أن ينأى المهموم الأرِق عن مصادر همه وأرقه. ومنها ما هو قليل العرفان كإمساك اللسان عن النطق مما يؤدي إلى لجم الوعي عن التطلع إلى مشاهد النفس. وهذا قد يفضي إلى نوم أروح من اليقظة كما قد يساعد على تجاوز اللحظات الحرجة.

وأبسط العلاج هو ما يختص بتدريب عضلة اللسان وسائر جوارح النطق على التزام مخارج حرفية بعينها أو على أداء لفظة تامة أداء صحيحاً أو النطق بجملة بلا تردد ولا تعتعة. بعد تأمين سلامة العقل الجدير بتقسيم موضوع النظر إلى فصول واضحة والجدير بتمييز الأحداث النفسية الدقيقة برؤوسها يسهل تدريب اللسان على التزام النطق المراعي بتسلسله مواقع الوعي من مجرى أحداث النفس البينة.

إلا أنه تظل حالات مستعصية لا يسع معها المعالج إخراج بعض النفوس من عاهاتها كما قد تستعصي بعض العلل اللسانية العضوية على أي علاج. فالذي ينهض خياله بصورة فيقطعها قبل أن تكتمل بصورة مقطوعة بثالثة قد لا يمكن له أن يؤلف جملة سوية ومفهومة. فهو بذلك يشبه من تكالبت عليه الأعداء تنال منه في لحظات متسارعة كلٌّ بطرق وأسلحة تختلف عن طرق الآخر وأسلحته فكيف ترى ردوده إن هو حاول الرد على الهجمات المتنوعة المتسارعة؟ وهو كمن فتح عينيه على لوحة حوت ألف شكل بألف لون وألف حركة، فإنه لا يملك أعصاباً قابلة لأن تؤلف ألف جملة في لمحة. فهناك مدة لازمة لإدراك الوعي موضوعَهُ، ومدة لازمة لتكون الحكم اللفظي المنبثق عن هذا الإدراك، ومدة لازمة لجريان الجملة اللفظية الذهنية من الدماغ إلى جهاز النطق. هذه المدد تختلف من شخص لشخص إلا أنها تبقى ضمن حدود لا يسعها أن تقل عنها. فكل مكوِّن نفسي يطل برأسه للوعي ويمحي برأس غيره الممحو برأس ثالث يصنع في اللسان ما تصنعه جملة من الكلمات رأيناها زائلة وحصلنا منها الحرف الأنصع من كل لفظ. هب أن ملامح كائنات سماوية أو نفسية بدت للنبي فعلق منها في الوعي ثم في اللسان ما مجموعة «كهيعص»، وهب أن وعي النبي ألم بتلك الكائنات وألم بما تعنيه «كهيعص»، فإذا نطق لسان النبي بـ «كهيعص» ـ وقد نطق ـ فمن من السامعين، ومن المفسرين لاحقاً، يسعه أن يجلو مرامز هذه الوحدة اللفظية ككل أو ما يرمز إليه كل عنصر من عناصرها؟!

ولقد كانت جدة عصام تنصح حفيدها اليتيم بنصائح متوالية قائلة: «كن آدمي، كن شاطر، كن قوي، كن. . .». فقبْلَ أن تكمل النصيحة الرابعة تضايق عصام من جدته وصدها

قائلاً: كنكنكنكن. فغضبت الجدة وواصل لسانها قائلاً: «كُنَاكْله تاكُلْ شَعْر لحيتك. فتناقلتها القرية. و«الآكلة» مرض يأكل الشعر وشعر اللحية خاصة.

وتداولُ المدارك المتنائية سريعاً على الوعي يفعل في اللسان أفعالاً مختلفة. فإذا كانت الكلمة، كوحدةٍ حركةٍ لسانيةٍ، وطيدةٍ في اللسان، فاستقبل خفقاتِ الألفاظ الذهنية الناجمةَ عن تداول المدارك المؤتلفة على غير العادة المعهودة في الألسن، فإنه ناظم جملاً لا عهد لنا بمثلها. وتكون الغرابة ليس فقط بقدر تنوع المحسوسات المتوالية بل أيضاً بقدر تنوع العوالم التي يبدو ومضها على الشاشة الواقع عليها الوعي. فقول المتنبي:

وتـركُـكَ في الـدنيـا دويّـاً كـأنمـا تـــداول سمـعَ المـــرء أنملُهُ العشـرُ

يشير إلى توالي أحاسيس من حاسة واحدة على الوعي هي الأحاسيس السمعية. ولكن الإنسان قد تتداول ذهنَه ووعيه مداركُ من حواس مختلفة ومن مشاعر مختلفة ومن أخيلة متنوعة ومن حوافز متنوعة ومن أفكار متنوعة، ولكن بصورة مختلطة. فإذا صمد اللسان للرسائل المتنوعة وقدر على حفظ الوحدة الاختلاجية التي لا تقل عن لفظ فإنه مرشح لتأليف جمل تحوي تخليطاً قد ينسب إلى الجنون أو المرض أو الشعر. فأن يرى ابن الفارض الهلال كشعرة من نور ويشك فّي أنه رآه ويلمح في الشكل النوراني المشكوك في أنه من الحس أو الخيال شكل حرف النون ويحس في الآن عينه نغمة النون في أنفاسه ويرى في نغم النفس المنون أنيناً ويقرن دقة الهلال والأنين إلى نحوله هو ثم يعلن عن وعي شعري وصوفي أن أَيَّهُ أيٍّ أنينيٍّ يختزل مأساة الحياة بالفناء وبنزريتها في المد الزمني والمكاني في آنٍ وأن يصوغ كل هذا الفيض في بيت من الشعر واحد لأمر يدعو إلى إجلال الخالق والمخلوق. يقول:

كهــلالِ الشَّــكِّ لــولا أَنَّــهُ أنَّ عـينـي عينَــهُ لم تَتَــأَيْ

لعل في الدخول إلى نفس غائبة من باب نسمة شاعرة ضرباً من ادعاء التقمص لذا يجدر بالباحث أن يعود إلى تجربة لا تقبل الرفض ولا الشك.

لقد كنت أوائل الصيف الفائت أهرول بمحاذاة البحر على رمـل الرملة البيضـاء، وأحسست خيطاً دقيقاً من الوجع ينعطف من مفك الكتف اليمنى ويصعد إلى الرقبة، وأدركت تعبيراً لفظياً ينشأ في ذهني ويجري إلى لساني ليختلج به. وهذا التعبير الاختلاجي هو «الوجع الأزرق».

مع المفاجأة التي اعترتني من المفارقة الظاهرة في تركيب عبارة «الوجع الأزرق» تشبث النظر بخيط الوجع فلمح الزرقة اللطيفة ما تزال تلون خيط الوجع. ها هو الوجع وها هو أزرق.

فمن أين جاءت الزرقة إلى الوجع واختلطت به؟

لم يطل بي البحث عن الجواب، فها هو البحر وها هي السماء وها هما عيناي تترددان بين الزرقتين الآن ومنذ عشرين يوماً. إن عين الوعي المداومة على إدراك الزرقة تتحقق بالنظر قد [وإني أتردد في إصدار الحكم] اصطبغت بصباغ السماء والبحر معاً. وحين تحولت عين الوعي عن زرقتي البحر والسماء إلى مراعاة خيط الوجع رأته ممزوجاً بما فيها من الزرقة.

إذاً ينطلق إشعاع الوعي إلى موضوعه مُلَوَّناً بهالة من لون الموضوع الذي كانت تقع عليه عين الوعي قبل تحولها إلى سواه. أكان هذا؟ أم أن الموضوع الذي احتل أعصاب شاشة الوعي هو الذي يومض إلى الوعي فيتلون ومضه بلون الموضوع الذي غادره الوعي وظل على شيء من لونه بعد أفوله؟

لا شك في أنهللإحساس ديمومة في أعصاب الحاسة. فالإحساس بخط نار متواصل إثر مرور نيزك أو إدارة عودٍ تجمر طرفه تنبيك بأن زوالَ مصدر الطاقة عن نقطة من المدار لم يؤد إلى زوال الإحساس بما كان عنه وهو في تلك النقطة. ثم إن النظر إلى المصباح الكهربائي ذي الشريط الدقيق المقاوم الواقع في «دارة التناوب» لا يرينا انقطاعاً ثم اتصالاً ما بين دفقة ضوء ودفقة، ذلك أن الإحساس بالضوء اللاحق يتصل بالسابق بفضل سرعة التردد وبفضل دوام الإحساس السابق.

ولولا ديمومة الإحساس لما تمكن أحد من سماع لفظة تامة ولا جملة تامة: بل ولا حرف من الأصوات.

فهل تكون العين عينين واحدة إلى الخارج وواحدة إلى الداخل والداخلية هي المنوط بها الوعي؟ لماذا يا ترى نجد الألفاظ الدالة على العين الناظرة إلى الخارج والدالة على وظائفها ونعوتها وعيوبها نجدها إياها الألفاظَ الدالةَ على النظر الداخلي:

انظر في الأمر، نظرية، رأي سديد، ضاربك العمى، مشاهدة الصوفي، أشهد أن لا إله إلا الله، المعمى من العبارات والرسائل، الهدى، نور العقل، الذكاء نور، البصر والبصيرة، الإشراق، الرؤيا، شفت بنومي، قصر النظر...

لولا أن كان الأعمى على وعي لأُغرينا باعتبار النظر الداخلي كله من أعمال العين أي شقيق النظر الخارجي. ولماذا لا نتشجع ونقول إن للأعمى عوضاً عن العين أداة وعي أخرى كما للأبكم، عوضاً عن اللسان، وسيلة تعبير أخرى؟ فهل يجوز القول بعد ذلك: إن العين أداة الوعي لدى المبصرين؟ أم أن النفس تنيط بالبصر إدراك المدارك البصرية وبالسمع الباطني

إدراك المسامع الباطنية من أصوات وكلام وبكل حاسة جوانية، شقيقة الحاسة الخارجية، ما كان إدراكه من اختصاصاتها؟ أم أن هذه القوى الإدراكية المتشعبة تشعب الحواس الخارجية تلتقي في مركز جامع هو جهاز القوة الواعية؟ ولكن لماذا تنسحب من النظر الخارجي، من العينين، أكثرية قوتهما عند النظر في موضوع نفسي؟ ولماذا أيضاً أكاد أرى أني أرى موضوعات الوعي سواء أكانت مما يعود إلى الحس الخارجي أو الرؤية الداخلية [لم أشعر إلا والقلم يكتب لفظ «الرؤية» ليدل على ما للنظر وما لغيره]؟ ولماذا يتلون الوجع باللون الذي دأبت العين على الاستغراق فيه ثلاثة أسابيع؟ أليس السؤال واجباً بعد عن أثر طغيان العين على سائر الحواس في المستقبل الإنساني العضوي والعقلي والنفسي؟ فما الذي سيتمخض عن شراهة العين التقنية الألكترونية من آثار على الإنسان وحياته وعلى الأرض وما عليها؟ أليست العين هي التي تستطلع لتجيب؟ فما بالك؟! قال الشاعر: «مالي أراك قائماً تُبالي»، وشرحه اللسان قال: «تبالي: تنظر». فقد يكون لكل خلجة من خلجات النفس حركة خاصة في العين يمكن الاستدلال بها.

المهم في إدراك الوجع الملوَّن هو التركيب اللفظي غير المألوف وغير المفهوم. فهو عيِّنة من عينات التعبير الذي يسود كلام المنفصمين حيث تلتئم مدارك غير متجانسة بل متنائية. فيتولد عن هذا الالتئام الشاذ كلام تختلف أجزاؤه باختلاف الأشخاص الذين يتقمصهم المنفصمون.

ويعني هذا أن اللفف لا يقتصر على دمج مقطع من كلمة في مقطع من جارتها، بل يتجاوز ذلك إلى تركيب جملة من مدارك غير معهودة في العقل العام، فإلى تأليف نص يقول شخصيات متعددة بلسان شخص واحد منفصم. وفي جميع ذلك تكون تخوم العقل منشعرة فتتسرب الغرائب ويكون الشذوذ.

[نهايـة البدايـة]

الاختلاج اللغوي خلاصة اختلاجات حسية ونفسية متشاكلة

بعدما أجريت مساء اليوم تمارين في السرير مددت رجلي تحت اللحاف وانتباهي واقع على أنفاسي على ما يبدو. كان الزفير يقول ء ه (= eh) وإبهام الرجل اليمنى المستوية يدفع بباطنه قطعة من تقاطيع التنجيد التي في اللحاف الصوفي. أحسست كأن لحم الإبهام وقع على لحم من مثله وضغط عليه. رأيت في الحال لساني يتقدم ويضغط بمقدم سطحه الأيمن من يمين الغار العلوي ما يعادل مساحة باطن الإبهام التي التقت قطعة الصوف المنجد. وفي اللحظة ذاتها رأيت كيف اقتطعتْ (ء ه) من صوت مجرى الزفير واختلج في لساني لام مغلظة كلام قُلْ (= الأمر للمفرد من قال) مع غلظة أو استعلاء زائد في (قُ). وفي سرعة البرق، إن لم يكن أسرع، انقلبت (ء ه) إلى (عَ)، والتحمت الـ (عَ) باللام الساكنة، واندفعت الوحدة المؤلفة من (عَ) و (لْ) - أي (عَلْ) - تثير اختلاجاً في جهاز النطق كان دأبُه أن يكمل هذه الوحدة وهو (. . . لُوشِه). فكان لفظ (عَلُّوْشِه). و (عَلُّوْشِه) اسم الدلال المحوَّل عن اسم (علي) يطلقه الأهل على عَلِيِّهم الصغير. وتجلى لفظ (عَلُّوْشِه) كما يتجلى في السمع لدى مناداة أخيه محمد به. كأن ذكرى صوت محمد وهو ينادي أخاه حضرت الذهنَ ولكن ليس في المركز الدماغي المختص بالذكرى بل في المركز السمعي من الدماغ. فقد قال الاختـلاج في الذهن: «عَلُّوْشَه».

وهذه الواقعة وأشباهها لا ينبغي لها أن تمر بلا قطاف. فضغطُ الإبهام على اللحاف ولَّد ضغطَ اللسان في مخرج اللام. وهذا معناه أن الإحساس الذي حملته الأعصاب من باطن الإبهام إلى الدماغ قد ترك في الدماغ الأثر عينه الذي يتركه فيه الدفع باللسان ليمين مقدم الغار وقت انعقاد المخارج للنطق باللام. فَيَكُوْنُ الذهنُ قد ابتنى (لْ) بأثر من إحساس نشأ في عضو غير نطقي. وتَكُوْنُ (لْ) الذهنية حركةً دماغيةً مشتركةً بين إحساس لمسي لاصفةَ لغويةً له وإحساسٍ لمسيٍّ ذي صفة لغوية. ويَكُوْنُ الحرفُ اللغويُّ الذهنيُّ بما هو حركةٌ دماغيةٌ يدركها العقلُ واجباً بانعقاد مخارج جهاز النطق للتلفظ بالحروف سواء أدى ذلك الانعقاد إلى إنتاجِ أصوات تلك الحروف، أو اقتصر على إنتاج اختلاجاتها غير المصوتة أو على إنتاج أجزاء من هذه

الاختلاجات باعتبار هذه الأجزاء الاختلاجية كفيلةً باستتمام بنية الحروف التي هي من ضمنها في قرارة الوعي، كما يكون ذلك الحرف واجباً بأي حركة جسدية كالتي تكون بالنطق.

وهذا الواقع الذي تشهد له الحروف الناشئة في الذهن، ومن ثم في اللسان، بآثار من حركات عفوية محسوسة في جميع المواقع الحساسة من الجسد، تشهد له كذلك المشاهدُ الطبيعية اللامبالية التي تؤدي، عن طريق اختلاج العينين، بالدماغ إلى الاختلاج بحروف لغوية أو بكلمات يعيها العقل بصفتها حروفاً لا بصفتها شبيهة بالحروف. ومن شهادات التجربة على صحة ذلك ما حدث وأنا أصعد صباحاً بالسيارة في جبل لبنان عن طريق الكرامة (الشوف). فقد درج نظري على سطح قرميدي مائل نتجه نحوه، وفي الحال تولَّد في الذهن حرف الراء: (رْرْرْ)، وامتد اختلاجه إلى اللسان فمال نحو مخرج الراء وتذبذب بخفوت تذبذبه الذي يكون منه حين نحركه للفظ الراء.

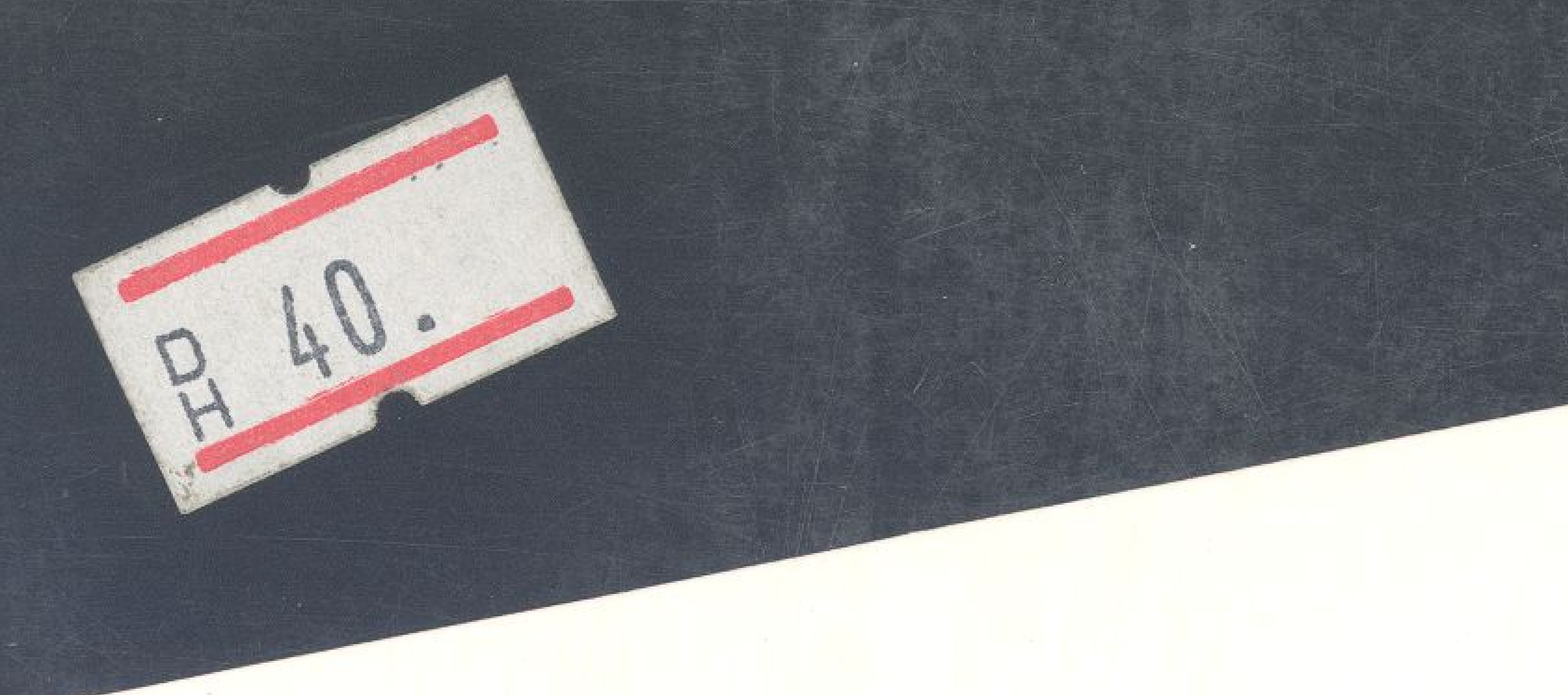
أما صور الحروف الخطية، وصور الأرقام فشيءٌ من ذلك، فإنها تنشأ في الذهن بكثرة لدى ملاقاة النظر أشياء طبيعية تشبه في أشكالها الحروف والأرقام. الموزة مثل الراء والهلال مثل الراء وكل غصن بفرعين يشبه الرقم (٧) وهَلُمَّ جراً.

فهل نركن إلى هذا الرأي القائل بأن حركات جهاز النطق النطقية قد اتخذت صفة الرموز اللغوية المعبَّر بها عن كافة شؤون الحياة لأنها هي وأجزاؤها، عند علم الوعي والـوعي المستسر، أمثالٌ جامعة لشتى حركات الجسد واختلاجاته الخفية والظاهرة؟.

ما لم يكن اختلاج الحرف في الذهن، في أعصاب الدماغ اللغوية، مثالاً للاختلاجات الحسية الظاهرية وللاختلاجات الباطنية، ما كان منها عضوياً وما كان شعورياً أو خيالياً، لاستحال نبض الدماغ بالحرف مع هذه الاختلاجات التي سبرنا نزراً منها. ونترك للعلماء والمتبحرين سبر مجاهل الاختلاج الدقيق العميق دون أن نعلن أننا استقلنا.

فهذا الكتاب كله مجرد فاتحة ولا ختام له.

المحتويات



الاختلاج اللساني

إن رقصة الدماغ المتكررة بتكرر اختلاجات جهاز النطق في عملية الكلام الأهلي، ورقصته بسماع الأصوات الكلامية الأهلية، لا تقتصر فقط على الرأس بأعضائه وأعصابه، بل تنداح بصورة متواصلة في أنحاء الجسم، خالقةً اختلاجاتٍ مُرة وحلوة، وإراداتٍ ومشاعر وأخيلة وحدوساً لا تنقطع، لا في اليقظة، ولا في النوم.

هذه الرقصة الدماغية الحاصلة بالكلام الذي يسمعه أو يتفوّه به أفراد المجتمع، توحِّدهم بقدر ما هي واحدة في ذاتها وفي توابعها، لا على الصعيد النفسي والخُلقي فقط، بل على صعيد الجسد وحركاته كذلك. فلا تستغرب إذا ولد ولد لا يشبه أبويه ثم صار يشبههما، بعدما كبر، في النفس والشكل والسلوك.

فبالكلام يستوي الفرد وَتراً بين ملايين الأوتار التي تنبض بما يخالج أو يعتري خضم المجتمع من تموجات.

لذا كانت مناولة الكلام للطفل طقساً يناوله به المجتمع مفاتيح جميع الطقوس.

